ري سامراء

آثار المؤلف المطبوعة في الري

المطبوعات العربية

١ ـ « ري أراضي الخرج في نجد » تقرير فني حول مشاريع الري في نجد نشر في مكة المكرمة سنة ١٩٣٩ .

٢ ـ «الري في العراق» طبع في مطبعة التفيض الأهلية ببغداد سنة ١٩٤٢ . (نفد)

٣ ـ « المصادر عن ري العراق » — كتاب جمع فيه المؤلف المصادر التي تبحث في شؤون الري في العراق ، ولخص محتوياتها ، وعلق عليها . طبع في مطبعة الحكومة ببغداد سنة ١٩٤٢ . (نفد)

٤ ـ «بين عدن والأردن» ترجمة لكتاب سير وليم ويلكوكس : طبع في مطبعة الحكومة ببغداد سنة ١٩٤٣ .

٥ ـ « وادي الفرات ومشروع الحبانية » . الجزء الأول ، ومعه ١٨ خارطة و ١٥ تصويراً ، طبع في مطبعة الحكومة ببغداد سنة ١٩٤٤ . (نفد)

٦ ـ « وادي الفرات ومشروع سدة الهندية » ، الجزء الثاني ، ومعه ٢٢ خارطة و ٢٦ تصويراً ، طبع في مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٤٥ .

٧ ـ « في ري العراق » ، الجزء الأول ، ومعه أطلس يضم ١٦ لوحة خارطة ، طبع في مطبعة الحكومة ببغداد سنة ١٩٤٥

٨ ـ « تطوّر الري في العراق » . ومعه ٢٨ لوحة بين تصوير وخارطة ، طبع في مطبعة المعارف في بغداد سنة ١٩٤٦ .

٩ ـ « مشروعات الري الكبرى ـ خزان هور الشويجة » طبع في مطبعة المعارف في بغداد سنة ١٩٤٧ .

١٠ ـ « مشروعات الري الكبرى ـ خزان بحيرة الشارع » طبع في مطبعة المعارف في بغداد سنة ١٩٤٧ .

١١ ـ « مشروعات الري الكبرى ـ إحياء النهر الجعفري » (معد للطبع) .

١٢ ـ « مأساة هندسية أو النهر المجهول » يبحث هذا الكتاب في منشأ النهر الذي حفره المتوكل في سامراء لايصال المياه الى المتوكلية وفي تطوره وتطور الامور الغامضة التي لابست هذا المشروع ولا سيما أسباب فشله ونتائج الفشل الخطيرة بالنسبة الى خطط انشاء العاصمة العباسية في سامراء .

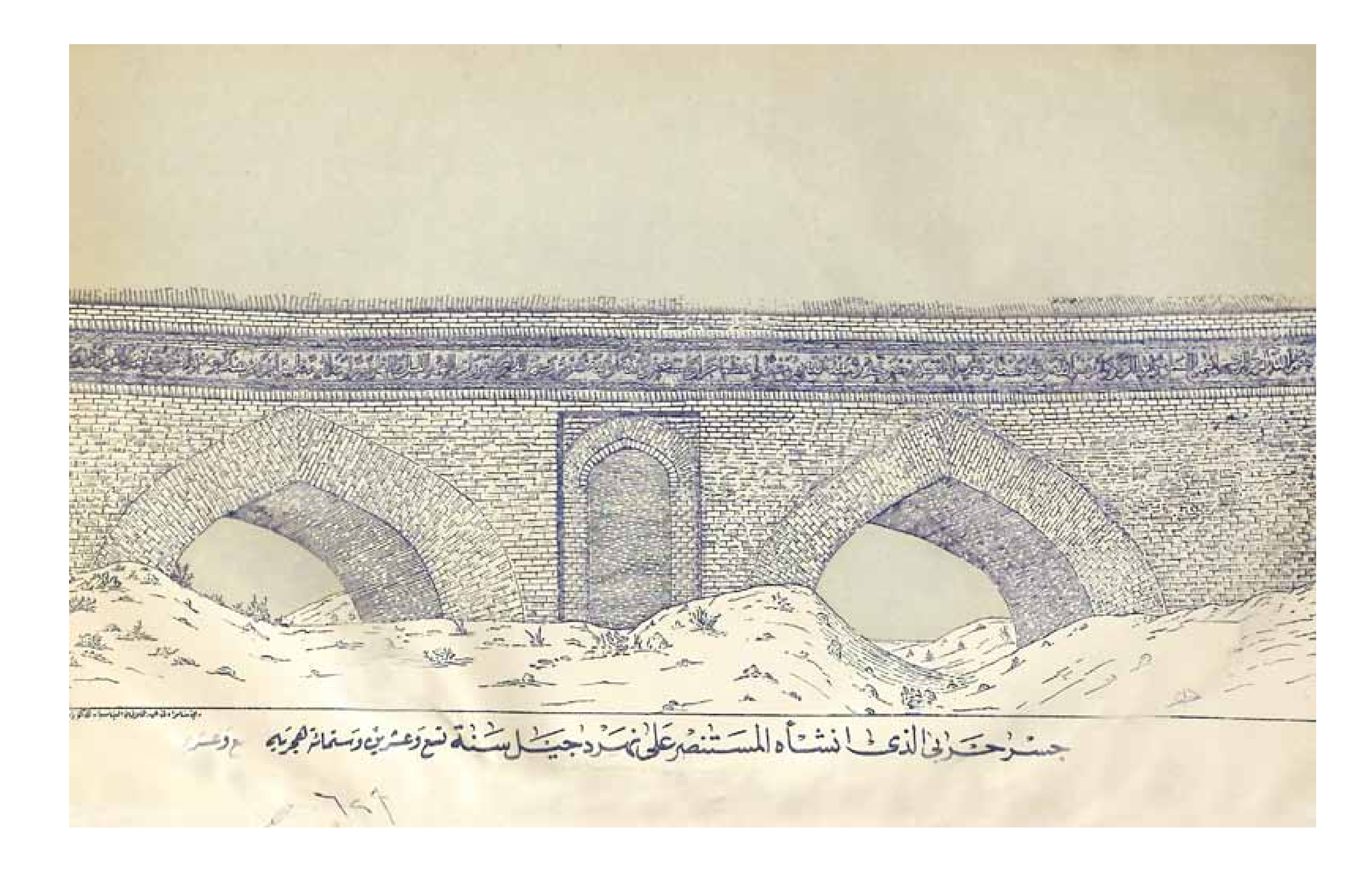
١٣ ـ « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » ، الجزء الأول ، وهو هذا الكتاب .

١٤ ـ « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » الجزء الثاني (تحت الطبع)

١٥ ـ «معجم المصطلحات الهندسية» وهو معجم للمصطلحات الهندسية عني المؤلف بجمعها وترجمتها من الانكليزية الى العربية والتعليق عليها (معد للطبع) .

المطبوعات الانكليزية

1. «Handbook of Instructions for Discharge Observers in Iraq,» Compiled by the author and Mr. F. S. Bloomfield. Printed at the Government Press, Baghdad, 1932.
2. «The Capitulatory Régime of Turkey - Its History, Origin and Nature» 401 pages. The Johns Hopkins Press, Baltimore, U. S. A., 1933.
3. «Iraqi Irrigation Handbook», Part I, Iraqi State Railway Press, Baghdad, 1944 (With 16 Plates in Portfolio) .
4. «Iraqi Irrigation Handbook, » Part II (in Preparation) .
5. «Irrigation in Iraq — its History and Development.» Facts and Prospects in Iraq Series (English Edition). The Commercial Press, Jerusalem, 1945.
6. «The Hindiyah Barrage — its History, Design and Function» (With 17 maps and 22 illustrations). The Government Press, Baghdad. 1945.



جسر حربى الذى انشأه المستنصر على نهر دجيل سنة تسع وعشرين وستمائة الهجرية

الدكتور أحمد سوسة

ري سامراء

في عهد الخلافة العباسية

يبحث هذا الكتاب في تاريخ سامراء وفي نهر «النهروان» و«الجعفري» وفي «قناة سامراء» و«حير المتوكل للوحوش» و«بركة البحتري» وفي كل ما يتعلق بمشاريع الري القديمة في منطقة سامراء في عهد الخلافة العباسية

الجزء الاول

— الطبعة الأولى —

مطبعة المعارف - بغداد

١٩٤٨

الإهداء

إلى أولئك الأبطال البررة والجنود المجهولين الذين احيوا تلك
المشاريع الجبارة في حياة عراقنا العزيز وإلى أولئك الذين سيقدرون
الجهود التي بذلتها فستسهل بها دراسة احياء سوس هذه الأرض
اقدم كتابي هذا

المؤلف

مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّفْ

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ دخلت معترك الحياة الهندسية العملية في مصلحة الري قبل ثماني عشرة سنة وأنا مسحور ومعجب بعظمة مشروعات الري القديمة في سامراء ، تلك المشروعات التي تعد من أهم مشروعات الري في العالم المتحضر ، وأعني بما تقدم بصورة خاصة مشروع النهروان الذي يبدأ من مدينة سامراء ويمتد الى أكثر من ثلثمائة كيلو متر في شرقي نهر دجلة حتى مدينة الكوت الحالية ، وهو المشروع الذي يعد، بشهادة سير ويليم ويلكوكس،اعظم مشروع ري اصطناعي في العالم . أجل،منذ ذلك الوقت اختمرت في ذهني فكرة، بل رغبة ملحّة تكاد تكون أقرب الى الهواية والولع منها الى واجب الوظيفة — هي رغبة شديدة وطموح قوي وميل متزايد لاستقصاء مكنونات هذه الاعمال الجبارة التي ترك لنا الاسلاف آثارها الناطقة بتاريخهم العظيم وماضيهم المجيد . منذ ذلك الوقت أخذت اطالع وأتتبع وأجمع كل ما قيل وكتب عن هذه المشروعات مدفوعاً بحب الاطلاع وبدافع الطموح لأن استقي من مناهل الحقائق التاريخية ما أستعين به كخبير ري في أحياء موات هذه الأرض المباركة واعادة مجدها الغابر باحياء مشاريعها القديمة على أساس فني يتلاءم وأحدث ماوصل اليه علم الهندسة في العالم الجديد.

ولا يخفى ما لمشروعات الري القديمة من صلة وثقى بالدراسات الأثرية التاريخية مما يجعل التحقيق عن الواحدة دون الأخرى متعذراً في اكثر الحالات. وتبرز هذه الصلة بصورة جلية اذا ما أردنا دراسة جغرافية سامراء القديمة ، فان مدينة سامراء العباسية كانت محاطة بأنهر اصطناعية وطبيعية من أطرافها

كافة ، فكان نهر الاسحاقي يحدها غرباً ، وهو النهر الذي يمتد على طول المدينة التي في غربي دجلة ، كما انه كان يحدها نهر النهروان شرقاً على طول المدينة الكائنة شرقي دجلة ، هذا الى أن دجلة كانت تخترقها من وسطها ، الأمر الذي يجعل دراسة جغرافية سامراء في عهد الخلافة العباسية بدون دراسة مشاريع الري القديمة في تلك المنطقة أمراً صعباً إن لم يكن متعذراً . لذلك رغبت ان تقوم بعثة من اختصاصيي الري والآثار القديمة على أن أكون أحدهم للتعاون في سبيل انجاز دراسة تاريخ المنشئات في منطقة سامراء في عهد الخلافة المذكورة دراسة علمية شاملة لتأتي بالثمرة العلمية المنشودة ، إلا أن اشغال دائرة الآثار في أعمالها الأثرية الواسعة في مختلف انحاء العراق لم يساعد على تفرّغ موظفيها الاختصاصيين للدراسة المذكورة ، فاضطررت أن أقوم بدور خبير الري ودور المؤرخ الاثاري في آن واحد لانجاز الدراسة المطلوبة . ولقد قمت بالدور الاول مستعيناً باعمال المسح وبتجاربي الطويلة في شؤون الري العراقية للوقوف على تفاصيل تصاميم منشئات الري القديمة والاهداف التي كان يرمي اليه انشاؤها ، كما قمت بالدور الثاني مستعيناً بالكتابات التاريخية في مختلف اللغات وبالاطلال الأثرية المتبقية من الابنية القديمة حتى انتهيت الى نتائج اعتقد انها أقرب ما يمكن الوصول اليه من معلومات تاريخية حول جغرافية سامراء القديمة ومشروعات الري في منطقة سامراء في عهد الخلافة العباسية بصورة صحيحة .

وقد ظهر لي أن اكبر نقص في الابحاث عن شؤون هذه المدينة العباسية الخالدة عدم وجود خارطة حقيقية جامعة لمواقع منشئات المنطقة ، وان ما هو موجود مبعثر هنا وهناك واكثره منقول عن خرائط اجنبية ومعظمه بعيد عن الواقع ولا يمكن أن يعوّل عليه الباحثون أو المحققون . لذلك كان عليّ قبل أن أقوم بدراستي عن الانهر القديمة والمواقع الاثرية في هذه المنطقة ان أجري مسحاً خاصاً لبعض الاماكن التي قمت بدراستها ، وقد استغرق ذلك مدة طويلة حتى تسنى لي أن أجمع كافة المعلومات المطلوبة للموضوع ، وقد استعنت بآثار

الأنهر القديمة واتجاهاتها ومناسيبها الى الاستعانة بالاخبار التاريخية أنّى وجدتها لاستخلاص النتائج المطلوبة. وقد رسمت بنتيجة هذا المسح والتدقيقات التاريخية التي قمت بها خرائط حقيقية للاماكن الاثرية في منطقة سامراء والانهر القديمة في تلك المنطقة مع تصاميم منشئات الري في مختلف المواقع ، فكانت أولى الخرائط الحقيقية التي تنشر حول الموضوع . ولما كنت اعتقد أن هذه المجموعة من الخرائط والرسوم سيتخذها المحققون والمؤرخون مرجعاً في تتبعاتهم وبحوثهم فقد أعرتها اهتماماً خاصاً وذلك بتدقيق المواقع تدقيقاً عملياً بتتبع الآثار نفسها وتعيين أماكنها الجغرافية على الخرائط بصورة متقنة .

والذي يسترعي الانتباه ان معظم المدن والقرى العربية القديمة التي كانت على مجاري الأنهر القديمة في منطقة سامراء ولا سيما تلك التي كانت على مجرى النهروان ومجرى دجلة القديم الذي كان يسير غربي قرية بلد الحالية ، لا تزال محتفظة بأسمائها الاصلية رغم مرور مئات من السنين عليها، ومن أهم ما يجده القارىء في هذا الكتاب هو تعيين هذه المواقع بالنسبة الى الوضع الحاضر حسب الخرائط الحديثة وتصحيح ما ورد من أخطاء في بعض الاوصاف التي في الكتب الاجنبية عن هذه الاماكن .

ومما يؤسف له أن مراجعنا الحديثة كلها انحصرت في فئة من كتّاب الافرنج واقتصرت هذه الابحاث، التي تتعلق بأهم ناحية من نواحي تاريخنا القومي ، على الغربيين من السوّاح والمؤرخين والكتاب . . وقد فسر كل من هؤلاء بقايا المنشئات وآثار المشروعات القديمة التي اقامها اسلافنا في العراق بحسب ما أوحت اليه ميوله . فاذا كان الكاتب أو المؤرخ عسكرياً فسّر المنشئات التي شاهدها تفسيراً عسكرياً، وصبغ معظمها بصبغة عسكرية فصوّر الجداول المندرسة خنادق دفاعية واطلال القرى والمدن متارس وحصون وأكتاف الانهر أسواراً وقلاعاً، وإذا كان المحقق آثارياً هاوياً صوّر الآثار بحسب الاتجاهات الغربية التي اعتاد

مشاهدتها في بلاده فصوّر البركة (امفيثئتر) والكهريز(١) نفقاً للمرور والناظم قنطرة للعبور الخ ... ومن أغرب الامور اننا قبلنا ما قدمه لنا هؤلاء من دون أي تدقيق وأعتبرنا أقوالهم في شؤون تاريخنا القومي حجة لا تقبل الرد أو الجدل . وأوضح مثال من هذا القبيل أقوال ميجر لاين عن المواقع الأثرية في منطقة سامراء ، فقد اعتبر في كتابه «مسائل بابلية» كل ما هنالك من اطلال وجداول قديمة مشروعات بابلية عسكرية تتصل بسور الميديين والاعمال الدفاعية التي انشئت هناك للدفاع عن سد نمرود القديم ، على حين أنه ليس هناك سوى أنهر قديمة مندرسة وبقايا مدن وقرى ومنشئات للري كالنواظم والسدود وهدفها الأساسي الاعمار الزراعي بتنظيم الري في تلك المنطقة ، وان معظم هذه الاعمال يعود الى العهد العربي . وقد دوّن في كتابه هذا أيضاً نظريات حول مجرى النهروان يتضح منها أنه كان بعيداً كل البعد عن فهم حقيقة هذا المشروع والاهداف التي انشيء من اجلها في مختلف الادوار .

وقد كنت منجرفاً مع التيار في قبول كل ما كتبه هؤلاء الغربيين عن منشئاتنا ومشاريعنا المندرسة حتى اتضح لي بعد التبحر في هذه الموضوعات والتدقيقات العملية في هذا المضمار بأن هناك اموراً لا يمكن للغربي ، مهما كان عالماً، أن يتوصل الى حقيقتها مثل مايستطيع أن يدركها الخبير العراقي المتضلع في اللغات المحلية وفي شؤون المحيط الذي اقيمت فيه هذه المنشئات القديمة ، وهو نفس المحيط الذي ترعرع فيه وخبر بواطنه . ومع كل هذا فعلينا أن نعترف بفضل هؤلاء العلماء إذ سبقونا في تتبعاتهم وتحققاتهم في بلاد الشرق ، فانهم أسسوا لنا بمؤلفاتهم وابحاثهم وتتبعاتهم دعامة علمية ثمينة نستطيع أن نبني عليها حقائق علمية وتاريخية تسجلها لنا الاجيال المقبلة بمداد من الفخر والتقدير. وأملنا وطيد أن ينبري الشباب العربي فيقتدي برجال الغرب ويدخل معترك

---

(١) الكهريز اصطلاح محلي ومعناه القناة التي تسير تحت الأرض

الحياة العلمية بنفس الاقدام والمواظبة والتضحية التي امتاز بها الغربيون فنبرهن للعالم المتمدن على قابليتنا واستعدادنا لاحياء تراثنا العلمي القديم وعلى اظهار حقائقه وتوضيحها بصورة علمية غير مشوهة .

أما المراجع المبتسرة حول آثار سامراء العباسية ومنشئاتها القديمة من جداول وقصور ومنتزهات وغيرها فتقتصر على كتب معدودة من تآليف الكتاب الغربيين، وأهمها تلك التي وضعها المهندس الفرنسي فيوله (Viollet) والعلامة الالماني الدكتور ارنست هرزفلد (Dr. Ernest Herzfeld) ، فقد كان اهتمام هذين الآثاريين محصوراً في أبنية معينة من أبنية سامراء القديمة البارزة كقصر الخليفة الذي كان يعرف بدار الخليفة أو الباب العامة وقصر المنقور الذي كان يعرف باسم بلكوارا وقصر العاشق الذي كان يعرف بالمعشوق . وقد اقتصرت ابحاث الأخير على فن الأبنية والاساليب المتخذة لتزيينه وتزويقه وتحسينه ، أي الصنائع الفنية الاسلامية كالنقوش والزخارف الجصية والتخاريم وغيرها من الامور المتعلقة بذلك . لذا فانه لم يعر الناحية الخاصة بجغرافية منطقة سامراء القديمة والناحية المتعلقة بمشاريع الري في تلك المنطقة التفاتاً كافياً . وقد رسم هرزفلد مخططاً لمدينة سامراء وشوارعها استند في وضعه الى وصف اليعقوبي للمدينة ، إلا ان هذا المخطط فضلاً عن أنه لا يشمل الا قسماً من المدينة فهو لا ينطبق في كثير من النواحي لا على الواقع ولا على وصف اليعقوبي نفسه[1] . اما مشاريع الري العائدة الى ذلك العهد فلم يتطرق احد اليها إلا ما جاء عرضاً، وهذا ماحدى بي ان اتحرّى واتتبع وانقب في المصادر التي كانت سامراء بني العباس وقطائعها وبساتينها وجوامعها وبركها

(١) في غرة سنة ١٩١١ شرعت بعثة المانية في التنقيب عن آثار سامراء ، وقد نال الامتياز بالحفر العلامة المشهور الاستاذ فريدريك صارة (Frederic Sarre) البرليني الرحالة وعهد الى الدكتور هرزفلد الذي كان آنذاك أحد أساتذة جامعة برلين للاخذ بهذه الاشغال المهمة .

تستقي المياه منه بغية التوصل الى معلومات صحيحة حول هذا الموضوع المعقّد الذي بقي مجهولاً في حقل الابحاث الأثرية .

اما المراجع العربية عن آثار سامراء العباسية فان أهم ما كتب عنها نشرة دائرة الآثار العراقية عن سامراء المطبوعة في مطبعة الحكومة في بغداد سنة ١٩٤٠ . وهذه النشرة ، مع تقديرنا للجهود التي بذلت في سبيل وضعها ، لاتخلو من النواقص ، ونأمل ان تقوم دائرة الآثار بطبعها طبعاً مجدداً تتدارك فيه النواقص لتكون دليلاً مفيداً للزائر من جهة والمتتبع في شؤون سامراء التاريخية من الجهة الاخرى . ومن أهم هذه النواقص خلو النشرة من أي بحث يتعلق بمشروعات ري سامراء القديمة كمشروع النهروان ومشروع الاسحاقي ومشروع نهر دجيل[1] وغيرها من مشاريع الري التي انشئت في عهد المتوكل لايصال المياه الى مدينة سامراء ومتنزهاتها ، كما أنه لا بد من اضافة خارطة عامة الى النشرة تبين فيها المواقع المهمة من سامراء القديمة .

والظاهر أن دائرة الآثار العراقية قد انصرفت بكليتها تقريباً الى دراسة الآثار القديمة التي يرجع تاريخها الى ما قبل العهد الاسلامي ؛ اما تاريخ العهد العربي فلم تعره اهتماماً كافياً ، ولعلّ السبب في ذلك يرجع في الدرجة الاولى الى ان الناحية التي وجهت اليها هذه المؤسسة منذ تشكيلها كانت تتصل بهذه الدراسات القبتاريخية ، وذلك بناء على اهتمام الغربيين بالآثار التي تتصل بنشؤ الحضارات البشرية ، وهي الآثار التي اجتذبت العلماء والمحققين لاكتشاف مكنونات هذه الحضارات . ولايخفى ان الغربيين بذلوا وما زالوا يبذلون بكل سخاء في سبيل تحقيق هذه الناحية من التاريخ البشري . ومع اننا نقدر أهمية هذه الدراسة ونؤيد ضرورة اهتمام دائرة الآثار العراقية بها ، إلا اننا نرى في الوقت نفسه لزاماً علينا أن نعطي آثارنا الاسلامية العربية نصيباً من

---

(١) ان التسمية الشائع استعمالها للنهر المذكور « نهر الدجيل » والصحيح « نهر دجيل » كما ورد في المصادر العربية التاريخية .

الالتفات والاهتمام وان نشجع الدراسات العلمية في هذا الاتجاه ، وهي الدراسات التي تشتمل على ناحية مهمة من نواحي تاريخنا القومي بصورة عامة والحضارة الاسلامية العربية بصورة خاصة .

ومن أهم الابحاث التي عولجت في كتابي هذا موضوع النهروان وتاريخه وتطوراته في مختلف العصور لأعطاء فكرة عن الدور الذي لعبه هذا النهر العظيم في تاريخ ري العراق القديم ؛ ولا سيما مايتعلق بمنطقة سامراء في العهد العباسي[1] . وقد تبسطت في البحث عن مختلف أدوار هذا المشروع فأودعت فيه خلاصة ماتوصلت اليه عن نشؤ النهروان وتاريخه وتطوره، ورسمت خرائط تبين تفاصيل تخطيط هذا المشروع ولا سيما تفاصيل القسم الواقع في منطقة سامراء . وموضوع النهروان خطير يكتنفه الكثير من الغموض والتعقيد نظراً لتداخله مع أدوار عدة واختلاف الآراء حوله وقلة المصادر عنه ، فان تاريخه يتألف في الحقيقة من تاريخ حضارات أدوار عديدة مرت على العراق في مجرى تاريخه العريق في المدنية والعمران . وعليّ أن أقول بأني لم أجد في كل ماخضته من ابحاث عن ري العراق القديم موضوعاً اكتنفه غموض وتبلبل مثل موضوع النهروان ، وما كنت لأجرأ على التطرق الى بحثه لولا ثقتي بما توصلت اليه من نتائج بعد دراسة متواصلة مدة تربى على خمسة عشر عاماً ، فقد كنت لعدة سنوات خلت مديراً لمنطقة ري ديالى وقد تمكنت خلال هذه المدة من دراسة قسم النهروان الواقع في تلك المنطقة دراسة دقيقة ، ثم قضيت مدة وانا مدير منطقة ري الكوت فقمت خلالها بدراسة القسم الواقع في تلك المنطقة ، وأخيراً قضيت مدة غير قليلة في منطقة سامراء نفسها فدرست خلالها القسم الاعلى من النهر . وكان من أصعب الامور تتبع آثار فروع النهروان والوقوف على حقيقة أمرها لأن معظم الاراضي التي تخترقها هذه الفروع قد زرعت الأمر الذي سبب محو معالم هذه الفروع في معظم اقسامها .

---

(١) راجع الفصول الثاني والثالث والرابع والتاسع والعاشر والحادي عشر .

ولا يخفى ان احياء النهروان يتطلب قبل كل شيء الوقوف على أصل النهر وتاريخه وتطوراته ، وهذه المعلومات غير متيسرة ، الأمر الذي حملني على مواصلة جهودي في سبيل سد هـــذا الفراغ لتمهيد السبيل الى اعادة احياء هذا النهر التاريخي العظيم والاستفادة منه كما استفاد منه أسلافنا .

اما ما كتبه الاجانب عن هذا الموضوع فقد يعد كتاب فيليكس جونس عن النهروان الكتاب الوحيد في هذا الباب ، وهذا وضع في منتصف القرن التاسع عشر وطبعته حكومة الهند في سنة ١٨٥٧(١). ومع اننا لا ننكر الجهود الجبارة التي بذلها هذا البحاثة لاخراج هذا الكتاب الى الوجود في ذلك الوقت الحرج ، فان كتابه يميل في كثير من الاحيان الى الخيال،الامر الذي جعله بعيداً عن الحقائق الواقعية المستندة الى تدقيق علمي فني.فقد مسح المستر فيليكس جونس المنطقة التي يقطعها النهروان على طول مجراه ونظم خرائط كانت تعد في ذلك الوقت تحفة نادرة لصعوبة الوصول الى تلك الأماكن النائية وللمخاطرة في سبيل الحصول على أية معلومات من هذا القبيل . اما الآن فنجد أن خرائط فيليكس جونس لا تخلو من الاغلاط ثم ان ارتباكه في بعض نواحي الموضوع جلي ، فانه لم يستطع ان يفرّق مثلاً بين السد المقصود منه رفع مناسيب المياه وبين قنطرة العبور أو الناظم ، هذا فضلاً عن أنه لم يستطع تتبع الفروع وتعيين اتجاهاتها ، وهو معذور بذلك ، لأن عملاً من هذا القبيل لايخلو من الصعوبات والعقبات حتى في الوقت الحاضر ، إذ لايمكن الوصول الى هـــذه التشعبات إلا مشياً على الاقدام في كثير من الاحيان ، هذا عدا ما تتطلبه الدراسة في هذه الناحية من اختصاص فني . لذلك نرى فيليكس جونس قد صوّر في خرائطه آثار المنشئات القديمة كما شاهدها لا كما كان عليه تصميمها

---

(١) راجع سلسلة المختارات من سجلات حكومة بومباي ، المجلد الثالث والاربعين لسنة ١٨٥٧ ص ١ ـ ١٣٤ .

Selections from the Records of the Bombay Government, No. XLIII, New Series, 1857, p. 1-134.

الاصلي، دون أن يدرك الغاية التي انشئت من اجلها . وأهم مافي كتاب فيليكس جونس بنظرنا هو وصفه لبعض المواقع الأثرية كما شاهدها قبل حوالي مئة عام وذلك قبل أن تفقد معالمها ، ومن المعلوم ان معظم هذه المواقع الأثرية فقدت معالمها خلال المئة سنة المنصرمة بنتيجة رفع الانقاض من قبل الأهلين وزراعة الأراضي التي تقع فيها هذه الاماكن .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن السير ويليم ويلكوكس تسرّع فألّف كتاباً عن النهروان قبل أن تطأ قدماه أرض العراق(١) ، مستقياً معلوماته من كتاب فيليكس جونس ومستنسخاً خرائط جونس نفسها ، الا انه كان متحفظاً في نقل هذه المعلومات بحيث نقلها حرفياً ثم بنى عليها ما بناه واقترح اعادة احياء النهروان على شكل واسع لم يؤيده بعد مجيئه الى العراق وقيامه بدراسة الوضع ، ونحن لانشك في أنه ندم على تسرّعه هذا لانه وقع في اخطاء كثيرة وبصفته خبير ري لا يعذره الفنيون فيما يبديه من ملاحظات مغلوطة . على ان الذي نستخلصه من ابحاث سير ويليم ويلكوكس انه لم يتوصل الى نتائج معينة في هذا الموضوع حتى بعد مجيئه الى العراق وقيامه بدراسة مشروعات ري العراق القديم ، لانه لم يستطع ان يعيّن علاقة نهري ديالى والعظيم بالنهروان في مختلف العصور ولا وفق الى بيان علاقة الصدور العديدة الواحد بالآخر الى غير ذلك من الامور المتعلقة بتاريخ النهروان وتطوراته . ولعله تعذر عليه تتبع آثار النهروان وفروعه كلها والوقوف على كل ما كتبه المؤرخون ولا سيما مؤرخو العرب في هذا الموضوع . لذلك نراه قد تجنّب البحث في تاريخ المشروع وتطوراته في مختلف ادواره ، واذا تطرّق الى

(١) راجع كتابه «اعادة احياء مشاريع الري القديمة على نهر دجلة واعادة احياء كلدو» المطبوع في مصر في سنة ١٩٠٣ .

«The Restoration of the Ancient Irrigation Works on the Tigris or the Recreation of Chaldea» By Sir William Willcocks.

الموضوع فكان ذلك عرضياً. ومما يؤيد ذلك ان مقترحاته الأخيرة في تقريره عن مشاريع الري اقتصرت على احياء النهروان الاسفل ، اي القسم الذي يمتد من نهر ديالى الى الذنائب قرب الكوت ، وذلك باسالة مياه نهر ديالى الى ذلك القسم لأرواء الأراضي الواقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة بين بغداد والكوت ، وبذلك طوى صفحاً عما اقترحه في كتابه السابق عن النهروان .

أما ما كتبه المؤرخون عن النهروان فهو محدود ومبعثر كما ان بعضه بعيد عن الواقع ولا بد من تمييزه بالتعليق عليه ، وما وصلنا من كتاباتهم عنه جاء عرضياً أو في مناسبات خاصة ، وقد جاء في كتاب « الفهرست » لابن النديم ذكر كتاب للمدائني [١] عنوانه « النهروان » وكتاب آخر لهشام الكلبي [٢] عنوانه « الانهر » ، ولكن لسوء الحظ ان الكتابين المذكورين من جملة الكتب التي فقدت من جراء النكبات المختلفة التي توالت على هذه البلاد ولا سيما في غزو التتار لبغداد .

اما ما كتب على عهد الفرس عن النهروان فلم اعثر على أي مصدر يبحث في الموضوع الا ماجاء عرضياً في رسائل الانبراطور هرقل الى مجلس الاعيان الروماني ، بمناسبة غزو الرومان لبلاد فارس في عهد كسرو ابرويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م .) ، ويظهر ان جدول النهروان كان من جملة العقبات التي حالت دون تقدم هرقل في غزوه لمملكة فارس .

ومن المشروعات التاريخية المهمة التي تتصل بمشروع النهروان وعالجتها في هذا الكتاب المشروعين ، « سد نمرود » و « سور الميديين » ، فقد بحثت في مختلف نظريات الكتاب والمؤرخين في هذين المشروعين ووضعت خرائط خاصة لهما . ولعلاقة سد نمرود بتطور مجرى دجلة كان لا بد من البحث عن مجرى دجلة القديم الذي يمتد بين العاصمتين العباسيتين ، سامراء المعتصم وبغداد المنصور ، لذلك

---

(١) ولد في سنة ١٣٥ ومات سنة ٢١٥ هـ .

(٢) توفي سنة ٢٠٦ هـ .

أفردت بحثاً خاصاً عن ذلك وعززته بخارطة تبين اتجاه ذلك المجرى ومواقع المدن الرئيسية التي كانت عليه. ومما يلفت النظر ان معظم هذه المدن لا يزال محتفظاً باسمائه الاصلية كـ « العلث » و « حربى » و « الحظيرة » و « باجمشا » و « مسكن » و « جويت » و « أوانا » و « عكبرا » و « بصرى » وغيرها(١) .

ومن جملة المشاريع التي تطرقت اليها في هذا الكتاب مشروع « نهر القورج » القديم ، وهو المشروع الذي كان السبب المباشر في أكثر حوادث الغرق التي كانت تحصل في بغداد الشرقية ، كما كان السبب في تحوّل نهر دجلة في القسم الذي يمتد بين سامراء وبغداد من اتجاهه الغربي الى المجرى الشرقي الحالي(٢) . وفي الكتاب أيضاً بحث عن مشروع النهرين « الاسحاقي » و « دجيل » الواقعين على الضفة الغربية من نهر دجلة ، ففي هذا البحث معلومات جديدة عن تاريخ هذين النهرين المذكورين والتطورات التي اعتورتها في مختلف الادوار(٣) .

ومن أهم ما توصلت اليه خلال دراستي لنظام الري القديم في منطقة سامراء العباسية تعيين موقع بركة البحتري ، البركة التي كانت تعرف باسم البركة الجعفرية ، نسبة الى منشئها جعفر المتوكل ، وتثبيت حدود حير المتوكل للوحوش ، وهو الحير الذي كانت البركة تقع فيه . وبركة البحتري وحديقة المتوكل للحيوانات معروفتان لدى الأدباء والكتّاب من قصيدة البحتري المقصورة في وصف البركة والحير ، حيث عدّت من اسمى المعاني الشعرية في العهد العباسي :

يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات إذا لاحت مغانيها
مابال دجلة كالغيرى تنافسها ... في الحسن طوراً وأطواراً تباهيها
أما رأت كالىء الاسلام يكلأها ... من أن تعاب وباني المجد يبنيها

---

(١) راجع الفصل الثاني من الكتاب

(٢) راجع الفصلين الثالث والرابع

(٣) راجع الفصول الأول والثالث والحادي عشر

كأنّ جن سليمان الذين ولوا ابداعها فأدقوا في معانيها
تغني بساتينها القصوى برؤيتها عن السحائب منحلاً عزاليها

الى أن يقول :

وطاعةالوحش إذ جائتك من خرق احوى وادمانة كحل ما آقيها
كالكاعب الرود يخفي في ترائبها ردع العبير ويبدو في تراقيها
ألفان وافت على قدر مسارعة الى قبول الذي حاولته فيها
إن سرتسارت وإن وقفتها وقفت صوراً اليك بالحاظ تواليها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت بالحير في عرصة فسح نواحيها

وقد استرسل البحتري في وصف البركة وقد سمّاها بالبركة الحسناء ، فصوّرها « كالبحر في عظمتها » وقال ان « وفود الماء كانت تنصب فيها معجلة كالخيل الخارجة من حبل مجريها » ، وكانت من السعة بحيث كان يتعذر على الاسماك الملوّنة التي كانت فيها أن تتحول من جانب الى آخر لما بينهما من بعد ، ثم ذكر أن هناك رياضاً وبساتين كانت تحف بها الى مسافات بعيدة ، كما أن هناك نهراً يسمى « نهر نيزك » كان يغذيها بالمياه ، وهو النهر الذي كانت ترد منه الحيوانات الوحشية التي في الحديقة وهي تبلغ الفي وحش . وقد صوّر البحتري دجلة الى جانب البركة وهى «غيرى تنافسها في الحسن طورا وتباهيها طوراً» ، كما صوّر « نهر نيزك » وهو يتوسط البركة فشبّهه بماء البحر . وقد أشارالبحتري في قصيدته الى مقصورات تطل على البركة والى«صحن رحيب» في أسافل البركة والى بهو في أعالي البركة والى ساحة تسمى بـ«ساحة التل» قرب القاطول كانت حيوانات الحير ترتادها . ومن بدع المتوكل المبتكرة التي أشار اليها البحتري الدواليب التي كانت على البركة والتي كان يديرها النعّام ثم تمثال الدلّفين الذي يتصدرها .

أين قد تكون هذه البركة ، وأين هو « نهر نيزك » وأين هي حديقة الحيوانات التي كان يخترقها هذا النهر ، وكيف جاءت المياه الى البركة تجري

مسرعةً « كالخيل الخارجة من حبل مجريها » ... وكيف كانت تصرّف مياه البركة ؟ ... هذه هي من جملة الأسئلة التي كانت تستحثني كخبير ري على التنقيب والتحري والتتبع للتوصل الى جواب يشفي غليلي ويرفع الستار عن مكنونات هذا المشروع العظيم . وكلما أردت أن أقنع نفسي بما ذهبت اليه مديرية الآثار القديمة من أن البركة الحسناء التي كانت مصدر وحي البحتري تقع أمام القصر المعروف بدار الخليفة ، القصر الواقع شمالي مدينة سامراء الحالية بقليل[1] ، وجدتني في حيرة من أمري . وقد حاولت كثيراً أن اعتبر هذه النظرية صحيحة فقضيت عدة أيام وأنا أتخطى هذا المكان ساعات كثيرة كل يوم ، وكلما تذكرت وصف البحتري للنهر الذي كان يجري كالسيل وكلما تذكرت قوله ان المياه كانت تجري «معجلة كالخيل الخارجة من حبل السباق» كلما ايقنت بصورة جازمة على أن دائرة الآثار كانت بعيدة من تعيين موقع البركة ... أين هو النهر وأين المغاني ، وأين الدكتان « كمثل الشعرتين غدت احداهما بأزاء الاخرى تساميها »؟... وأين «الصحن الرحيب في أسافل البركة والبهو على أعاليها»؟... أين البساتين وأين الحديقة التي كانت تضم الألفي وحش ؟ واين ساحة التل قرب القاطول التي كانت مغنى من مغاني هذه الحيوانات ... أين كل هذا ؟ ... اني لم اعثر في المكان الذي أشارت اليه دائرة الآثار على أثر واحد من هذه الآثار... إذن كان عليَّ أن أتحرّى عن البركة الحسناء في مكان بالقرب من القاطول ونهر دجلة اولا ، وفي أرض منخفضة يساعد مستواها على جري النهر فيها بحيث تنتهي هذه الأرض الى « مواطيء » يمكن تصريف مياه البركة اليها ، هذا فضلاً عن ان المكان لا بد من أن يكون في منطقة وسيعة رحبة بحيث تضم البساتين والرياض والساحات الواسعة للالفي وحش ، وهي الساحات التي تقع على حسب وصف اليعقوبي ضمن « حائط يدور في صحراء حسنة واسعة » ... وكم كانت دهشتي حين قادتني الصدفة ، أثناء قيامي ببعض التحريات عن مجرى

---

(١) راجع نشرة مديرية الآثار القديمة عن سامراء (مطبعة الحكومة ١٩٤٠) ص ٥٥

النهروان القديم بغية دراسة امكانيات هذا المشروع ، الى ان اكتشف البركة الحسناء بعينها على حين غرة ، بعد وصولي الى ذنائب أحد فروع هذا النهر . نعم، هي انها بركة البحتري نفسها بدكتيها الواسعتين وبصحنها الرحيب في اسافلها وبالبهو في اعاليها ، وأمامها السور الذي يضم الوحش فيبلغ مجموع طوله حوالي الثلاثين كيلو متراً ، وخلفها القصر الواسع وكذا ساحة التل التي كانت مغنى الوحش قرب القاطول ودجلة .

ذلك هو المكان الذي يعرف الآن باسم « المشرحات » وهو يقع على مسافة زهاء ستة كيلو مترات من مدينة سامراء الحالية شرقاً ، فهناك يمكن تتبع آثار سور حير الحيوانات وبقايا البركة بحسب اوصاف البحتري(1). ومن المهم ان نذكر في هذا الصدد ان مديرية الآثار العراقية العامة اتصلت بالدكتور هرزفلد لاستمزاج آرائه عن موضع المشرحات على اثر ما نشرت في الصحف المحلية عن نتائج دراساتي في منطقة سامراء ، ولا سيما مايتعلق بموضع المشرحات الذي لم يكن لدائرة الآثار علم به من قبل ، فأجاب الدكتور بكتاب وجهه الى المديرية المذكورة بتاريخ ٢٧ تموز سنة ١٩٤٧ انه كان قد لاحظ أطلال المشرحات والبركة أثناء وجوده في منطقة سامراء وأن السور الذي يقع هناك كان على حسب اعتقاده حدود ساحات الصيد الواسعة التابعة لحائر الحير . فلما بعثت الى الدكتور المومى اليه نسخة من منشوراتي حول الموضوع وشرحت له خلاصة ماتوصلت اليه من نتائج ، بعد اجراء تحقيقاتي في منطقة سامراء ، أجابني بكتابه المؤرخ ٢٩ آب ١٩٤٧ ، أي بعد اجابته على كتاب مديرية الآثار العامـــة بحوالي الشهر قائلاً مانصه : « بناء على مذكراتي المدونة قبل عشر سنوات اني اتفق واياكم في كل ما ذهبتم اليه بمقالكم تقريباً » . ويجد القارىء نص جواب

(1) يجد القارئ بحثاً منفصلا عن اطلال المشرحات هذه وحديقة الحيوانات وبركة البحتري في الفصول الثلاثة الرابع والسادس والسابع كما يجد عدة خرائط ورسوم حقيقية تبين تفاصيل الحير والبركة .

الدكتور هرزفلد إليّ في الفصل الرابع وقد دوّنته كما جاء منه باللغة الانكليزية .

ومن المواقع الأثرية المهمة الاخرى التي عولجت في كتابي هذا « حصن القادسية القديم » الواقع في الجهة الشرقية من نهر دجلة جنوبي مدينة سامراء ، وهو الحصن التاريخي المثمّن الذي يشغل مساحة تقرب من ثمانمائة دونم (مشارة) في منطقة القادسية[1] . وقد اختلفت الآراء حول هذا الحصن ، فمنهم من اعتبره حصناً من حصون العرب ، والآخر عده بنية من أبنية الفرس ، وهنالك من اعتبره من الحصون البابلية القديمة التي ترجع الى عهد نمرود ، على ان الذين قالوا بعروبته لم يتفقوا في الرأي عن الزمن الذي انشىء فيه فقد نسبه فريق الى عهد المعتصم وفريق آخر الى عهد الرشيد . اما النتائج التي توصلت اليها بنفسي هي ان الحصن المذكور انشىء في نفس الوقت الذي انشىء فيه مشروع النهروان ، وانه انشىء جرياً على العادة القديمة المألوفة في ذلك الوقت من ضرورة اقامة الحصون المنيعة على صدور الجداول المهمة للمحافظة عليها والحيلولة دون استيلاء العدو عليها أو قطع الماء عنها . وكان رأي دائرة الآثار العراقية ان الحصن المذكور من عمل المعتصم وانه من جملة أبنية المدينة التي ابتناها المعتصم في القادسية قبل أن ينتهي الى سامراء ، وقد طلبت الدائرة المذكورة الى الدكتورهرزفلد ان يزوّدها برأيه الخاص في الموضوع فأيد رأيها وأضاف الى ذلك قائلاً إنه كان يعتقد بأن البناء من عمل الرشيد إلا انه وجد أخيراً انه من منشئات المعتصم التي اقيمت في القادسية قبل أن ينتهي الى سامراء . وقد بعث الدكتور هرزفلد بجوابه هذا الى دائرة الآثار قبل أن يقف على نتائج دراساتي حول الموضوع ، فلما شرحت له خلاصة ما توصلت اليه من نتائج بعد اجراء تحقيقاتي في منطقة سامراء ، وهي نفس النتائج التي شرحتها في مؤلفي

(١) تعرف القادسية هذه بقادسية دجلة وذلك لتمييزها عن قادسية الكوفة التي على نهر الفرات .

هذا ، أجابني بكتابه المؤرخ ٢٩ آب ١٩٤٧ وذلك بعد ارساله برأيه الى مديرية الآثار العامة بحوالي الشهر قائلاً ما نصه : « بناء على مذكراتي المدونة قبل عشر سنوات اني أويد كل ماذهبتم اليه بمقالكم تقريباً عدا ما جاء حول سور القادسية المثمّن الذي لا يزال مشكوكا في أمره . فيظهر ان البناية هذه غير كاملة وعلى المرء أن يلاحظ أيضاً احتمال كون البناية من عمل هارون الرشيد » . ويستفاد من ملاحظات هرزفلد هذه أنه لا يزال متردداً في أمر سور القادسية بحيث لم يستطع أن يتوصل الى رأي ثابت حول ذلك، فانه بعد أن أيدّ الى دائرة الآثار بانه انتهى الى الرأي القائل بأن السور من عمل المعتصم بعد أن كان يعتقد انه من عمل الرشيد عاد فرجّح في كتابه اليّ بأن بناء السور قد يرجع الى عهد الرشيد ، ويضيف الى ذلك قوله بان ما يتعلق بتاريخ انشاء هذا السور لا يزال مشكوكا فيه . والذي اعتقده أن الدكتور هرزفلد سيتفق معي في رأيي حول الموضوع بعد أن يطلع على التفاصيل المدوّنة في هذا الكتاب عن تاريخ النهروان وتطوراته في مختلف الأدوار ، وهو الموضوع الذي يعترف برسالته إليّ بأنه لم يتوصل الى نتائج حاسمة حوله ، إذ يعتبر قضية مجاري النهروان العديدة مسألة عويصة فيقول في رسالته انها « المسألة العظمى » (the great problem) (راجع التفاصيل حول الموضوع في الفصل الرابع من الكتاب)(١) .

كذلك يجد القارىء في الفصل الخامس من كتابنا هذا بحثاً عن القناة التي انشأها المتوكل لايصال المياه الى مدينة « سرّ من رأى » بالطريقة السيحية ، كما يجد في الفصل الثامن منه بحثاً عن النهر المعروف بـ « نهر الجعفري » وهو النهر

(١) علمنا بأسف شديد والكتاب دائل للطبع ان هرزفلد قد انتقل الى دار الخلود . ولا شك ان فقدانه يعد خسارة كبرى للعلم لاسيما وان الراحل من الرحالات الذين قاموا بخدمات علمية جليلة من حيث التأليف والتنقيب والتتبع في مختلف المواضيع التاريخية والأثرية في ربوع بلاد الشرق الأوسط .

الذي حفره المتوكل لايصال المياه الى مدينة المتوكلية شمالي سامراء بالطريقة السيحية أيضاً ، والذي وصل اليه علمي القليل انه لم يتطرق أحد الى البحث عن هذين المشروعين حتى الآن . أما المشروع الأول - مشروع القناة - فيشتمل على قناة خفية تستمد المياه من نهر دجلة من شمالي الدور ، فتسير الى مسافة حوالي أربعين كيلومتراً حتى تصل الى قلب العاصمة (سرّ من رأى) ، وقد مدّ المتوكل هذه القناة الى الجنوب حتى جوار القادسية ، فتمكن بفضل هذه القناة من انجاز مشاريعه الجبارة في قلب العاصمة والتوسع شرقي مدينة سامراء باتجاه منطقة الحير ، ومن أهم هذه المشاريع مشروع انشاء حلبة السباق التي في الحير ، وهي الحلبة التي أمّن وصول المياه اليها من دجلة ، ثم مشروع انشاء بركتي دار الخليفة . ولا شك في أن هذه القناة هي التي مكنت المتوكل من تموين المسجد الجامع الذي انشأه في أول الحير بالمياه الدائمة .

واما مشروع النهر الجعفري - وهو المشروع الذي ذكر اليعقوبي ان المتوكل انفق عليه ما يقرب من مليون دينار وقال الطبرى ان اثنى عشر الف شخص اشتغلوا فيه ولكنه لم يجر الماء فيه إلا جرياً ضعيفاً - فيشتمل على حفر جدول من ضفة دجلة اليسرى في نقطة تقع على بعد حوالي أربعين كيلومتراً من شمالي تكريت ، فيسير جنوباً بمحاذاة نهر دجلة مسافة حوالي ستين كيلومتراً حتى يصل الى المتوكلية . وكان الجدول المذكور يموّن بركة القصر الجعفري بالمياه كما أنه يموّن السواقي التي على جانبي الشارع الاعظم وجامع أبي دلف بالماء أيضاً . ولا شك في أن فشل هذا المشروع قد أدى الى نتائج خطيرة بالنسبة الى مركز الامبراطورية العباسية في ذلك العهد ، ولعله كان من أهم الاسباب التي حملت المنتصر على هجران مدينة المتوكلية بعد مقتل المتوكل ورجوعه الى سامراء ، الأمر الذي أدى أخيراً الى نقل العاصمة الى بغداد .

ولعلّ من أهم مافي ابحاث هذا الكتاب من الوجهة التاريخية اكتشاف

مجرى النهر الجعفري ومنشئاته وتفرعاته وتوضيح أسباب فشل هذا المشروع الخطير . وقد وضعت خارطة حقيقية عن مجرى النهر وتفرعاته والمواقع الأثرية والمنشئات التي عليه مع مناسب القعر على طول المجرى (راجع لوحة رقم ١) ، كما رسمت خارطتين اخريين تبين إحداهما حدود المتوكلية وموقع القصر الجعفري وبركته وقد رسمتها على أساس المسح الخاص الذي اجريته بنفسي هناك (راجع رسم رقم ٢) ، وتبين الثانية اتجاه الشارع الأعظم مع مناسيبه على طول المسافة التي بين سور اشناس والمتوكلية (راجع رسم رقم ٩٧) . وقد رسمت أيضاً مخططاً بتفاصيل العبّارة التي كانت تعبر مياه النهر من فوق مجرى القاطول الكسروي قبل أن يفضي الى المتوكلية (راجع رسم رقم ١٦) ، ومع أن هذا المخطط مستند الى معلومات فنية دقيقة فهو من تصوراتي الخاصة واختباراتي الشخصية عن منشئات الري معتقداً أنه أقرب صورة اوضع العبّارة التي انشئت في زمن المتوكل . وقد تتبعت آثار الأنهر والكهاريز كافة في هذه المنطقة بالسيارة وعلى ظهور الخيل ومشياً على الاقدام للتثبت من اتجاهاتها وتثبيت مواضعها على الخرائط المرفقة وهي أول خرائط تبين هذه التفاصيل على شكلها الحقيقي .

ويجد قارىء البحث عن عمران سامراء القديمة على الضفة الغربية من دجلة (الفصل الاول) بحثاً خاصاً عن معسكر الاصطبلات الذي بقي امره مجهولاً لندرة المراجع عنه،فقد عدّه البعض من بقايا البابليين، واعتبره البعض الآخر من أعمال المعتصم،وهناك من نسبه الى عهد متأخر(عهد المتوكل).وكنا مترددين في أمر هذا المعسكر أيضاً حتى انتهى بنا التحقيق الى اتصاله بعهد المعتصم،واعني بذلك ماتوصلت اليه من ارتباط المعسكر المذكور بمشروع نهر الاسحاقي الذي انشىء في عهد المعتصم ليموّن المعسكر بالمياه . فان آثار الفروع التي كانت تتفرع منه وتفضي الى المعسكر لاتزال واضحة المعالم ويمكن تتبعها بسهولة ، كما أن النواظم

والسدود التي انشئت على النهر المذكور لتقسيم المياه لايزال في الامكان مشاهدتها عند مداخل الفروع الى المعسكر . وقد اكتشفت السور الخارجي الذي كان يحيط بالمعسكر فيبدأ هذا السور من حافة نهر دجلة الغربية في المكان المعروف باسم « تل بندري » الذي يقع على مسافة قليلة من جنوبي مدينة سامراء الحالية فيمتد مسافة ستة وعشرين كيلومتراً غربي المعسكر ثم ينتهي جنوباً الى حافة دجلة الغربية أيضاً عند التل الأثري المعروف باسم «تل مسعود». وكان هذا السور محصناً بأبراج عدة انشئت في المنعطفات وفي المداخل الرئيسية للمعسكر . اما مساحة هذا المعسكر فتبلغ ثلاثة وعشرين الف دونم (مشارة) .

ومما يلفت النظر أن قسماً كبيراً من أراضي المعسكر كان يستعمل لاحداث مراعي اصطناعية لجياد الجيش الامبراطوري ، أما القسم المبني ضمن السور الداخلي فكان معداً لسكن الجنود والضباط . وكانت أراضي المعسكر تغمر بالمياه من نهر الاسحاقي فيتكون بذلك المرعى المطلوب وهو ما نسميه « بالچاير». وكانت هـــذه الطريقة متبعة في القطر العراقي منذ أقدم الازمنة وقد استمر استعمالها في المقاطعات الواسعة حتى شرع في تنظيم الري وسن قانون الري والسداد العراقي الذي يمنع احداث مثل هذه المراعي في الاراضي الزراعية .

ومن الغريب ان رأي هرزفلد في آثار الاصطبلات ـ وهو الرأي الذي ابداه في كتاب أرسله إلي بتاريخ ٢٩ آب ١٩٤٧ ـ انه يحتمل ان تكون هذه الآثار بقايا أطلال قصر العروس الذي ورد ذكره في كتب المؤرخين العرب ، مستنداً في رأيه هذا الى ما جاء في كتاب الاغاني من وصف رحلة نهرية قام بها المتوكل وبصحبته ولاة العهود من سامراء الى قصر العروس . وفيما يلي نص قوله : ــ « أما أطلال الاصطبلات فمن الصعب التوصل الى تشخيص ما كانت عليه اذا استندنا الى المدونات التاريخية، ولكن من المحتمل انها بقايا قصر العروس الكبير حيث جاء في الاغاني (٩ : ٣٢) ان جماعة من المحتفلين انحدروا من جسر سامراء

فنزلوا في النهر حتى وصلوا الى هذا القصر مما يدل على أن القصر كان في الضفة الغربية ، وأنه كان كثير الكلفة على حسب ما ذكره ياقوت (٣ : ١٧) وانه كان أوسع قصور سامراء

فاذا راجعنا النص المشار اليه في الأغاني نجد انه ليس فيه أية اشارة أو أي دليل على أن قصر العروس كان في الجهة الغربية من دجلة أو انه كان جنوبي سر من رأى أو شماليها . ولا ندري كيف توصل هرزفلد الى الرأي الذي تقدم ذكره في حين أن كل مافي آثار الاصطبلات ينطق بكونها ثكنات للجيش، وقد يكون في التسمية وحدها المتوارثة حتى اليوم ، أي الاصطبلات، كفاية للدلالة على انها كانت اصطبلات الجيش العباسي .

ومما يلفت النظر ان تحقيقاتنا عن منشئات الري في المنطقة موضوعة البحث دلّت على أن الأقدمين كانوا يستعملون الخرسانة في مباني الري على نحو ما هو متبع الآن في تصاميم منشئات الري الحديثة ، خلافاً لما كان يظن من أن عمل الخرسانة من مبتدعات الفن الحديث . وسيرى القارىء من مجرى البحث عن تصميم بناء السد الغاطس في ذنائب القاطول الكسروي[1] والسد الثاني الذي في القسم الاوسط من النهروان ، وهو السد الذي كان يعرف باسم « الشاذروان الأسفل »[2] ، بان هذين السدين كانا قد انشئا بالخرسانة على نفس الطريقة الفنية الحديثة المتبعة في تصميم امثالها من السدود . ويلاحظ من تصميم السد الأول، وهو التصميم الذي رسمته على ضوء الآثار المتبقية ليبين الوضع الذي كان عليه هذا السد في الاصل ، ان هذا العمل لا يختلف عن أي تصميم حديث لمثل هذه السدود على الجداول الكبيرة أو الأنهر الواسعة ، فهو قريب جداً من تصميم سد ديالى الثابت الحالي الذي انشىء في جبل حمرين في السنوات الأخيرة . كما

(١) راجع البحث في الفصل الثالث ورسم رقم ٦

(٢) راجع البحث في الفصل العاشر ورسم رقم ٢٠

انه يلاحظ من تصميم السد الثاني (الشاذروان الأسفل) أن هذا السد لا يختلف عن تصاميم نواظمنا الحديثة بشيء ، لاننا نجد فيه تنظيمات خاصة لتسهيل مرور السفن ، كما ان تصميم هذه التنظيمات يشبه تصاميم (الاهوسة)[1] الحديثة من كل الوجوه .

ولما كنت أشعر بأن كشف أسرار المشاريع الجبارة التي أقامها أسلافنا في هذه المنطقة لا يفضي الى أية فائدة عملية ما لم يستفد من تاريخ هذه المشاريع في وضع برنامج خاص لاحيائها من جديد واستثمارها كما استثمرها اسلافنا فقد أفردت فصلاً خاصاً ، هو الفصل الثاني عشر والأخير من هذا الكتاب ، وبحثت فيـــه عن امكانيات مشروعات الري القديمـة في سامراء ـ وهي انهر « الجعفري » و« النهروان » و « الاسحاقي »و « دجيل »ـ على أمل أن تنال المقترحات الواردة فيه تأييد رجالات حكومتنا الموقرة وتوجيههم السامي لعلمي انهم يحرصون على تنفيذ كل مافيه خير البلاد . وهذا ما يريح ضميري بالطبع ويمكنني من جني ثمرة أتعابي وتضحياتي في هذا السبيل . ومع أني اعتقد ان البحث في مثل هذه الامور في بلد كالعراق لايخلو من التضحيات والمضايقات، فقد عقدت النية على أن أحقق مابدأت به لاعتقادي الجازم أن هناك فئة تقدر الخدمة في هذا السبيل .

ولا بد من القول في هذا الصدد بأن هذه المنطقة العريقة في تاريخها المجيد والتي كانت في زمن ما مضرب الأمثال في خصبها وخيراتها ، بفضل ازدهار المشاريع التي مر ذكرها، قد أصبحت الآن أرضاً بلقعاً لا زرع فيها ولا ضرع ترتادها الذئاب والوحوش وتغزوها الرمال من كل صوب . نعم ، ان هذه المنطقة التي كانت جنة من جنان الله قد اصبحت صحراء قاحلة لا يمكن الوصول اليها دون قيادة ربان الصحراء . ولو كان للآثار والاطلال لسان لوصفت لنا العز

(١) جمع هويس وهو اصطلاح المصريين لمعبر السفن

والرفاه اللذين كانا مخيّمين على سكان تلك البقاع ، ولـكن ذلك الصمت الرهيب الذي يسيطر على كل حواسنا والتاريخ المجيد الذي ترتسم سلسلة حوادثه في مخيلتنا حين نزور هذه الاطلال يغني عن النطق ففيه عتاب ، وفيه لوم ، وفيه مطالبة ، وفيه مناداة . نعم ، عتاب ولوم لتقاعسنا عن واجبنا ، اما المطالبة والمناداة فهي مطالبتنا بالعمل لاحياء موات هذه الأرض المباركة ، فهل نحن ملبون النداء ومجيبون للمطالبة ؟ ...

وقبل أن أختم مقدمتي هذه أود أن اسجل بعداد الفخر والاعجاب اهتمام دائرة الآثار القديمة في العراق وعنايتها في هذا الموضوع باتصالها بالعلماء والمستشرقين وبارتياد المواضع الأثرية كلما استجد بحث أو ظهر كتاب ، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بان هذه الجهود لا بد وان تنتهي الى الحقائق العلمية التي هي ضالة كل متتبع ، وإذا كانت لدي كلمة أخرى اختم بها هذه المقدمة فهي تسجيل آي الحمد والثناء للمديرية المشار اليها عن المساعدات التي اسدتها اليّ حين مراجعة خزائن كتبها واعارتي ثمين تصاويرها وتفضل المسئولين فيها باصطحابي الى المواضع الأثرية للتثبت من النتائج التي توصل اليها التحقيق ، فمديرية الآثار مؤسسة علمية يحق لـكل عراقي ان يفتخر بها وبمجهودها .

أحمد سوسة

بغداد : ٤ شباط ١٩٤٨

محتويات الكتاب

	صفحة
الاهداء	٩
قائمة الرسوم	٤٢
قائمة الالواحات	٤٤
قائمة التصاوير الفوتوغرافية	٤٥

الفصل الأول

سامرآء عاصمة بني العبّاس

١ ـ سامراء عاصمة بني العباس
٢ ـ موقع سامراء في عصور ما قبل التاريخ
٣ ـ سبب اختيار المعتصم موضع سامراء دون غيره
٤ ـ المرحلة الأولى لانشاء مدينة سامراء ـ عهدا المعتصم والواثق .
أ ـ شارعا الخليج والسريجة
١ ـ الواديان ـ وادي ابراهيم بن رياح ووادي اسحق بن ابراهيم
٢ ـ الأبنية والقطائع على شارع السريجة
ب ـ شوارع أبي احمد والحير الأول وبرغامش التركي
ج ـ دار الخليفة أو دار العامة
د ـ حلبة السباق وساحة اللعب
هـ ـ القصر الهاروني والجسر الذي على دجلة
و ـ بناء الجوسق
ز ـ العمران في الجانب الغربي من نهر دجلة

ح ـ مشروع نهر الاسحاقي
ط ـ بناء الحويصلات
ي ـ قصر العاشق
ك ـ معسكر الاصطبلات
ل ـ رأي هرزفلد في الاصطبلات
٥ ـ المرحلة الثانية لانشاء مدينة سامراء ـ عهد المتوكل
أ ـ شارعا الاسكر والحير الجديد
ب ـ حائر الحير
ج ـ المسجد الجامع الكبير
د ـ حير الحيوانات وبركة البحتري
هـ ـ ساحة الحير وحلبات السباق وتل العليق
و ـ قصر الدكة في ساحة الحير
ز ـ قصر بركوارا (المنقور)
ح ـ مدينة المتوكلية وقصورها وشوارعها
ط ـ جامع أبي دلف
ي ـ مشروعات الري في عهد المتوكل

الفصل الثاني

النهروان ـ منشؤه ـ تطوّره

١ ـ تمهيد
٢ ـ صدور النهروان
٣ ـ نهر القائم ـ مجرى النهروان الصيفي

٤ ـ نهر الصنم ـ مجرى النهروان الشتوي
٥ ـ القاطول الأعلى الكسروي
٦ ـ المنشآت الرئيسية والمدن المهمة على النهروان والقاطول الكسروي
٧ ـ منشأ النهروان
٨ ـ السدان القديمان على النهرين ديالى والعظيم
٩ ـ مشروع سد ديالى القديم
١٠ ـ مشروع سد العظيم القديم
١١ ـ مشروع سد نمرود القديم
١٢ ـ سور الميديين وسد نمرود
١٣ ـ مجرى دجلة القديم الذي بين سامراء وبغداد
١٤ ـ طسوجا بزرجابور ومسكن
١٥ ـ ملاحظات اجمالية

الفصل الثالث

القاطول الكسروي ومشروع القورج

١ ـ القاطول الكسروي
٢ ـ أهداف القاطول الكسروي
٣ ـ طسوج بزرجسابور والسد الغاطس في ذنائب القاطول الكسروي
٤ ـ القاطولان الاعلى والأسفل
٥ ـ مشروع نهر القورج
٦ ـ آثار مجرى القورج
٧ ـ موقع صدر نهر القورج ـــ سد العلث
٨ ـ خطر نهر القورج على مدينة بغداد الشرقية من الغرق

٩ ـ فروع نهر القورج
١٠ ـ مشروع نهر دجيل القديم
١١ ـ ملاحظات اجمالية

الفصل الرابع

النهروان في العهد الاسلامي

[قاطول الرشيد]

١ — تمهيد
٢ — مشروع الرشيد — نهر أبي الجند
٣ — مجرى القورج وغرق مدينة بغداد الشرقية
٤ — مجرى القورج وتحوّل مجرى دجلة
٥ — مشروع اعادة حفر نهر القائم (نهر أبي الجند)
٦ قصرا الرشيد والمعتصم على القاطول
٧ — موقع قصر الرشيد — اطلال المشرّحات
٨ — موقع قصر المعتصم — منطقتا القادسية
٩ — متنزهات القادسية والقاطول
١٠ — تاريخ القادسية وتوسّع عمرانها
١١ — سور القادسية
١٢ — تاريخ سور القادسية
١٣ — رأينا في منشأ سور القادسية وفي تاريخه
١٤ — رأي هرزفلد في سور القادسية
١٥ — موقع منشئات المعتصم على القاطول

١٦ — منشئات المعتصم على القاطول وأطلال الاصطبلات
١٧ — كهريز المعتصم في القادسية
١٨ — خرائط المشرحات ومدينة المعتصم على القاطول

الفصل الخامس

قناة المتوكل

١ — تمهيد
٢ — نظام ري الكهاريز
٣ — نظام ري الكهاريز في بلاد فارس
٤ — نظام ري الكهاريز في العهد العربي
٥ — نظام الكهاريز الخاص في سامراء وقناة المتوكل
٦ — وصف قناة المتوكل
٧ — بركتا قصر الخليفة — البركة النهارية والبركة الليلية
٨ — امتداد قناة المتوكل الى الجنوب
٩ — النهران المتفرعان من القناة

الفصل السادس

حفر المتوكل للموصوف ونهر نيزك

١ — تمهيد
٢ — مشروع الناظم على القاطول الأعلى الكسروي
٣ — مشروع نهر نيزك

٤ — نهر نيزك وقواطيل ابن سرابيون الثلاثة

٥ — حير الحيوانات

٦ — حير الحيوانات حسب وصف البحتري

٧ — قصر المتوكل في الحير

٨ — قصر المتوكل في الحير وقصر الرشيد على القاطول

٩ — خرائب القصر والتنقيب فيها

١٠ — قصرا الصبيح والمليح وقصر المتوكل في الحير

الفصل السابع

البركة الجعفرية

١ — البركة الجعفرية والبحتري

٢ — قصيدة البحتري في البركة

٣ — خلاصة وصف البحتري

٤ — بقايا البركة

٥ — الفن الهندسي في تنسيق البركة

٦ — موقع البركة حسب رأي دائرة الآثار

الفصل الثامن

النهر الجعفري

١ — تمهيد

٢ — منشأ النهر وتاريخه واهدافه

٣ — تخطيط مشروع النهر

٤ — صدر النهر ومناسيبه
٥ — موقع صدر النهر كما في الطبري وياقوت
٦ — فرع الحديد وأهدافه
٧ — الفروع الأخرى للنهر
٨ — التلول الأثرية على النهر
٩ — حالة النهر وناظم مصرف الوشاش
١٠ — عبارة النهر الجعفري على القاطول الكسروي
١١ — بركة القصر الجعفري
١٢ — الشارع الاعظم
١٣ — فشل مشروع النهر الجعفري وعوامله

الفصل التاسع

النهروان في العهد العباسي الزاهر

(القسم الأول)

١ — تمهيد
٢ — كورة شاذهرمز ـ طسوج « بزرجسابور »
٣ — كورة شاذهرمز ـ طسوجا « الراذانين »
٤ — رأي لي سترانج في الراذانين
٥ — كورة شاذ هرمز — طسوجا « نهر بوق » و « كلواذى ونهر بين »
أ — مدينتا النهروأن وكلواذى
ب — أنهر مدينة بغداد الشرقية
١ — نهر الخالص وفروعه
٢ — نهر بين وفروعه

٣ — قصور الخلفاء في مدينة بغداد الشرقية

ج — جباية طسوجي « نهر بوق » و « كلواذى ونهر بين »

٦ — كورة شاذ هرمز — طسوجا « جازر » و « المدينة العتيقة »

٧ — مجموع جباية كورة شاذ هرمز

٨ — الطريق العام بين بغداد وسر من رأى يخترق كورة شاذ هرمز

الفصل العاشر

النهروان في العهد العباسي الزاهر

(القسم الثاني)

١ — كورة شاذ قباذ

٢ — مجرى ديالى وعلاقته بالنهروان

٣ — نهر ديالى فرع من النهروان

٤ مجرى ديالى « نهر تامرّا » ونهر ديالى (فرع من النهروان)

٥ — طريق خراسان العام

أ — الطريق بين بغداد ومدينة النهروان

ب— جسر مدينة النهروان

ج — الطريق بين مدينة النهروان والدسكرة

د — الطريق بين الدسكرة وجلولاء

ﻫ — الهارونية وقنطرة طرارستان

و — الطريق بين جلولاء وحلوان

٦ — كورة ارندين كرد

أ — طسّوج النهروان الاعلى

ب— طسّوج النهروان الاوسط

ج — مدينة عبرتا

د — طسوج النهروان الأسفل

ه — مصب النهروان في دجلة

و — طسوج بادرايا وباكسايا

الفصل الحادي عشر

النهروان في عهد انحطاطه

١ — تمهيد

٢ — انهيار سد ديالى القديم ونتائجه الوخيمة

٣ — مصنعة السهلية على ديالى

٤ — أهمية مصنعة السهلية بالنسبة الى حياة النهروان

٥ — موقع مصنعة السهلية

٦ — محاولة اعادة انشاء سد السهلية على عهد مدحت باشا

٧ — انهيار سد العظيم ونتائجه

٩ — دجيل المستنصر

١٠ — نهر دجيل الحالي

الفصل الثاني عشر

امكانيات مشروعات الري القديمة في سامراء

١ — اعادة احياء أنهر النهروان ، والجعفري ، ودجيل ، والاسحاقي

الحوادث المهمة الوارد ذكرها في هذا الكتاب وتواريخ وقوعها

قائمة الرسوم

رسم رقم ١ صورة الجزيرة لابن حوقل (٩٧٨ م = ٣٦٧ هـ)

رسم رقم ٢ خارطة تبين حدود مدينة المتوكلية وذنائب النهر الجعفري الذي ينتهي عندها

رسم رقم ٢ (أ) خارطة مشروع نهر الاسحاقي

رسم رقم ٢ (ب) خارطة تبين حدود معسكر الاصطبلات غربي « سر من رأى » وسوره الخارجي

رسم رقم ٣ خارطة تبين تفاصيل حلبات السباق الثلاث في سامراء العباسية

رسم رقم ٤ مخطط يبين الطريقة التي كان يتبعها الأقدمون في إنشاء صدور جداولهم

رسم رقم ٥ سد العظيم القديم في مضيق جبل حمرين

رسم رقم ٦ تصميم السد الغاطس على مجرى القاطول الكسروي عند ملتقاه بمجرى القائم

رسم رقم ٧ مخطط يبين التقسيمات التي في ملتقى القاطول الاعلى الكسروي بمجرى القائم

رسم رقم ٨ خارطة سور القادسية

رسم رقم ٩ خارطة اطلال اصطبلات على ضفة نهر دجلة اليمنى

رسم رقم ١٠ مخطط يبين مقطع الكهريز في الأرض الجبلية

رسم رقم ١١ مخطط يبين تفاصيل القصر القديم المشيد على الضفة اليمنى من نهر القاطول الاعلى الكسروي عند الكيلو متر (٢٨) منه في المكان المعروف بالدكة

رسم رقم ١٢ مخطط يبين وضع الناظم القاطعي (الشاذروان) عند الكيلومتر (٣٠) من نهر القاطول الأعلى الكسروي ـ وهو المكان المعروف باسم فكة أبي سعيد ـ والفروع المتشعبة منه من أمام الناظم .

رسم رقم ١٣ خارطة حير المتوكل للوحوش

رسم رقم ١٤ خارطة البركة الجعفرية (بركة البحتري) والقصر الذي بالحير .

رسم رقم ١٥ خارطة تقريبية تبين تفاصيل تفرعات صدر النهر الجعفري

رسم رقم ١٦ خارطة قنطرة الرصاصي وعبّارة النهر الجعفري

رسم رقم ١٧ خارطة الشارع الاعظم

رسم رقم ١٨ انهر مدينة بغداد الشرقية

رسم رقم ١٩ خارطة السد الغاطس (الشاذروان الاسفل) عند الكيلو متر (١٧٦٫٥) من النهروان أمام اسكاف بني الجنيد

رسم رقم ٢٠ تصميم السد الغاطس (الشاذروان الأسفل) عند الكيلو متر (١٧٦٫٥) من النهروان أمام أسكاف بني الجنيد

رسم رقم ٢١ خارطة تبين موقع مصنعة السهلية وسد مدحت باشا على نهر ديالى لتحويل مياه ديالى الى النهروان

رسم رقم ٢٢ الآجر المختوم الذي بنيت به مصنعة السهلية

رسم رقم ٢٣ صورة العراق لأبن حوقل (٩٧٨ م = ٣٦٧ هـ)

رسم رقم ٢٤ خارطة جسر حربى

رسم رقم ٢٥ مخطط تقريبي يبين موقع صدر نهر دجيل وتشعبات مجراه عند مغرق نهر المستنصر (نهر بلد)

قائمة اللوحات

لوحة رقم ١ خارطة تبين تخطيط النهر الجعفري المعروف باسم نهر نايفة من صدره قرب الفتحة الى ذنائبه في المتوكلية مع مناسيبه وفروعه والمواقع الأثرية عليه

لوحة رقم ٢ خارطة تبين المواقع الأثرية لمدينة سامراء العباسية ومجرى النهروان من صدره الشمالي الذي في الدور حتى نهر العظيم

لوحة رقم ٣ خارطة مجريي النهروان والقورج بين العظيم وديالى

لوحة رقم ٤ خارطة مجرى النهروان بين ديالى وعبرتا

لوحة رقم ٥ خارطة مجرى النهروان بين عبرتا والذنائب

لوحة رقم ٦ خارطة تبين اتجاه مجرى دجلة القديم بين قادسية سامراء وبغداد ومواقع المدن الرئيسية التي كانت عليه

لوحة رقم ٧ خارطة مدينة سامراء في عهد الخلافة العباسية

قائمة التصاوير الفوتوغرافية

تصوير رقم

١ ـ دار الخليفة — جبهة الشط

٢ ـ اطلال قصر العاشق — منظر عام

٣ ـ قبة الصليبية — منظر خارجي

٤ ـ مخطط قبة الصليبية — حسب تخطيط هرزفلد

٥ ـ مدينة سامراء الحالية وبقايا الجامع الكبير والملوية (صورة جوية)

٦ ـ جامع أبي دلف — الرواق الاوسط للمصلى (من الشمال) بعد الترميم ورفع الانقاض

٧ ـ جامع أبي دلف — قوسان من أقواس الرواق الاوسط للمصلى

٨ ـ ملوية جامع أبي دلف بعد ترميم القاعدة ورفع الانقاض

٩ ـ برج القائم

١٠ ـ منارة عبرتا

١١ ـ جسر حربى

الفصل الأول

سامراء عاصمة بني العباس

١ ـ سامراء عاصمة بني العباس

تقع مدينة سامراء الحالية على الضفة اليسرى من نهر دجلة على مسافة ١٣٠ كيلومتراً شمالي بغداد وهي تبعد زهاء ١٧٥ كيلومتراً عن بغداد بطريق النهر، وقد بنيت على اطلال مدينة « سر من رأى » العباسية ، والأخيرة تمتد على طول نهر دجلة الى ابعاد شاسعة فتمتد مسافة تسعة كيلومترات تقريباً جنوبي المدينة الحالية وحوالي الخمسة والعشرين كيلومتراً شماليها ، أي ان مجموع طولها يبلغ زهاء ٣٤ كيلومتر ، أما عرضها فيتراوح بين الكيلومترين والاربعة كيلو مترات ، أي بمعدل ثلاثة كيلو مترات . وعلى هذا الأساس يمكن تقدير مساحة مدينة سامراء العباسية بحوالي مائة وعشرة كيلومترات مربعة . واذا ما أضفنا الى هذه المساحة مساحة حديقة حيوانات المتوكل (حير المتوكل) التي تقع في أقصى الحدود الجنوبية وهي نحو خمسين كيلومتراً مربعاً ، وكذلك مساحة منطقة القادسية الواقعة بجوار الحديقة المذكورة وهي حوالي سبعة كيلومترات مربعة، جاز لنا أن نقدّر مساحة سامراء العباسية بحوالي ١٦٧ كيلومتراً مربعاً . ولو أضفنا الى ذلك مساحة معسكر الاصطبلات القائم على ضفة نهر دجلة اليمنى ، وهي حوالي ٥٨ كيلو متراً مربعاً ، أمكننا اعتبار مجموع مساحة سامراء العباسية ٢٢٥ كيلو متراً مربعاً، أي مايقرب من ٩٠٫٠٠٠ دونم (مشارة)، هذا عدا مشتملات المدينة من بساتين وحدائق وقصور على الجانب الايمن من نهر دجلة وهي المشتملات التي تقع

---

(١) جاء ذكر سامراء في كتاب « مفصل جغرافية العراق » للعلامة العميد طه الهاشمي باضافة اداة التعريف، الا اننا لم نعثر عليها بهذه الصيغة في الكتب العربية القديمة .

بين نهر دجلة ونهر الاسحاقي والتي تمتد على طول ضفة دجلة الغربية مقابل « سر من رأى » . ولا شك ان هذه المساحة الهائلة تجعل مدينة « سر من رأى » في عداد أكبر مدن العالمين القديم والحديث ، وهذا ما حمل ياقوت الحموي على القول بأنها « صارت أعظم بلاد الله » والقزويني على الحكم بأنه « لم يكن في الارض أحسن ولا أجمل ولا اوسع ملكا منها » . واذا ما لاحظنا ان مساحة مدينة القاهرة بما فيها مصر الجديدة — وهي اكبر عاصمة في الشرق العربي في الوقت الحاضر حيث يبلغ عدد سكانها مليونين وثلث المليون نسمة — لا تزيد على ٤٠٫٠٠٠ فدان مصري (٦٧٫٠٠٠ دونم عراقي) وان مدينة بغداد الحالية لا تزيد مساحتها على الستين كيلو متراً مربعاً (٢٤٫٠٠٠ دونم عراقي) اتضح لنا ماكان لمدينة « سر من رأى » من اتساع من حيث المساحة ومن حيث عدد السكان .

أسست مدينة سامراء العباسية في زمن الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد[1]

---

(١) هو أبو اسحق محمد الملقب بالمعتصم بالله ، ولد في الخلد ببغداد سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة ، وبويع له يوم وفاة أخيه المأمون في ١٢ رجب عام ٢١٨ هـ . وكان ابيض اصهب اللحية طويلها ومربوعها مشرب اللون ، فكان شديد البأس يحمل الف رطل ويمشي بها ، ويقال انه حمل باباً من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلا وخطا خطى كثيرة ، وانه اعتمد على غلام ندقه. كما انه كان سديد الرأي قاسياً بذل اقصى جهوده في ترسم خطط أخيه، ولكن اشنع خطأ ارتكبه هو ادخاله الاتراك في الدواوين وتشكيله فرقاً عسكرية منهم ومن الأجانب الذين كانوا سبباً مباشراً في اضعاف سلطان الخلافة وتقويض دعائمها . وكان يطلق على الذين يأتون من وراء النهر أهل فرغانة وعلى الذين يأتون من اليمن وافريقيا اسم المغاربة . وقد اصبح هذا الجيش في عزلة تامة عن جيوش العرب والفرس وصار للاتراك من القوة حتى اصبح بيدهم بعد مدة وجيزة عزل الخلفاء وتعيينهم حسب رغباتهم واهوائهم .

وكان المعتصم موفقاً في حروبه وغزواته ففي عهده فتحت عمورية وقمعت ثورة المازيار امير طبرستان كما قمعت ثورة بابك الخرمي

وكان المعتصم اغلظ الخلفاء الذين الزموا الناس القول بخلق القرآن واجبار العلماء على هذا القول. ولعل ذلك كان من جملة الاسباب التي حملت المعتصم على الانتقال الى سامراء ،=

سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦م) وهو ثامن خلفاء العباسيين ليجعلها عاصمة جديدة للملك العظيم، ثم وسّعها ابنه الواثق وأوصلها الى أوج عظمتها واقصى اتساعها المتوكل، إلا ان المدينة تركت بعد ذلك واعاد المعتمد مقر الخلافة الى بغداد، ولم يكن قد مر عليها اكثر من أربع وخمسين سنة ملك خلالها ثمانية من خلفاء بني العباس وهم :

١ ـ المعتصم (٢١٨ـ٢٢٧ هـ) = (٨٣٣ـ٨٤٢ م)
٢ ـ الواثق (٢٢٧ـ٢٣٢ هـ) = (٨٤٢ـ٨٤٧ م)
٣ ـ المتوكل (٢٣٢ـ٢٤٧ هـ) = (٨٤٧ـ٨٦١ م)
٤ ـ المنتصر (٢٤٧ـ٢٤٨ هـ) = (٨٦١ـ٨٦٢ م)
٥ ـ المستعين (٢٤٨ـ٢٥١ هـ) = (٨٦٢ـ٨٦٦ م)
٦ ـ المعتز (٢٥١ـ٢٥٥ هـ) = (٨٦٦ـ٨٦٩ م)
٧ ـ المهتدي (٢٥٥ـ٢٥٦ هـ) = (٨٦٩ـ٨٧٠ م)
٨ ـ المعتمد (٢٥٦ـ٢٧٩ هـ) = (٨٧٠ـ٣٩٢ م)

ويقول حمد الله المستوفي (٧٤٠هـ = ١٣٤٠م) ان مدينة سامراء انشأها في الاصل سابور الثاني ذو الاكتاف (٣٠٩ - ٣٧٩م)، ولما كان اقليمها طيباً عرفت بـ« سرّ من رأى »، ويقال ان الناس خففوا هذه التسمية فقالوا « سامراء »، وقد ذكرها البحتري شاعر المتوكل بهذه الصيغة في قصيدته المتعلقة باعدام بابك الخرمي :

« اخليت منه البذّ وهي قراره ونصبته علما بسامراء »

ويقول اليعقوبي ان اسم سامراء في الكتب المتقدمة « زوراء بني العباس ».

= حيث ان انتصاره للمعتزلة جعل مسلمي بغداد ان ينظروا اليه بغير العين التي كانوا يرمقونه بها سابقاً . وكانت وفاة المعتصم في « سر من راى » يوم ١٨ ربيع الاول سنة ٢٢٩ فخلفه بعده ابنه هارون الواثق .

وقصة انشاء مدينة سامراء بالسرعة التي اقيمت فيها ثم هجرانها على حين غرة من الامور التاريخية التي تستوقف النظر. فقد نشرت دائرة الآثار العراقية مقالة تحت عنوان «قصة سامراء» ننقل منها النبذة التالية قالت : « قصة مدينة سامراء من اغرب وامتع قصص المدن في التاريخ : قطعـة أرض قفراء ، على ضفة مرتفعة من نهر دجلة ، لا عمارة فيها ولا أنيس بهـا إلا دير للنصارى ... تتحول ـ في مثل لمح البصر ـ الى مدينة كبيرة ، لتكون عاصمة لدولة من اعظم الدول التي عرفها التاريخ ، في دور من ألمع أدوار سؤددها ... تنمو هـــذه المدينة وتزدهر بسرعة هائلة ، لم ير التاريخ مثلها في جميع القرون السالفة ، ولم يذكر ما يماثلها بعض المماثلة ، إلا في القرن الأخير ـ في بعض المدن التي نشأت تحت ظروف خاصة ـ في بعض الاقسام من العالم الجديد . غير ان هذا الازدهار العجيب لم يستمر مدة طويلة ، لأن المدينة تفقد (صفة العاصمة) التي كانت علة وجودها وعامل كيانها قبل أن يمضي نصف قرن على نشأتها ، فتأخذ في الاقفرار والاندراس بسرعة هائلة ، لا تضاهيها سرعة ، ، وبعد ان كان الناس يسمونها باسم « سرّ من رأي » أضحوا يسمونها ساء من رأى ، وبعد ان كان الشعراء يتسابقون في مدح قصورها أخذوا يسترسلون في رثاء اطلالها ، وفي الواقع ماتت سامراء ميتة فجائية بعد عمر قصير لم يبلغ نصف القرن ، وأمست رموساً وأطلالها هائلة تمتد اليوم أمام أنظار الزائر ، وتتوالى تحت اقدام المسافر الى أبعاد شاسعة لا يقل امتدادها عن الخمسة وثلاثين من الـكيلو مترات . وعندما يتجول المرء بين هذه الاطلال المترامية الاطراف ، ويتأمل في السرعة العظيمة التي امتاز بها تأسيس مدينة سامراء وتوسعها من جهة ، واقفرارها من جهة أخرى ، لا يتمالك نفسه من التساؤل عن العوامل التي سيطرت على مقدرات هذه المدينة العظيمة ، وصيرت قصة حياتها بهذا الشكل الغريب ».

اما الأسباب التي حملت المعتصم على نقل مقر العاصمة من بغداد الى سامراء

هو ان وجود الجنود الاتراك المأجورين في بغداد قد خلق مشاكل هناك « فكان أولئك الاتراك العجم اذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يميناً وشمالاً فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضاً ويضربون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً لا يعدون على من فعل ذلك فثقل ذلك على المعتصم وعزم على الخروج من بغداد فخرج ... حتى صار الى موضع سرّ من رأى وهي صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة فيها ولا أنيس فيها إلا دير للنصارى فوقف بالدير وكلم من فيه من الرهبان ، وقال ما اسم هذا الموضع فقال له بعض الرهبان : نجد في كتبنا المتقدمة أن هذا الموضع يسمى سرّ من رأى وانه كان مدينة سام بن نوح وانه سيعمر بعد الدهور على يد ملك جليل مظفر ... فقال أنا والله ابنيها وانزلها ... »[1] وقد عوّض هؤلاء عن أراضي الدير أربعة آلاف دينار . ويظهر ان المعتصم بنى في مكان هذا الدير القصر الذي عرف فيما بعد بـ « دار العامة » أو « دار الخليفة ».[2]

وبنى المعتصم في مقر عاصمته الجديدة قصوراً وبيوتاً ومساجد وأسواقاً ودواوين جلب معظم احجارها وزخارفها من خارج العراق ، وقد شيد فيها ثكنات لسكن ٢٥٠ الف جندي واصطبلات واسعة لاستيعاب ١٦٠ الف حصان[3] ، كما قطع القطائع الى القواد الذين بنوا لهم قصوراً فخمة ، وأنشأ بساتين غناء غرست فيها أشجار مختلفة مثمرة من عدة فواكه . وقد توسعت المدينة على يد أخلاف المعتصم وعلى الاخص منهم المتوكل الذي دام حكمه مدة

---

(١) البلدان لليعقوبي (طبعة النجف) ص ٢٣ـ ٢٤

(٢) جاء في تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثالث (طبعة النجف) ص ١٩٨ ما يلي : « وقف المعتصم في الموضع الذي فيه دار العامة وهناك دير للنصارى فاشترى من اهل الدير الأرض واختط فيه » .

(٣) سيد الامير علي في « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي » الترجمة العربية ص ٢٤٣

خمسة عشر عاماً ، وبذلك امتدت المدينة حتى بلغ طولها حوالي ٣٤ كيلو متراً كما اسلفنا .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو انه بعد أن هجرت سامراء على عهد الخليفة المعتمد واعيد مقر عاصمة الامبراطورية العباسية الى بغداد جرت محاولة لارجاع مقرها الى سامراء مرة أخرى ، وذلك في زمن المكتفي بالله (٢٨٩ـ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ـ٩٠٨) ، إلا انه بعد أن قصد المكتفي مدينة سامراء في سنة ٢٩٠ هـ وعزم على البناء بها والانتقال اليها صرفه القاسم بن عبيدالله عن رأيه هذا فعدل عنه ورجع الى بغداد . وقد نقل خبر ذلك الطبري الذي كان معاصراً لعهد المكتفي قال : « ولعشر بقين من جمادي الآخرة (سنة ٢٩٠) خرج المكتفي بعد العصر عامداً سامراء مريداً البناء بها للانتقال اليها فدخلها يوم الخميس لخمس بقين من جمادي الآخرة ثم انصرف الى مضارب قد ضربت له بالجوسق فدعا القاسم بن عبيدالله والقوّام بالبناء فقدروا له البناء وما يحتاج اليه من المال للنفقة عليه فكثروا عليه في ذلك وطوّلوا مدة الفراغ مما أراد بناءه وجعل القاسم يصرفه عن رأيه في ذلك ويعظم أمر النفقة في ذلك وقدر مبلغ المال فثناه عن عزمه ودعا بالغداء فتغدى ثم نام فلما هبّ من نومه ركب الى الشط وقعد في الطيار وأمر القاسم بن عبيد الله بالانحدار ورجع أكثر الناس من الطريق قبل أن يصلوا الى سامراء حين تلقاهم الناس راجعين . »(١)

ولمدينة سامراء منزلة جليلة لأنك تجد فيها ضريحي الامام علي الهادي وولده حسن العسكري (ع) في حضرة عظيمة وسط صحن كبير سوّره وطلى قبته بالذهب السلطان ناصر الدين شاه في عام ١٢٨٥ هـ كما هو مدوّن على أربعة اركان القبة ، وكان الامام علي الهادي (ع) يسكن سامراء في أيام المعتصم بالله فلما توفي سنة ٢٥٤هـ دفن في بيته ، ولما توفي الحسن العسكري (ع)سنة ٢٦٠هـ دفن

---

(١) تاريخ الطبري (٣ : ٢٢٢٣) .

الى جواره . وقد انشأ الحضرة في حدود عام ١٢٠٠ للهجرة اخوة ثلاثة من أهل خوي وسلماس ورومية وكان الانشاء والتعمير برعاية الحاج مرزة محمد السلماس المتوفي في سنة ١٢١٩ هـ . (١) والى جانب هذين الضريحين يشاهد سرداب غيبة صاحب الزمان الامام الثاني عشر المنتظر ، وهذا السرداب معروف باسم غيبة المهدي وفيه باب خشبي جميل من عهد الخليفة العباسي أبي العباس احمد الناصر لدين الله (٦٠٩هـ=١٢٠٦م) وقد مضى على صنعه اكثر من سبعة قرون.(٢)

ويحيط بسامراء سور ضخم مضلع الشكل يميل الى الاستدارة يبلغ طول محيطه كيلو مترين ولا يتجاوز قطره الاعظم ٦٨٠ متراً . وقد أقام هذا السور في حدود سنة ١٨٣٤ م زين العابدين بن السلماس وقد انفق على تعميره أحد ملوك الهند ، ولهذا السور أربعة أبواب متقابلة ولكل باب اسم يعرف به ، فالباب الشمالي يسمى « باب الناصرية » نسبة الى ناصر الدين شاه الذي زار سامراء ، والباب الثاني الذي من جهة القبلة يدعى « باب النواب » لأن الأراضي المجاورة له تعود الى النواب نوازش علي خان اللاهوري (من الهند) ، والباب الثالث وهو الغربي يسمى « باب الساقية » وسبب هذه التسمية أن مثريا ايرانيا كان قد أقام كرداً على نهر دجلة يدفع الماء الى ساقية تدخل في هذا الباب، وتصب قرب باب الصحن الشريف ، ويسمي الباب الرابع بـ « باب الملوية » لأنه يؤدي الى منارة الملوية . (٣)

٢ ـ موقع سامراء في عصور ما قبل التاريخ

اجريت اعمال السبر (التنقيب) الاركيولوجي في سامراء من قبل الدكتور هرزفلد في موسم ١٩٣٠ — ١٩٣١ ضمن نطاق المقبرة التي كانت قد ظهرت للعيان في

(١) الأستاذ السيد عبد الرزاق الحسني في كتاب « العراق ، قديماً وحديثاً » ص ٨٠ ـ ٩١
(٢) راجع نشرة دائرة الآثار « باب الغيبة في سامراء » الصادرة سنة ١٩٣٨
(٣) راجع البحث التالي الخاص بمنارة الملوية في هذا الفصل

بقعة شبة الحاوي[1] المطلة على نهر دجلة والواقعة في القرب من شريعة باب الناصرية شمالي سامراء الحالية على مسافة ميل واحد من بيت الخليفة جنوباً ، وذلك نتيجة تنقيب سابق كان الدكتور هرزفلد قد قام به في سنة ١٩١٢ـ١٩١٣ فثبت في نهاية تلك الاعمال ان كلا من القبور والفخار المصبوغ الذي وجد فيها يعود الى أزمان الدور الحجري المتأخر أو العصر الحجري الحديث (العصر النيوليثي) ، وربما كان يمثل نوعاً من ذلك الفخار الذي يعود الى الايرانيين الذين عاشوا في عصورما قبل التاريخ . وقد عرف العصر الذي تعود اليه مقبرة سامراء هذه بـ « عصر حلف » (٥٠٠٠ـ٤٥٠٠ سنة ق . م)،وهو العصر الذي يلي العصر الحجري الحديث والذي تمتاز آثاره بزخرفة الأواني المفخورة ورقي اشكالها وتعدد الوانها . وعلاوة على هذا النوع من الأواني الفخارية فقد ترك لنا أهل (حضارة حلف) دمى من الطين المشوي غريبة الصنع وكمية كبيرة من الحروز المنقوشة وأول نوع من الختوم المنبسطة . ويستدل من القطع المعدنية الصغيرة القليلة انهم كانوا في بدء معرفتهم المعدن . وقد جاءت تسمية عصر حلف من الموقع المسمى « تل خلف » (الاسم الشائع الآن « تل حلف » محرفاً) الواقع في سوريا عند أعالي نهر الخابور « خابور الفرات على بعد حوالي ١٤٠ ميلا من شمال غربي نينوى حيث اكتشف البارون فون اوبنهايم طائفة كبيرة من الأواني القديمة المزخرفة تحت انقاض قصر يرتقي تاريخه الى العصر الحثي . وتدل ظواهر الحال على ان هذه الأواني تعاصر فخار سامراء الآنف الذكر .

وقد عثرنا أثناء تدقيقاتنا لآثار سامراء على فخار يعود الى عصر ما قبل التاريخ أيضاً، وهو من نفس الفخار الذي في بقعة شبة الحاوي ، وذلك في التل المعروف بأسم « تل الصوان » الواقع على نهر دجلة جنوبي سامراء في جوار

---

(١) وردت في نشرة دائرة الآثار (تقرير عن التنقيبات في العراق خلال الفصول ١٩٢٩ـ١٩٣٢ ، ص ٤٤) « شبة الهوى »والصحيح « شبة الحاوي » ، أي الحد المرتفع للحاوي .

منارة القائم . [1] وبعد الاتصال بالبروفسور هرزفلد واعلامه بذلك كتب الينا مؤيداً ما توصلنا اليه من وجود هذا الفخار في المكان المذكور ، وأضاف الى تأييده هذا قائلاً بأن هذه الآثار هي من بقايا مقابر قديمة ترجع الى عصر ما قبل التاريخ وليس فيها مايدل على بقايا أبنية تعود الى ذلك العصر .

يتضح مما تقدم أن المنطقة التي انشئت فيها مدينة «سرّ من رأى» العباسية كانت مأهولة منذ أقدم الأزمنة وترجع حضارتها الى عصور سحيقة في التاريخ. لذلك فان ماجاء في نشرة مديرية الآثار القديمة العامة عن حفريات سامراء (الجزء الاول ص ٤) من ان « اطلال سامراء تعود الى دور معين محدود لم يسبقه دور بناء أقدم منه » لا يصح قبوله بعد العثور على الآثار (القبتاريخية) التي مر ذكرها .

٣ ـ سبب اختيار المعتصم موضع سامراء دون غيره

اما سبب اختيار المعتصم موضع سامراء دون غيره فيرجع الى عوامل عدة اهمها عاملان ، عامل الري وعامل المياه . واذا تتبعنا خطواته عندما خرج متحرياً عن موضع ملائم لعاصمته الجديدة نجد انه اختار عدة مواقع وقد انشأ البناء في بعضها ثم عاد فعدل عنه حتى انتهى الى موضع سامراء فاتخذه مقراً لعرش خلافته وعاصمة امبراطوريته المترامية الاطراف . والذي نراه ان قضية المياه كانت العامل الرئيسي بالنسبة الى هذا التردد ، ولا شك ان الخبراء الذين كانوا برفقة المعتصم هم الذين أشاروا عليه بان يتخذ موقع سامراء مقراً لعاصمته، لأن هذا الموقع يمتاز في الدرجة الأولى بميزاته الستراتيجية لوقوعه في مكان تحيط به المياه من كل أطرافه، فتشكل هذه المياه سوراً دفاعياً يحيط بالمدينة من كل اطرافها. فنهر دجلة يلازمها من جهة الغرب فيسير في حذائها من اقصى حدودها الشمالية الى اقصى حدودها الجنوبية، وذلك يؤمن الاتصال بالمدينة نهراً وشحن البضائع التجارية والاموال والمؤون اليها عن طريق النهر سواء أكان ذلك من شمال العراق أو من

(١) راجع رسم رقم ١٣ ولوحة رقم ٢

جنوبه . هذا وفي الوقت نفسه ان الاراضي التي تقع فيها مدينة سامراء تؤلف جرفاً يرتفع عن سوية مياه النهر عدة امتار مما يجعل المدينة في مأمن من خطر الغرق ، ولا يخفى أن خطر الغرق في موسم الفيضان كان مصدر قلق شديد في مدينة بغداد حيث كانت المدينة معرضة الى خطر الغرق من الجهتين الغربية والشرقية.[١] لذلك فان وقوع منطقة سامراء في مكان محاذ الى النهر وفي الوقت نفسه بعيد عن خطر الفيضان كان من العوامل القوية التي ادت الى اختيار هذا المكان لانشاء العاصمة فيه .

هذا من جهة الغرب ، أما من الجهات الاخرى فان مجرى النهروان (مجرى الرصاصي أو القاطول الكسروي) الذي يتفرع من نهر دجلة من شمال مدينة سامراء يجري بموازاة نهر دجلة متجهاً نحو نهر العظيم فيحيط بالمدينة من الجهتين الشمالية والشرقية ، كما ان مجرى نهر القائم الاسفل الذي يتفرع من نهر دجلة من جنوب مدينة سامراء ثم يلتقي بمجرى الرصاصي قبل وصوله الى العظيم بقليل يحيط بالمدينة من الجهة الجنوبية .[٢]

ولما كان لهذين المجريين ضفاف مرتفعة جداً وان المياه كانت تجري في حوضيها من دون انقطاع فقد اصبح الموقع الذي تقع فيه سامراء محاطاً بالمياه والاسوار من كل أطرافه . لذلك كان يكفي ان يقام سور يمتد على عرض المدينة بين مجرى الرصاصي ونهر دجلة اذا ما اقتضى فصل أي قسم من مدينة « سر من رأى » ، وهذا ما فعله المتوكل بعد أن أنشأ مدينة المتوكلية في اقصى الشمال اذ

---

(١) ان أول ذكر جاء لفيضان دجلة وخطره على مدينة بغداد كان في موسم فيضان سنة ٢١٩ هـ حينما كان المعتصم يريد القاطول ويريد البناء في سامراء فقد صرفه حينئذ عن قصده كثرة زيادة دجلة فامتنع عن الحركة وانصرف الى بغداد الى الشماسية حتى نزلت المياه الى مجاريها فعاد هو الى قضاء اعماله (راجع تاريخ الطبري ٣ـ ١١٨٤)

(٢) حول مجرى النهروان وتفرعاته ، راجع البحث عن تاريخ النهروان وتطوراته في الفصل الثاني .

أقام سوراً عند مدخل المدينة يمتد من ضفة نهر الرصاصي اليمنى الى ضفة نهر دجلة اليسرى ، وبذا تمكن من عزل المدينة تماماً وتحويطها بالاسوار وبمجاري المياه من كل أطرافها . [1] وأخيراً فان المجال لتوسع المدينة على سطح هـذه الجزيرة المحاطة بالمياه كان كبيراً جداً، حيث ان مساحتها تبلغ من السعة بحيث يمكن التوسع فيها الى مقياس واسع جداً دون أن يضيق بها المكان ، فان فيها من المجال مايساعد على ان تمتد الى مسافة حوالي الستين كيلو متراً في الطول بمحاذاة نهر دجلة ومجرى الرصاصي، كما أن فيها من المجال للتوسّع عرضاً الى مسافة تتراوح بين الكيلو مترين والخمسة عشر كيلو متراً، وقد اشغل فعلاً القسم الاكبر من هذه المساحة .

وكان للنهروان منذ القديم مميزات عسكرية مهمة الى فوائده الزراعية ، فقد كان في زمن الفرس حصناً منيعاً يحمي بلاد فارس من غزوات الرومان ، حتى أن الفرس احتموا به في هجومهم على الرومان المتراجعين سنة ٣٦٣ م وذلك حين انتصر الفرس على الرومان على أثر مقتل الامبراطور جوليان في تلك المعارك، وقد شهد النهروان وقائع كثيرة بالنظر لمناعته فاتخذه الخوارج مأوى يحتمون به حين نازعوا علياً بن أبي طالب (ع) على الخلافة غير انهم هزموا شر هزيمة في المعركة الحاسمة التي وقعت سنة ٣٨ هـ والمعروفة بـ «واقعة النهروان .»

وتتضح لنا أهمية هـذا الموقع من الناحية العسكرية الستراتيجية حين نلاحظ ان الفرس اتخذوا موقع سامراء مركزاً عسكرياً ، حيث أنشأوا فيه الحصن المعروف بأسم « حصن سومير » (Sumere) ، وهو الحصن الذي جاء ذكره بمناسبة تراجع الجيوش الرومانية بعد مقتل جوليان سنة ٣٦٣ م .

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بمدينة المتوكلية في هذا الفصل

٤ـ المرحلة الاولى لانشاء مدينة سامراء ـ عهد المعتصم والواثق

ويمكن القول بأن مدينة سامراء قد اجتازت مرحلتين في تاريخ إنشائها ، المرحلة الأولى تشتمل على الاعمال العمرانية التي قام بها الخليفتان المعتصم والواثق ، والمرحلة الثانية تشمل التوسعات التي أضافها المتوكل في زمن خلافته . أما الأعمال التي انجزت في زمن المعتصم فهي تأسيس المدينة وتنظيمها ، فقسم المعتصم المدينة الى أحياء وقطائع أسكن في كل حي صنفاً من جيشه وعني بعزل الجيش ودواوين الحكومة عن الأهلين. ويدل تخطيط المدينة على براعة فائقة في هندسة تخطيط المدن كما ان فيه كثيراً من الابتكار كما يتجلّى ذلك في تنظيم الشوارع والمساكن وتنسيق الأبنية العامة والاسواق والمتاجر والمساجد والارصفة وغيرها . وقد بلغ طول البناء الذي أقيم في زمن المعتصم زهاء أربعة فراسخ (١٩ كيلومتراً) ، فرسخان من شمال مكان مدينة سامراء الحالية وفرسخان (١٠ كيلو مترات) من جنوبه . وقد مدّت عدة شوارع عامة متوازية على طول هذه المسافة كما مدت دروب عدة عن يمين ويسار هذه الشوارع للاتصال بين شارع وآخر ، وأقيمت البنايات والدور والقطائع والاسواق والعمارات بين الشوارع العامة . وعزل المعتصم قطائع الاتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم ولا يجاورهم إلا الفراغنة ، واقطع اشناس واصحابه في آخر البناء من الشمال في الموضع المعروف بـ« الكرخ » أو « كرخ سامراء ».(١) وضم عدة

(١) لا تزال آثار هذه القطيعة وبقايا ابنيتها يمكن مشاهدتها على بعد حوالي عشرة كيلومترات من شمال مدينة سامراء الحالية ، حيث لا يزال سور ضخم من اللبن يعلو نحو خمسة امتار ويعرف بـ « سور اشناس » قائماً في ذلك المكان وهو يضم آكاما يستدل من تناسق مظهرها انها بقايا قصر كان قد انشيء ضمن السور . وقد ذكر ياقوت في معجمه ان الموضع « كان يقال له كرخ فيروز منسوب الى فيروز بن بلاش بن قباذ الملك وهو اقدم من سامراء فلما بنيت سامراء اتصل بها وهو الى الآن باق عامر وخربت سامراء كان الاتراك الشبلية ينزلونه في ايام المعتصم وبه قصر اشناس التركي مولى المعتصم وهو موضع مدينة قديمة على ارتفاع من الأرض ، وزعم بعضهم انه كرخ =

من قواد الاتراك والرجال ومنهم من الاختلاط بالناس وقد أقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسماه « الدور » ، كما اقطع الافشين الاسروشني في آخر البناء جنوباً وسمى الموضع « المطيرة » ، فاقطع أصحاب الاسروشنية وغيرهم من المضمومين اليه حول داره وأمره أن يبني فيما هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيما لا بد منه ومساجد وحمامات(١). وبعد ان قتل الافشين اقطع الخليفة هارون الواثق داره التي في المطيرة الى وصيف وانتقل وصيف عن داره القديمة اليها .

وكان يعرف مكان الدور الذي في الحد الشمالي من البناء بـ « دور العرباني» أو « دور عربايا » لتمييزه عن مكان آخر يقع في نفس المنطقة ومعروف باسم الدور أيضاً ، والأخير يقع على بعـد عشرين كيلو متراً تقريباً من دور العرباني شمالاً وفيه على مايزعم أهل سامراء قبر الامام محمد الدوري من أولاد موسى بن جعفر عليهما السلام ، وقد سماه ابن سرابيون دور الحارث كما سماه ياقوت دور تكريت لتمييزه عن دور العرباني . ومما قاله ياقوت عن دور تكريت انه « ينسب اليها محمد بن فروخان بن روزبه ابو الطيب الدوري حدث عن أبي خليفة وغيره أحاديث منكرة ، روى عن الجنيدي حكايات في التصوف . » وقد اطلق ياقوت على مكان دور تكريت أيضاً اسم « الدور الاعلى » وذكر انه معروف بالخربة وهو أسفل قرية هاطرى الواقعة جنوب تكريت ، غير أن ابن حوقل اعتبر أن هناك مكانين قريبين من بعضهما أولهما يسمى دور العرباني والثاني دور الخرب . وذكر البلاذري « ان أمير المؤمنين المعتصم بالله انزل اشناس مولاه

= باجدا ومنه الشيخ معروف بن الفيرزان الكرخي الزاهد » .

وبلي هذا السور سور يماثله يقع في الجبهة الشمالية الغربية منه يعرف بأسم «سور الشيخ ولي» وفي داخل هذا السور بقايا بعض البناء ، وتسمى البقعة التي يقوم فيها السور بأسم «الزنكور» ، وكلمة زنكور فارسية معناها «مقام النساء» ، فاذا جاز لنا ان نبني على هذا المعنى رأياً حول هذا المكان امكن القول انه كان يشتمل على الابنية المخصصة لعوائل القواد والجيش .

(١) كتاب البلدان لليعقوبي (طبعة النجف) ص ٢٦

فيمن ضم اليه من القواد كرخ فيروز ، وانزل بعض قواده الدور المعروفة بالعرباني » . وقد اشار المقدسي الى مكان آخر في سامراء باسم الدور أيضاً سماه « الدور الجامعين » من مدن سامراء ، ولعل هذا المكان هو « دور العرباني » الذي في كرخ سامراء . وقد أشار ياقوت الى مكان آخر باسم « دور بني اوقر » وهو من مدن دجيل يقع على بعد خمسة فراسخ من بغداد وكان الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بنى فيه جامعاً ومنارة . ويظهر من كتابات لي سترانج انه كان يظن بان دور العرباني ودور تكريت ودور الحارث كلها تشير الى مكان واحد وهو مدينة دور الشمالية التي زعم ان قبر الامام محمد الدوري فيها ، على حين ان دور العرباني تقع خلف قطيعة اشناس وقد اطلق عليها اسم الدور في عهد المتوكل أيضاً .

ويظهر ان المنطقة التي تقع فيها الدور (دور العرباني) كانت منذ القديم مأهولة حيث ذكر ياقوت بان هناك ديراً يعرف باسم دير الطواويس وجد في هذه المنطقة في زمن الفرس، وقد كان قبل ذلك منظرة لذي القرنين أو للاكاسرة، وفيما يلي نص ما كتبه ياقوت في هذا الصدد قال : « دير الطواويس بسامراء متصل بكرخ جدان يشرف عند حدود آخر الكرخ على بطن يعرف بالبنّي فيه مزدرع يتصل بالدور وبنيانها وهي الدور المعروفة بدور عربايا وهو قديم كان منظرة لذي القرنين ويقال لبعض الاكاسرة فاتخذه النصارى ديراً في أيام الفرس » .

أما المطيرة التي في الحد الجنوبي من البناء فلا يزال موضعها غير معين بصورة مضبوطة نظراً لوقوع دار الافشين بين الخرائب الكثيرة التي في القسم الجنوبي لسر من رأى . إلا ان اليعقوبي ذكر بأن دار الافشين التي بالمطيرة تقع على بعد فرسخين (حوالي عشرة كيلو مترات) من آخر حدود بناء سر من رأى في الجنوب . ثم أضاف الى ذلك قوله ان المتوكل انزل في عهد خلافته ابنه المعتز

خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له « بلـكوارا »، اما المطيرة فأنزل فيها ابنه ابراهيم المؤيد . ولما كان قصر بلـكوارا قد عيّن موضعه في المـكان المعروف بـ «المنقور» وهو القصر الذي في آخرحدود الأبنية من الجنوب(١)، فعلينا أن نتحرى عن مكان المطيرة في شمال القصر مباشرة . ومن المحتمل أن يكون مكان المطيرة في الموضع الحالي المعروف باسم « سور الجبيرية »بدليل أنه لا يوجد بناء أعمر منه في هذه المنطقة (راجع لوحة رقم ٢) . وقد أيد الشابشتي في كتاب «الديارات»وقوع المطيرة على مسافة فرسخين من جنوب سرّ من رأى حيث قال: « وبين القادسية وسرّ من رأى أربعة فراسخ ، والمطيرة بينهما ، وهذه النواحي كلها متنزّهات وكروم وبساتين . »

وقد ورد في المراصد ان « المطيرة قرية من نواحي سامراء كانت من متنزّهاتها بنيت في آخر خلافة المأمون بناها مطير بن قزازة الشيباني فنسبت اليه وهي مذكورة في اشعار الخلفاء » ،كما جاء في كتاب«آثار البلاد واخبار العباد» للقزويني ان « المطيرة من قرى سامراء اشبه ارض الله بالجنان من لطافة الهواء وعذوبة الماء وطيب التربة وكثرة الرياحين وهي من متنزهات بغداد يأتيها أهل الخلاعة ، وصفها بعض الشعراء فقال :

سقياً ورعياً للمطيرة موضعا ⠀⠀⠀⠀ أنوارها الخيرى والمنثور »

وجاء ذكر المطيرة وقصر الافشين الذي فيها بمناسبة ذكر حادثة أسر بابك ووصوله الى سرمن رأى مع الافشين سنة ٢٢٣ هـ .فذكر ابن الأثير ان الافشين انزل بابك عنده في قصره بالمطيرة وقد أمر المعتصم ان يشهر بابك فيركب على الفيل وقد اصطف الناس من باب العامة « دار الخليفة » الى المطيرة (٢) .

وقد ذكر ياقوت ان هناك ديراً يعرف باسم « دير عبدون » يقع الى جنوب

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بقصر بركوارا « المنقور » في هذا الفصل .
(٢) ابن الأثير ، الجزء السادس ، ص ١٩٣، ١٩٥

المطيرة فقال عنه انه « بسر من رأى الى جنب المطيرة وسمي بدير عبدون لأن عبدون أخا صاعد بن مخلد كان كثير الالمام به والمقام فيه فنسب اليه وكان عبدون نصرانياً واسلم أخوه صاعد على يد الموفق واستوزره وفي هذا الدير يقول ابن المعتز الشاعر :

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ... ودير عبدون هطال من المطر »

أ ـ شارعا الخليج والسريجة

وأول الشوارع العامة التي مدت على طول المدينة غرباً الشارع الذي على دجلة وكان يعرف بـ « شارع الخليج » ، « وهناك الفرض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد من البصرة والابلة والأهواز وما اتصل بذلك ومن الموصل وبعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك . وفي هذا الشارع قطائع المغاربة كلهم أو اكثرهم والموضع المعروف بالازلاخ الذي عمر بالرجالة المغاربة في أول ما اختطت سر من رأى »(١). والشارع الثاني الذي يلي شارع الخليج شرقاً هو الشارع الرئيسي للمدينة فكان يعرف في أول الامر بأسم شارع السريجة ثم سمي « الشارع الاعظم » . وكان يمتد هذا الشارع في عهد المعتضم مسافة ١٩ كيلومتراً تقريباً من آخر البناء في المطيرة جنوباً الى آخر البناء في قطيعة اشناس ودور عربايا شمالاً ، وعلى طرف هذا الشارع انشئت العمارات من قطائع وأسواق ودواوين وقصور ومساجد ، كما انه فتحت عدة دروب من جهتيه بعضها ينفذ الى شارع الخليج أو الى دجلة من جهة الغرب والبعض الآخر ينفذ الى الشارع الموازي اليه من جهة الشرق وهو الشارع المسمى « شارع أبي أحمد » . وهكذا كانت العمارات والقطائع تمتد في الطول بين شارع السريجة الاعظم وبين شارع الخليج من جهة الغرب وبين شارع السريجة وشارع أبي أحمد من جهة الشرق .

(١) كتاب البلدان لليعقوبي (طبعة النجف) ص ٣٠

١ — الواديان – وادي ابراهيم بن رياح ووادي اسحق بن ابراهيم

وكان يخترق شوارع المدينة التي كانت تمتد على طول ضفة دجلة اليسرى واديان، احدهما في الشمال ويسمى «وادي ابراهيم بن الرياح» والآخر في الجنوب ويسمى «وادي اسحق بن ابراهيم». وكان هذان الواديان يبدآن في الاراضي المتموجة التي في شرق المدينة فيسيران غرباً حتى ينتهيا في دجلة، وبذلك كانا يأخذان بالمياه التي تتجمع في الأراضي المذكورة فيصبانها في دجلة. اما موقعا هذين الواديين بالنسبة الى مدينة سامراء الحالية، فقد دلتنا تتبعاتنا على ان الوادي الشمالي (وادي ابراهيم بن الرياح) يقع على بعد زهاء ستمائة متر من سور اشناس جنوباً، فيبدأ من شمال تل العليق بالقرب من القاطول الأعلى ثم يسير باتجاه الشمال الغربي حتى يصب في دجلة جنوب النهر القديم المعروف بـ «نهر صير» في نقطة تقع على مسافة حوالي تسعة كيلو مترات من مدينة سامراء الحالية شمالاً. واما الوادي الجنوبي (وادي اسحق بن ابراهيم) فيبدأ في الأراضي المتموجة التي في شرقي سامراء الحالية ثم يسير غرباً حتى ينتهي في دجلة في نقطة تقع على مسافة ١٫٥ كيلو متراً من مدينه سامراء الحالية جنوباً.

ولا يزال هذان الواديان يكونان مجمعاً لمياه السيول في المنطقة التي تمتد بين سور اشناس شمالاً والمطيرة جنوباً، ويعرف الوادي الجنوبي في الوقت الحاضر باسم «وادي الموح» في حين ان الوادي الشمالي لايعرف باسم خاص به.

ويلاحظ ان هرزفلد رسم هذين الواديين في خارطته التقريبية التي رسمها عن سامراء استناداً الى وصف اليعقوبي للمدينة في غير المكانين المذكورين، فرسم وادي ابراهيم بن رياح في شمال سور اشناس في حين انه رسم وادي اسحق ابن ابراهيم في شمال سامراء الحالية، وهذا بعيد عن الواقع حيث لا ينطبق لا على وصف اليعقوبي ولا على الوضع الطبيعي الحالي الذي يرجح انه احتفظ بشكله الأصلي الى حد بعيد (راجع لوحة رقم ٣ ولوحة رقم ٧).

٢ — الأبنية والقطائع على شارع السريجة

وقد وصف اليعقوبي في « كتاب البلدان» شارع السريجة كما وصف الابنية والقطائع التي انشئت عليه ، فقال ان شارع السريجة كان يمتد من المطيرة جنوباً الى وادي اسحاق بن ابراهيم شمالاً ، وبعد ان يعبر الوادي يستمر في سيره نحو الشمال وينتهي بالقرب من الوادي الشمالي (وادي رياح بن ابراهيم). أما تسمية «وادي اسحاق بن ابراهيم» فسببها ان اسحاق بن ابراهيم انتقل في عهد المتوكل الى شارع السريجة في مكان هذا الوادي «فبنى على رأسه واتسع في البناء » فسمي الوادي باسمه . وكانت قطيعة اسحاق بن يحيي بن معاذ على هذا الشارع مما يلي بناء اسحاق بن ابراهيم شمالاً ، ثم تتصل قطائع الناس يمنة ويسرة في هـــذا الشارع الأعظم حتى تمر الى ديوان الخراج الاعظم الذي يمتد شرقاً الى منتصف «شارع أبي احمد » الذي في جهة الشرق .

وكان في شارع السريجة (الشارع الاعظم) « قطائع قوادخراسان ، منها قطيعة هاشم بن باينجور ، وقطيعة عجيف بن عنبسة ، وقطيعة الحسن بن علي المأموني ، وقطيعة هارون بن نعيم ، وقطيعة حزام بن غالب ، وظهر قطيعة حزام الاصطبلات لدواب الخليفة الخاصية والعامية يتولاها حزام ويعقوب أخوه ثم مواضع الرطابين وسوق الرقيق في مربعة فيها طرق متشعبة فيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق ثم مجلس الشرطة والحبس الكبير ومنازل الناس والاسواق في هذا الشارع يمنة ويسرى مثل سائر البياعات والصناعات ويتصل ذلك الى « خشبة بابك»[1]

---

(١) ذكر اليعقوبي في مكان آخر ان « خشبة بابك » هذه كانت تقع في الجبل (جبل جعفر الخياط) فوق قطيعة الحسن ابن سهل التي كانت في آخر الاسواق غرباً وسط سر من رأى ، فقال ما نصه : «واستقطع المعتصم الحسن بن سهل بين آخر الاسواق وكان آخرها الجبل الذي صارت فيـــه خشبة بابك ، وبين المطيرة موضع قطيعة أفشين ، وليس في ذلك الموضع يومئذ شيء من العمارات ثم احدقت العمارة به حتى صارت

ثم السوق العظمى لا تختلط بها المنازل ، ثم الجامع القديم (١) الذي لم يزل يجمع فيه الى ايام المتوكل فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعاً واسعاً في طرق الحير، المسجد الجامع والاسواق من أحد الجانبين ومن الجانب الآخر القطايع والمنازل واسواق اصحاب البياعات الدنية مثل أصحاب الفقاع والهرائس والشراب وقطيعة مبارك المغربي وسويقة مبارك وجبل جعفر الخياط وفيه كانت قطيعة جعفر ثم قطيعة أبي الوزير (٢) ثم قطيعة العباس بن علي بن مهدي ثم قطيعة عبد الوهاب بن علي بن المهدي ، ويمتد الشارع وفيه قطايع عامة الى دار هارون بن المعتصم وهو الواثق عند دار العامة وهي الدار التي نزلها يحيي بن اكثم في أيام المتوكل لما ولاه قضاء القضاة ثم باب العامة ودار الخليفة وهي دار العامة التي يجلس فيها يوم الاثنين ثم الخزائن خزائن الخاصة وخزائن العامة ثم قطيعة مسرور سمانة الخادم ثم قطيعة قرقاس الخادم وهو خراساني ثم قطيعة ثابت الخادم ثم قطيعة ابي الجعفاء وسائر الخدم الكبار »

= قطيعة الحسن بن سهل وسط سر من رأى » .

اما « خشبة بابك » فهي المكان الذي صلبت فيه جثة بابك بعد ان وجه رأسه الى خراسان . ويظهر ان مكان الخشبة كان يعرف بـ « العقبة » او « كنيسة بابك » ، فذكر الطبري ان « بدن بابك صلب بعد ان وجه رأسه الى خراسان بسامراء عند العقبة فوضع خشبته مشهور » (٣ : ١٢٣١) ، وقال المسعودي في « مروج الذهب » ان جثة بابك صلبت على خشبة طويلة في اقاصي سامراء وموضعه مشهور الى هذه الغاية يعرف بـ « كنيسة بابك » .

(١) يحتمل ان يكون هذا الجامع نفس المسجد الذي ذكره الطبري في حوادث سنة ٢٥٦ هـ وسماه « مسجد لجين » فقال ان الموالي والغلمان تجمعوا فعسكروا بسامراء ، في طرف وادي اسحاق بن ابراهيم عند « مسجد لجين » ، فاذا صح ذلك يجوز ان نعتبر مكان الجامع القديم بالقرب من المكان الذي يعبر فيه « الشارع الاعظم » وادي اسحق بن ابراهيم (تاريخ الطبري ٣ : ١٨٠٧) .

(٢) يحتمل ان القصر المعروف بالوزيري والذي ذكر اليعقوبي بان المعتصم اجاز الى ابي الوزير بناءه كان يقع في قطيعة ابي الوزير المذكورة .

ب - شوارع أبي احمد والحير الاول وبرغامش التركي

وكان على الشارع الثالث وهو شارع أبي احمد بن الرشيد الذي تقدم ذكره قطائع قواد خراسان والعرب وأهل قم واصبهان وقزوين وآذربيجان . فكان في «أول هذا الشارع من المشرق دار بختيشوع المتطبب التي بناها في أيام المتوكل ثم قطائع قواد خراسان واسبابهم من العرب ومن أهل قم واصبهان وقزوين والجبل وآذربيجان يمنة في الجنوب مما يلي القبلة فهو نافذ الى السريجة الاعظم وما كان مما يلي الشمال ظهر القبلة فهو نافذ الى شارع أبي احمد ، ديوان الخراج الاعظم وقطيعة عمر[1] وقطيعة الكتاب وسائر الناس وقطيعة أبي احمد بن الرشيد في وسط الشارع، وفي آخره مما يلي الوادي الغربي الذي يقال له وادي ابراهيم بن رياح قطيعة ابن أبي دواد وقطيعة الفضل بن مروان وقطيعة محمد بن عبد الملك الزيات وقطيعة ابراهيم بن رياح في الشارع الاعظم ، ثم تتصل هذه الاقطاعات في هذا الشارع وفي الدروب الى يمنته ويسرته الى قطيعة بغا الصغير ثم قطيعة بغا الكبير ثم قطيعة سيما الدمشقي ثم قطيعة برغامش ثم قطيعة وصيف القديمة ثم قطيعة ايتاخ ويتصل ذلك الى باب البستان وقصور الخليفة » .

وكان عدا الشوارع الثلاثة التي مر ذكرها ، وهي شوارع الخليج والسريجة وأبي احمد ، شارعان آخران يمتدان بموازاة شارع أبي احمد من جهة الشرق ، اولهما ، أي الشارع الرابع ، يسمى « شارع الحير الاول » وكان يمتد من الجنوب الى الوادي المتصل بوادي اسحاق بن ابراهيم ومن ثم الى وادي ابراهيم ابن رياح، وفيه قطائع الجند والشاكرية واخلاط الناس وقد صارت فيه دار احمد ابن الخصيب في أيام المتوكل. اما الشارع الذي يلي شرقاً، أي الشارع الخامس، فيسمى « شارع برغامش التركي »، وكان يبدأ من الجنوب في المطيرة عند قطائع الأفشين

---

(١) يحتمل ان القصر المعروف بالعمري والذي ذكر اليعقوبي بان المعتصم اجاز الى عمر بن فرج بناءه كان يقع في قطيعة عمر المذكورة .

التي صارت لوصيف وأصحاب وصيف ثم يمتد بموازاة « شارع برغامش التركي » حتى ينتهي بالقرب من الوادي الذي يتصل بوادي ابراهيم بن رياح شمالاً[٢] . وكانت في هذا الشارع « قطائع الاتراك والفراغنة ، فدروب الاتراك منفردة ودروب الفراغنة منفردة والاتراك في الدروب التي في القبلة والفراغنة بازائهم بالدروب التي في ظهر القبلة كل درب بازاء درب لا يخالطهم أحد من الناس وآخر منازل الاتراك وقطائعهم قطائع الخزر مما يلي المشرق »(راجع لوحة رقم ٧) .

ج ـ دار الخليفة أو دار العامة

ومن أهم العمارات التي كانت على شارع السريجة والتي لا تزال آثارها شاخصة دار الخليفة أو دار العامة التي كان يجلس الخليفة فيها أيام الاثنين والخميس . وتقع هذه الدار في شمال مدينة سامراء الحالية بقليل ، فتمتد في الأراضي المرتفعة على طول ضفة نهر دجلة اليسرى الى مسافة سبعمائة متر تقريباً. اما المسافة التي بين واجهة الدار ومنتهى بناياتها الخلفية في جهة الشرق فلا تقل عن ثمانمائة متر .

وامام الدار في جهة نهر دجلة سهل واسع يمتد غرباً مسافة حوالي ستمائة متر حتى يتصل بحافة النهر . والمعتقد ان السهل المذكور كان مقسماً الى بساتين وحدائق منسقة تمتد بين واجهة الدار ونهر دجلة .

وتقع بناية الدار على ارتفاع ١٧ متراً تقريباً من مستوى السهل ويلاحظ المتفرج هناك معالم الدرج العريض الذي كان يصل أرضية الدار بالسهل المذكور.

وبناء على ما تقدم يمكن تقدير مساحة بنايات الدار ومشتملاتها بما لا يقل عن نصف مليون متر مربع (نحو مائتي مشارة)، وذلك عدا مساحة الساحة الامامية التي تمتد في السهل الى شاطىء دجلة وهي حوالي اربعمائة ألف متر مربع (زهاء ١٦٠ مشارة) . ويستفاد مما كتبه اليعقوبي ان الدار المذكورة بنيت على ارض الدير الذي اشتراه

المعتصم عندما اعتزم البناء في سامراء[١]

وقد لاحظ اطلال هذه الدار المهندس الفرنسي فيوله (Viollet) سنة ١٩٠٩ فرسم صورة خيالية للدار حسبما تصوّر حالتها الاصلية ، ثم اشتغل هرزفلد الالماني الجنسية قبل الحرب العالمية الاولى في اظهار بقايا الدار فقام بتنقيبات وحفريات منتظمة كشف خلالها معظم اقسامها ، واكتشف قاعة العرش وغرف التشريفات والحمّام ودوائر الحرم ... كما عثر على آثار كبيرة وصور بديعة ومواد خزفية ثمينة. وقد وضع هرزفلد تخطيطاً للدار حسب ما تصوّره على ضوء نتائج حفرياته .

وأهم ما يستلفت النظر في بقايا هذه الدار الأواوين القائمة في المدخل المطل على السهل الغربي الذي يتصل بشاطيء دجلة . اما بقية الاقسام فقد اصبحت آكاماً حيث ان ما اكتشفه هرزفلد من مشتملات الدار اقتلع آجره من قبل الأهلين لاستعماله في عماراتهم المختلفة ، ولذلك لم يبق من الغرف والقاعات التي اكتشفها هرزفلد غير الانقاض الكلسية . وكانت هذه الأواوين بمثابة مدخل الدار وكانت تسمى «باب العامة» .

وتتألف باب العامة هذه من ثلاثة أواوين رأسية العقد أكبرها الايوان الوسطى وهو مستطيل الشكل طوله ١٧٫٥ وعرضه ٨ امتار جداراه الجانبيان يحملان عقادة رأسية ترتفع قمتها عن الأرض ١٢ متراً . واجهته الأمامية التي تطل على السهل مفتوحة بكاملها وأما ضلعه الخلفية فمسدود بجدار شاقولي فيه باب كبير يبلغ عرضه ٣٫٨ أمتار وارتفاعه سبعة أمتار . وقد دلّت التحريات على ان هذا الباب كان يفضي في الأصل الى سلسلة قاعات كبيرة توصل الى غرف الخليفة وقاعة العرش . على ان جدران هذه الغرف والقاعات قد اندرست تماماً . وأما الأيوانان الجانبيان فهما أقل عرضاً وطولاً من الايوان الوسطى ، فان عرض

---

(١) راجع البحث الذي تقدم الخاص بشراء أرض الدير المذكور في صفحة ٥٠

الواجهة في كل منها عبارة عن أربعة امتار ونصف ، وأما الطول فلا يتجاوز أربعة أمتار . وفي الجدار الخلفي باب مرتفع تعلوه نافذة ويفضي هذا الباب الى قاعة خلفية كبيرة رأسية العقد مثل عقد الايوان الوسطى . وفي جانب الايوان الشمالي باب آخر يفضي الى غرفة مربعـــة متصلة بغرف اخرى ظهرت جدرانها الباقية عند رفع الانقاض سنة ١٩٣٧ ، كما يوجد بجانب الايوان الجنوبي سلسلة غرف ظهرت جدرانها كذلك عند رفع الانقاض في السنة المذكورة (راجع تصوير رقم ١ ـ دار الخليفة) .

وكانت الاواوين المذكورة مزدانة بزخارف جصية شاهد قسماً منها (فيوله) في محلها ، وعثر هرزفلد على قسم منها بين الانقاض خلال تنقيباته ، كما عثرت مديرية الآثار القديمة على البعض منها عندما رفعت الانقاض[1] .

وقد شهد باب العامة هذا أحداثاً تاريخيـــة خطيرة خلال النصف قرن من حكم الخلفاء العباسيين في سامراء ، وكان مظهراً من مظاهر الحكم والسلطان . فمن جملة الحوادث التي وقعت عنده صلب الافشين أمامه في سنة ٢٢٦ هـ حيث بقي معلقاً هناك ليراه الناس ثم طرح مع خشبته فاحرق [2] ، كذلك نصب رأس أبي الحسين يحيي بن عمر أمامه بعد ان لقي حتفه في سنة ٢٥٠ هـ [3]. وامام الباب نفسه كان ضرب كاتب لنجور بالسيوط فمات[4] .

ويوجد في الجبهة الشرقية الخلفية من القصر في اتجاه محور الايوان الكبير سرداب يسميه الناس « هاوية السباع » ، ويتألف هذا السرداب من حفرة مربعة منقورة في الصخر وتتوسطها بركة كبيرة مستديرة وقد نقرت في كل

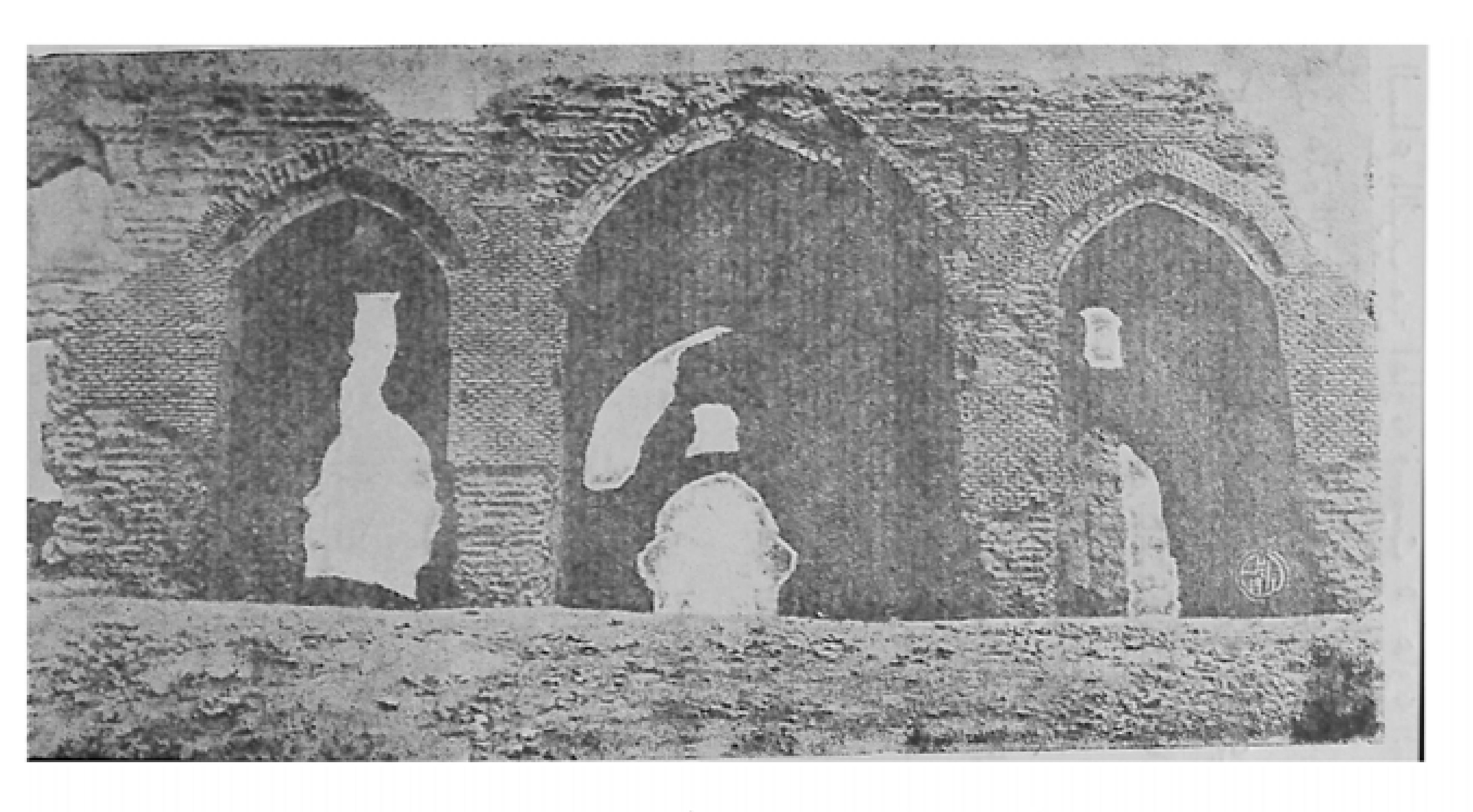
---

(١) نشرة دائرة الآثار العراقية عن سامراء ، ص ٥٠ ـ ٥٥

(٢) الطبري (٣ : ١٣١٧)

(٣) الطبري (٣ : ١٥٢٢)

(٤) الطبري (٣ : ١٨٧٤)



تصوير رقم ١ ـ دار الخليفة (جبهة الشط)

ضلع من اضلاع الحفرة الاربع ثلاثة أواوين نقشت على جدرانها نقوش جصية جميلة . ومن المرجّح ان سبب تسمية هذه البركة بـ « هاوية السباع » هو انه كان عدد من السباع بالقرب من الهاوية فسميت « هاوية السباع » ، هذا اذا صح اعتبار كون هذه التسمية ترجع الى العهد الذي انشئت فيه الهاوية . ومما يدل على انه كان بعض السباع في دار العامة ما ذكره الطبري في حوادث سنة ٢٥٥ من ان المهتدي أمر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان . فكتب في هذا الصدد قائلاً ما نصه : « وفي سنة ٢٥٥ أمر المهتدي باخراج القيان والمغنين والمغنيات من سامراء ونفيهم منها الى بغداد ... وأمر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان وطرد الكلاب وابطال الملاهي الخ ... »

ويشاهد في القسم الشمالي من القصر في الجهة الشمالية الغربية للسرداب والجهة الشمالية الشرقية للاواوين حفرة اكبر واعمق من الحفرة الاولى محاطة ببناية مربعة الشكل كثيرة التقسيمات ، لا يقل طول ضلعها عن ١٨٠ متراً ، وفي وسط هذه الحفرة بركة يبلغ قطرها نحو ٨٠ متراً. وعلى الارجح ان الحفرة الاولى كانت مسقفة والثانية مكشوفة، وذلك لتستعمل الاولى في النهار والثانية في الليل وهناك ما يدل على ان هاتين البركتين انشئتا على عهد المتوكل نظراً لما لدينا من دلائل على ان القناة التي تموّن البركتين المذكورتين بالماء ، وهي القناة التي كانت تبدأ من نهر دجلة من فوق الدور وتنتهي في سامراء ، انشئت في عهد المتوكل[1] (راجع الرسمين ٣ و ١٣ ولوحة رقم ٢) .

ويستدل من المدونات التاريخية على ان الخزائن الخاصة والعامة كانت في دار العامة ، فذكر اليعقوبي أن الخزائن المذكورة كانت في شارع السريجة مما يلي دار العامة شمالاً . وقد أيد الطبري وجود الخزائن في دار العامة وقد سماها

---

(١) حول البركتين المذكورتين راجع البحث التالي الخاص بهما في الفصل الخامس .

« بيت المال » فيما ذكره عن سطو اللصوص عليها ، فقال في ذكر حوادث سنة ٢٣١ هـ مانصه : « وفي هذه السنة نقب قوم من اللصوص بيت المال الذي في دار العامة في جوف القصر وأخذوا اثنين وأربعين الفاً من الدراهم وشيئاً من الدنانير يسير فاخذوا بعد وتتبع أخذهم يزيد الحلواني صاحب الشرطة خليفة ايتاخ »[1] . وقد عين هرزفلد مكان الخزانة العامة في الزاوية الشمالية الشرقية من الحفرة الكبيرة حيث تقع هنالك آثار بناية كثيرة التقسيمات .

د ـ حلبة السباق وساحة اللعب

وفي منتهى قصر الخليفة من جهتـــه الشرقية خلف السرداب حلبة سباق تتكوّن من حلقة مستطيلة تمتد طولاً الى جهة الشرق ، فيبدأ داخلها ضيقاً من عند القصر ثم يتوسع تدريجيا على طول الحلقة حتى يبلغ اقصى سعته في الرأس الثاني شرقاً . وكانت هذه الحلبة تمتدالى مسافة خمسة كيلومترات ونصف فتكوّن منحنياً منتظماً مسدوداً يبلغ طول محيطه حوالي احد عشر كيلو مترا ونصف كيلو متر . وتوجد في الجبهة الشرقية من قصر الخليفة خلف هاوية السباع ساحة مسوّرة مستطيلة الشكل فتمتد من الشمال الى الجنوب بين هاوية السباع وبين الرأس الضيق لحلقة الحلبة بطول ٥٣٠ متراً ، اما عرضها فيبلغ حوالي ٦٥ متراً . وتوجد آثار بناية مرتفعة في منتصف القسم الخلفي من سور هذه الساحة ، أي في الضلع الشرقية التي تمتد في الطول وتتصل برأس الحلبة ، ويظهر ان هذه البناية كانت معدة للتفرج منها على الالعاب والمسابقات ، لأنها مطلّة على الساحة من جهة وعلى حلبة السباق التي تمتد خلف القصر من جهة اخرى (راجع رسم رقم ٣) .

هـ ـ القصر الهاروني والجسر الذي على دجلة

ويقع غربي دار الخليفة الى الجنوب قليلاً آثار قصر ضخم آخر على شاطيء

---

(١) تاريخ الطبري (٣ : ١٣٥٠)

دجلة في الموقع المعروف بالكوير يظن انها اطلال القصر الذي كان يعرف بـ « الهاروني » ، وهو القصر الذي قيل ان هارون الواثق بن المعتصم بناه في زمن خلافته « فجعل فيه مجالس في دكة شرقية ودكة غربية » وانتقل اليه . ولا تزال بقايا ها تين الدكتين الضخمتين ظاهرة يمكن مشاهدتهـا على شاطىء دجلة الشرقي الحالي في مكان الكوير المذكور . وقد اشتهر آجر هذا القصر في الكبر والضخامة حتى صار يضرب به المثل في سامراء فيقال آجر الكوير .

وقد أشار ياقوت الى قصر الهاروني هذا في معجمه قال : « ان قصر الهاروني قصر قرب سامراء ينسب الى هارون الواثق بالله وهو على دجلة بينه وبين سامراء ميل وبازائه بالجانب الغربي المعشوق » . وقريب من هذا ماذكره ابن عبد الحق في المراصد قال : « الهاروني قصر قرب سامراء ينسب الى هارون الواثق بالله على شاطىء دجلة في شرقيها وبازائه في الجانب الغربي المعشوق[١] .

وبمناسبة ذكر حوادث سنة ٢٢٩ هـ كتب الطبري في صفة الهاروني مانصه: « ذكر عن ابن عبد العزيز الانصاري انه قال كنا ليلة في هذه السنة عنـد الواثق فقال لست اشتهي الليلة النبيذ ولكن هلموا نتحدث الليلة فجلس في رواقه الاوسط في الهاروني في البناء الأول الذي كان ابراهيم بن رياح بناه وقد كان في أحد شقي ذلك الرواق قبة مرتفعة في السماء بيضاء كانها بيضة الاقدر ذراع فيما ترى العين حولها في وسطها ساج منقوش مغشي بالازورد والذهب وكانت تسمى قبة المنطقة وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة . » [٢] واضاف الطبري قوله بان الواثق لما توفي سنة ٢٣٢ هـ دفن في قصر الهاروني هذا [٣] .

(١) راجع البحث التالي الخاص بقصر المعشوق في هذا الفصل .

(٢) الطبري ٣ : ١٣٣١ ، ٣ : ١٣٦٣

(٣) الظاهر انه كان من المألوف في ذلك الزمن ان يدفن الخلفاء في القصور التي كانوا يسكنونها ، ومما يؤيد ذلك ان المعتصم دفن في قصر الجوسق الذي كان يسكنه ، والمتوكل دفن في القصر الجعفري الذي كان يقطنه وقد قتل فيه ، كذلك دفن المنتصر والمعتز في ناحية قصر الصوامع .

وقد ذكر اليعقوبي ان هارون الواثق بنى هذا القصر على شط دجلة فسماه باسمه، أي الهاروني ، وجعل فيه مجالس في دكة شرقيه ودكة غربية وانتقل اليه ، ثم لما ارتقى المتوكل عرش الخلافة نزله وآثره على جميع قصور المعتصم (١) .

وكان مكان الجسر الذي أقامه المعتصم على مجرى نهر دجلة أمام قصر الهاروني تماماً، ولا تزال بقايا هذا الجسر يمكن مشاهدتها على الجانب الغربي من مجرى دجلة الحالي، وقد نصبت مضخة على سقف احد الطوق الضخمة المتبقية من آثار الجسر ، والمضخة عائدة الى السيد حسين العابد وهو صاحب الاراضي الزراعية المجاورة (راجع لوحة رقم ٢).

وقد ورد ذكر الجسر المذكور في كتابات المؤرخين في عدة مناسبات ، وممن أوردوا ذكره المسعودي في كتابه « تاريخ مروج الذهب » فذكر ان المعتصم لما صمم على مقاتلة ملك الروم «عسكر غربي دجلة يوم الاثنين في ٢ جمادي الأول سنة ثلاث وعشرين ومائتين ونصبت الاعلام على الجسر ونودي في الامصار بالنفير الخ ... » وقد أورد ابن المعتز ذكر الجسر في ديوان شعره ، قال :

سقى الاله سر من رأى القطرا والكرخ والخمس القرى(٢) والجسرا

وأشار الطبري الى الجسر أيضاً فقال في ذكر حوادث سنة ٢٥٠ هـ ان المغاربة تحركت يوم ٣ جمادى الأول من هذه السنة فاجتمعوا قرب الجسر بسامراء ثم تفرقوا في اليوم التالي (٣) .

وقد أشارت مس بيل الى بقايا هذا الجسر في كتابها «اموارث الى اموارث» ، وقالت انها عثرت عليها بطريق الصدفة أثناء عبورها نهر دجلة في القارب متجهة نحو قصر العاشق في الجانب الغربي من دجلة ، وقالت انها لاحظت هناك

(١) انظر كتاب « البلدان » وكتاب «تاريخ اليعقوبي »(الجزء الثالث) .
(٢) ان الخمس القرى المذكورة كانت من جملة العمران على نهر الاسحاقي في الضفة الغربية من دجلة (راجع البحث الذي يلي عن الاسحاقي في هذا الفصل) . اما الكرخ المشار اليه فهو « كرخ اشناس»الذي تقدم البحث عنه في صفحة (٥٧) .
(٣) انظر تاريخ الطبري (٣ : ١٥١٥)

اناساً يقلعون احجار هذه البقايا ، وقد نقلت في هذا الصدد ما سمعته من الاهلين من ان هنالك بقايا اخرى من نفس البناء تقع في وسط النهر وهي تظهر في موسم الصيهود أثناء هبوط مناسيب المياه في النهر، وهذا ما يؤكده لنا اليوم الاهلون القاطنون على حافة النهر في هذه المنطقة . وقد استخلصت مس بيل من كلام اليعقوبي القائل ان المعتصم لما فرغ من بناء مدينة سامراء التي في الجانب الشرقي من دجلة عقد جسراً الى الجانب الغربي من دجلة ان الجسر كان من الجسور العائمة . وقد بنت على ذلك رأياً هو أبعد مايكون عن الواقع وهو ان الدعامات التي شاهدتها على الضفة الغربية من نهر دجلة قد تكون رقبة الجسر على ضفة النهر فتجري منها المياه في موسم الفيضان فقط على نمط بناء رقبتي جسر الموصل العائم القديم . اما قول اليعقوبي بأن المعتصم عقد جسراً على نهر دجلة فمعناه انه بنى جسراً على شكل الجسور ذات العقود أو الطيقان المألوفة(Arch Bridges).

و ـ بناء الجوسق

وكان القصر المعروف بـ « الجوسق » يعد من أهم القصور التي انشئت على عهد المعتصم حيث أعدّ لسكنى الخليفة نفسه . اما موقعه فيستدل من وصف المؤرخين انه كان يقع على ضفة نهر دجلة الشرقية جنوبي «دارالعامة» مطلاً على الحير(١) ، مما يدل على ان ارض القصر ومشتملاته كانت تشغل كل المساحة التي بين شاطىء دجلة والحير . وفيما يلي وصف اليعقوبي للجوسق قال ما نصه : « فوقف (المعتصم) في الموضع الذي فيه دار العامة وهناك دير للنصارى فاشترى من أهل الدير الأرض واختط فيه وصار الى موضع القصر المعروف بـ « الجوسق » على شط دجلة فبنى هنالك عدة قصور للقواد والكتاب

---

(١) ذكر العلامة العميد طه الهاشمي في كتابه « مفصل جغرافية العراق » ص ٥٢٢ ــ ٥٢٣ ان « الجوسق » يقع في ضفة نهر دجلة الغربية ، على اننا لم نعثر على اي مصدر يؤيد ذلك .

وسماها باسمائهم»(1) . وتؤيد الروايات التاريخية بان المعتصم سكن في هذه القصر طيلة مدة حكمه ولما توفي دفن فيه(2) ، كما تؤيد لنا بان اخلافه من الخلفاء الذين حكموا في سامراء سكنوا فيه أيضاً باستثناء الواثق والمتوكل . اما الواثق فقد سكنه في ابان حكمه ثم انتقل الى القصر الهاروني بعد اتمام بنائه ، في حين ان المتوكل آثر السكنى في الهاروني بعد توليه عرش الخلافة ومن ثم انتقل الى القصر الجعفري بالمتوكلية قبل مقتله . ويستفاد مما كتبه اليعقوبي ان المتوكل انزل ابنه محمداً المنتصر في الجوسق(3) .

وقد ردّد المؤرخون ذكر « الجوسق » في مناسبات عدة عند سردهم الحوادث في عهد خلفاء سامراء ، منها حادثة مقتل اتامش وكاتبه في عهد المستعين(4) ، وحوادث مقتل موسى بن بغا ومصرع بايكباك ونهب الجوسق في زمن المهتدي(5) ، والحوادث الاخرى التي وقعت في عهد المعتمد(6) .

ويستفاد من روايات المؤرخين انه كان في قصر الجوسق سجن ملكي كان يسجن فيه السياسيون والقواد والامراء ، ويظهر ان هذا السجن انشىء في الاصل في عهد المعتصم لحبس الافشين فيه وقد سمي باسم « لؤلؤة » ، ثم سجن فيه المعتز والمؤيد في عهد المستعين كما سجن فيه احمد بن المتوكل الذي كان يعرف بـ « ابن فتيان » في عهد المهتدي . وذكر الطبري في جملة حوادث سنة ٢٢٥ هـ . ان المعتصم دعا الافشين فجاء وهو في سواد « فأمر بأخذ سواده وحبسه فحبس في الجوسق

(1) تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثالث ، طبعة النجف ، ص ١٩٧

(2) قال اليعقوبي : « توفي المعتصم يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ وصلى عليه ابنه هارون ودفن في قصره المعروف بـ « الجوسق » وكانت سنه ٤٩ سنة ألخ ... » تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثالث ، ص ٢٠٤

(3) كتاب البلدان لليعقوبي

(4) الطبري (٣ : ١٥٣٨)

(5) الطبري (٣ : ١٨١٠ ، ١٨١٥ ، ١٨٣١)

(6) الطبري (٣ : ١٩٢٧ ، ٢٠٤٠)

ثم بنى له حبساً مرتفعاً وسماه لؤلؤة داخل الجوسق وهو يعرف بالأفشين . »[١] وجاء ذكر البناية أيضاً فيما قيل عن ارسال المعتصم بعض الفاكهة الى الافشين وهو في سجنه ، فهذا نص الرواية وقد نقلها الطبري ايضاً ، قال : « في سنة ٢٢٦ هـ ذكر عن حمدون بن اسماعيل انه قال لما جاءت الفاكهة الحديثة جمع المعتصم من الفواكه الحديثة في طبق وقال لابنه هارون الواثق اذهب بهذه الفاكهة بنفسك الى الأفشين فادخلها اليه فحملت مع هارون الواثق حتى صعد بها اليه في البناء الذي بني له فحبس فيه الذي يسمى لؤلؤة ... »[٢] ويظهر ان المعتقل المذكور صار يعرف باسم « لؤلؤة الجوسق » ، فقد ذكر المسعودي ان المستعين لما كان في سامراء قبل أن ينحدر الى بغداد اعتقل المعتز والمؤيد في هذا السجن وأبقاهما فيه فاطلق الموالي سراحهما وبايعوا المعتز . ويقول المسعودي في هذا الصدد ما نصه : «وقد كان المستعين اعتقل المعتز والمؤيد حين انحدر الى بغداد ولم يأخذهما معه ... فاجمع الموالي على اخراج المعتز والمبايعة له والانقياد الى خلافته ومحاربة المستعين وناصريه ببغداد فانزلوه من الموضع المعروف بلؤلؤة الجوسق وكان معتقلاً فيه مع أخيه المؤيد فبايعوه »[٣] .

وذكر الطبرى سجن الجوسق عند وصفه لحوادث سنة ٢٥٦هـ ـ وهي الحوادث المثيرة التي اكتنفت عهد المهتدي القصير والتي كانت تدور حول عصيان الجيش وتمرده على الخليفة ـ فقال ان المهتدي لما استنجد بالعامة ولم ينصره احد « صار الى باب السجن فاطلق من فيه وهو يظن انهم يعينونه فلم يكن منهم إلا الهرب » ، فاتجه بعد ذلك الى دار أبي صالح عبد الله واخرج منها وسيق الى الجوسق فحبس فيه عند احمد بن خاقان وأرادوه على الخلع فأبى واستسلم للقتل .

---

(١) الطبري (٣ : ١٣٠٧)
(٢) الطبري (٣ : ١٣١٥)
(٣) راجع أيضاً الطبري (٣ : ١٥٠٧، ١٦٦٨)

والظاهر انه كان بالقرب من الجوسق قصر يسمى « القصر الاحمر » إذ ورد ذكره في تاريخ الطبري عند وصف حوادث سنة ٢٥٦ هـ قال: دخل موسى بن بغا سامراء و «أخذ في الحير وعبأ اصحابه ميمنة وميسرة وقلبا في السلاح حتى صار الى باب الحير مما يلي الجوسق والقصر الاحمر » . ثم جاء ذكره في حوادث السنة نفسها بمناسبة اخرى ، وهي انه ادخل على المهدي كتاب ذكر ان سيما الشرابي زعم عن امرأة جاءت به مما يلي القصر الاحمر ودفعته الى كافور الخادم الموكل بالحرم وقالت له ان فيه نصيحة الخ ... »

ويستفاد من أوصاف الطبري لحوادث عصيان الجيش في عهد الخلفاء العباسيين في سامراء ان الجوسق كان في ذلك العهد المحور الذي كانت تدور حوله المؤامرات والتجمعات وحوادث القتل والسجن والاغتيال وكانت الالوف من الجنود تتقاتل فيما بينها في ساحاته وداخل أبنيته الواسعة . وقد اطلق عليه الطبري اسم « الدار » دون ذكر اسم الجوسق كلما أشار اليه مما يدل على انه كان من الاماكن الرئيسية المشهورة في العاصمة العباسية في ذلك الوقت .

ومما يدل ايضاً على ان الجوسق كان يعد من الأبنية الرئيسية في سامراء العباسية ومركزاً مهماً فيها ان المكتفي لما اتجهت نيته الى الانتقال الى سامراء واعادة البناء فيها ضربت له المضارب بالجوسق وكان يريد البناء فيه غير انه عدل عن ذلك ورجع الى بغداد(١) . وقد اختار ابن المعتز قصري الجوسق والتل من دون قصور سامراء فذكرهما في ديوان شعره وهو يرثي الخلافة العباسية بعد أن أصابها الوهن والشلل قال :

فتلك اطلال لهم قفارا — ترى الشياطين بها نهارا
بالتل والجوسق والقطائع — كم ثم من دار لهم بلاقع

(١) راجع ماتقدم في صفحة ٥١

وقال ياقوت الحموي في المعجم عند ذكره « بزكوار » أبياتاً منها :

عصى الزمان عليهم بعد طاعته　　فانظر الى فعله بالجوسق الخرب

ويظهر ان قصر الجوسق كان يعرف باسم « الجوسق الخاقاني » ، وقد سمّاه المعتصم بهذا الاسم نسبة الى خاقان عرطوج أبي الفتح بن خاقان الذي اقطعه واصحابه القطائع مما يلي الجوسق[1]. وجاء في « تاريخ مروج الذهب» للمسعودي ما يؤيد ذلك قال : « وفي سنة سبع وعشرين كانت وفاة المعتصم على دجلة في قصره المعروف بالخاقاني يوم الخميس لثماني عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول . »

ويلاحظ ان ياقوت ذكر بان الجوسق من القصور التي بناها المتوكل في سر من رأى في ميدان الصخر وانفق عليه خمسمائة الف درهم . ويظهر من ذلك ان الجوسق اثنان أحدهما من ابنية المعتصم وهو الجوسق الرئيسي والآخر من أبنية المتوكل أنشىء بالقرب من الجوسق الكبير في احدى ساحاته .

ولا شك في أن اطلال قصر الجوسق كانت من أبرز وأوسع المواقع الأثرية في سامراء ، إلا أن قربها من مدينة سامراء الحالية كان السبب المباشر في محو معالمها حيث استخرج كل مافيها من آجر ونقل الى المدينة الجديدة التي أسست فوق اطلال سر من رأى العباسية لاستعماله في بنائها وفي انشاء السور الضخم حواليها . ويحتمل أن يكون جزء من مدينة سامراء الحالية قد بني على طرف أرض الجوسق نفسه مما أدى الى محو معالم القصر محواً تاماً .

والجوسق اسم لامكنة اخرى غير جوسق سامراء منها الجوسق الذي في بغداد وكان يعرف بـ « الجوسق المحدث » ، وهو دار تقع بالقرب من قصر

---

(١) راجع « كتاب البلدان » لليعقوبي

الفردوس (أحد قصور الخلفاء العباسيين في بغداد) . والجوسق أيضاً اسم لقرية كبيرة من نواحي دجيل من اعمال بغداد وبينها عشرة فراسخ ، والجوسق أيضاً من قرى النهروان من أعمال بغداد .

ز - العمران في الجانب الغربي من نهر دجلة

لما أنشأ المعتصم مدينة « سر من رأى » واتسعت ابنيتها كانت مياه الشرب تحمل من نهر دجلة الى المدينة على البغال وعلى الأبل ، ونظراً لأن الأراضي التي تقع فيها المدينة مرتفعة بالنسبة الى مستوى مياه النهر لذلك لم يكن هناك مجال لانشاء البساتين والمزارع بصورة واسعة حوالي المدينة، لاسيا وان الوسائط لرفع المياه لم تكن متوفرة بمقياس واسع في ذلك الزمن. ولما كانت الاراضي في الضفة الغربية من نهر دجلة منخفضة بالنسبة الى مستوى أراضي الضفة الشرقية التي تقع فيها مدينة « سرّ من رأى » لذا انتقل بعض السكان الى الجانب الغربي من دجلة فحفروا هناك جداول سيحية انشئت عليها الجنائن والبساتين والمزارع والقرى . وكانت هذه الجداول تتفرع من نهر الاسحاقي الذي حفره المعتصم لارواء الأراضي الواقعة على الجانب الغربي من نهر دجلة أرواء سيحياً . ونهر الاسحاقي هذا يستمد المياه من نهر دجلة في نقطة تقع جنوب تكريت بقليل فيجري من أمام مدينة « سر من رأى » بموازاة نهر دجلة من جهة الغرب ثم ينتهي في دجلة في الحد الجنوبي لمدينة « سرّ من رأى » .

ح - مشروع نهر الاسحاقي

وقد يكون من المفيد ان نستعرض بصورة مجملة التطورات التي اعتورت مشروع نهر الاسحاقي في مختلف أدواره ليكوّن القارىء فكرة عن تاريخه ، لاسيا وقد اضطربت آراء الكتاب والمحققين فيه لندرة المراجع التاريخية القديمة عنه : فقد ثبت لنا من تحقيقاتنا ان منشأ هذا النهر يرجع الى عصور سحيقة في

التاريخ ، وقد كان بالاصل نهراً جسيماً يتفرع من الضفة اليمنى من نهر دجلة في نقطة تقع في جوار تكريت فيمتد الى اقصى الجنوب حتى ينتهي في منخفض «عقرقوف»، وكان بذلك يروي القسم الاعظم من أراضي الجزيرة التي تمتد بين الفرات ودجلة ابتداء من سامراء حتى منخفض عقرقوف الذي في غربي بغداد، على ان المشروع اهمل فاندرس وبقي متروكاً مدة من الزمن حتى اذا ما جاء العهد العباسي واتخذ بنو العباس سامراء عاصمة لملكهم قام المعتصم باحياء القسم الاعلى منه ، وهو القسم الذي يمتد بين تكريت والحد الجنوبي لمدينة « سر من رأى » . لذلك فقد يصح لنا ان نقول بانه مر على مشروع الاسحاقي دوران ، الدور الاول ، هو الدور القديم الذي كان فيه نهر الاسحاقي مشروع ري واسع يمتد في اراضي الجزيرة من تكريت حتى عقرقوف ، والدور الثاني، هو الدور العباسي الذي اعيد فيه انشاء القسم الاعلى من النهر لاستغلاله في احداث البساتين والمزارع أمام مدينة « سر من رأى » في جهة دجلة الغربية. ولا شك في ان تسمية «الاسحاقي» ترجع الى الدور الثاني أي الدور العباسي. ويقال ان اسحاق بن ابراهيم الذي كان مدير شرطة المعتصم هو الذي تولى اعمال هذا المشروع فسمي باسمه ، ويلاحظ ان «وادي اسحق بن ابراهيم» الواقع في الجانب الشرقي[١] سمي باسمه أيضاً لوجود قطيعته بالقرب منه .

ويستدل من تتبع آثار نهر الاسحاقي انه كان يبدأ من ضفة دجلة الغربية في نقطة تقع على بعد حوالي عشرة كيلو مترات جنوبي تكريت ، وذلك في نهاية سفح اراضي الجزيرة المرتفعة (الكهف) مقابل حاوي البو عجيل الواقع في الضفة الشرقية حيث تقع هناك اطلال قرية هاطري القديمة (٢) . وقد نصبت مؤخراً مضخة بالقرب من فوهة النهر لسقي المزارع المجاوره التي تعود الى الشيخ ندى بك.

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن هذا الوادي في صفحة ٦٢

(٢) راجع البحث التالي الخاص بقرية « هاطري » في الفصل الثامن .

ويعلو منسوب القعر في صدر النهر حوالي ثمانية امتار عن مستوى نهر دجلة الصيفي . اما (الـكهف) الذي يحد أراضي الجزيرة المرتفعة فيعلو عن الارض التي يقع فيها مجرى الاسحاقي بما يزيد على عشرين متراً . وتدل الآثار الباقية على ان المجرى كان يسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي بمحاذاة (الـكهف) ، وبعد ان يقطع مسافة حوالي ثمانية كيلومترات في هذا الاتجاه يصل الى امام الدور (دور تـكريت) الواقعة في ضفة نهر دجلة الشرقية على مسافة اربعة كيلو مترات منه تقريباً . ومن هنا ينحرف نحو الجنوب الغربي فيسير بمحاذاة (الـكهف) ايضاً مسافة اربعة كيلو مترات اخرى حتى يصل الى طريق (بغداد ــ موصل) العـام وسكة حديد (بغداد ــ موصل) الواقعة بمحاذاة الطريق تماماً . وبعد ان تقطعه السكة الحديدية المذكورة يترك حد (الـكهف) المرتفع فيسير بمحاذاة السكة من غربيها متجهاً نحو الجنوب حتى اذا ما قطع مسافة ستة كيلو مترات تقريباً بلغ التل الذي عليه مقبرة الشيخ علي الـكريم ، وهو التل الملاصق الى الخط الحديدي من شرقيه ، ومن ثم يتجه بانحراف خفيف نحو الجنوب الشرقي فيصل بعد مسير مسافة كيلو مترين تقريباً الى محطة مكيشيفة الواقعة في شرقيه ، وبعد ان يسير مسافة كيلو متر ونصف من المحطة المذكورة يصل الى « تل جمان » ، وهو تل مرتفع يقع في الجهـة الغربيـة من النهر ، ثم يسير مسافة اثني عشر كيلومتراً فيصل الى « تل الحويصلات » الواقع على ضفته الشرقية ، ويتجه بعد ذلك نحو « قصر العاشق » الواقع في الجهة الغربية على بعـــد ستة كيلو مترات من « تل الحويصلات» . وقبل ان يصل النهر الى العاشق بكيلومتر واحد يسير فيملتويات نصف دائرية فيحيط بقصر العاشق من طرفه الشمالي والشرقي فيشكل نصف دائرة حوالي القصر المذكور . وبعد أن يترك النهر « قصر العاشق » ينحرف قليلاً الى الجنوب الغربي فيسير مسافة ثلاثة كيلو مترات تقريبـاً بمحـاذاة الحد الأسفل من سفح الأراضي المرتفعة المجاورة حتى يصير أمام قبة «الصليبية »[١] .

(١) راجع البحث التالي الخاص بـ « الحويصلات » و « العاشق » و « الصليبية » في هذا الفصل .

وبعد ان يترك النهر « الصليبية » على ضفته اليمنى يسير بصورة ملتوية لمسافة حوالي ثمانية كيلو مترات حتى يصير امام محطة قطار سامراء الحالية غرباً . ومن ثم يسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي مسافة أربعة كيلومترات حتى يقترب من سكة القطار. ومن هنا ينشطر النهر الى شطرين، الشطر الغربي يترك السكة الحديدية فيسير نحو الجنوب ممتداً في وسط الجزيرة التي بين الفرات ودجلة الى مسافة زهاء أربعين كيلومتراً ، ثم تضيع معالمه في وسط الصحراء بين الكثبان الرملية ؛ والشطر الشرقي يسير بمحاذاة السكة الحديدية وبموازاة السور الخارجي لمعسكر الاصطبلات[١] غرباً، وبعد أن يسير مسافة زهاء ثلاثين كيلومتراً الى الجنوب الشرقي ينصب في مجرى دجيل القديم[٢] ، وذلك بعد أن يخترق في طريقه « جدار المطبّق »[٣] في جنوب غربي معسكر الاصطبلات (راجع رسم رقم « ٢ أ » ورسم رقم « ٢ ب ») .

وقد دلت تدقيقاتنا على ان مجرى الاسحاقي الأصلي القديم كان يبدأ من جنوب تكريت فيسير في الاتجاه الذي تقدم وصفه حتى اذا ما وصل الى المكان الذي ينشطر فيه النهر الى شطرين سار في الفرع الغربي الذي يمتد في وسط الجزيرة ، وهو الفرع الذي كان يؤلف المجرى الرئيسي للنهر فتتشعب من ضفتيه شبكة من الفروع لاسقاء أراضي الجزيرة الخصبة . اما المجرى الذي انشىء على عهد المعتصم فيسير في قسمه الأعلى في نفس الاتجاه الذي كان يسير فيه المجرى الأصلي القديم حتى اذا ما وصل الى مكان انقسام النهر اتجه نحو الفرع الشرقي ، وهو الفرع الذي يفضي الى نهر دجيل القديم . وكان الفرع الشرقي هذا يحيط بالسور الخارجي لمعسكر الاصطبلات فيشكل حاجزاً مائياً خلف السور ، وكانت

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بـ « معسكر الاصطبلات » في هذا الفصل .
(٢) راجع البحث التالي الخاص بنهر دجيل القديم في الفصل الثالث .
(٣) حول هذا الجدار راجع البحث التالي الخاص بسور الميدين في الفصل الثاني .

تتفرع من ضفة هذا الفرع اليسرى عدة تشعبات تفضي الى داخل معسكر الاصطبلات (١) .

وقد فتح فرعان في القسم الاعلى من المجرى الذي انشأه المعتصم ، أحدهما من الضفة اليسرى والآخر من الضفة اليمنى ، فيبدأ الأول وهو المعروف اليوم باسم « الأبيتر » من نقطة تقع مقابل مدينة الدور التي في الجانب الايسر من دجلة ، ثم يتجه نحو الجنوب ما بين نهر دجلة ومجرى الاسحاقي الى أن يتصل ثانية بمجرى الاسحاقي بالقرب من التل الذي عليه مقبرة الشيخ علي الكريم . اما الفرع الثاني الذي انشيء في الضفة اليمنى فيبدأ في المكان الذي يقطع فيه الطريق العام مجرى النهر فيسير في الأراضي المنبسطة بموازاة السفح الذي يحد الاراضي المرتفعة، ثم يقترب تدريجياً من مجرى الاسحاقي الى ان يتصل به في نقطة تبعد عن شمال غربي محطة مكيشيفة بكيلو متر ونصف تقريباً . وكان هذان الفرعان يرويان البساتين والمزارع التي انشئت في عهد المعتصم على طول ضفة مجرى دجلة الغربية مقابل مدينة سر من رأى (راجع رسم رقم ٢ أ ـ خارطة مشروع نهر الاسحاقي) .

وكان نهر الاسحاقي محور العمران الذي أسس في سامراء العباسية على الضفة الغربية من نهر دجلة ، فوصف اليعقوبي ذلك في كتابه « البلدان » قال ما نصه : « واتسع الناس في البناء بسر من رأى اكثر من اتساعهم ببغداد وبنوا المنازل الواسعة إلا ان شربهم جميعاً من دجلة مما يحمل في الروايا على البغال وعلى الأبل لأن آبارهم بعيدة الرشاء ثم هي مالحة غير سائغة فليس لها اتساع في الماء ، ولكن دجلة قريبة والروايا كثيرة ... ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الاساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة وهو جانب سر من رأى عقد جسراً الى الجانب الغربي من دجلة فأنشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة ، حفر الانهار من دجلة وصير الى كل قائد عمارة ناحية من النواحي . وحمل النخل من بغداد

(١) راجع البحث التالي الخاص بـ « معسكر الاصطبلات » في هذا الفصل .

والبصرة وسائر السواد وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان فكثرت المياه في هذه العمارة ... وصلح النخل وثبتت الاشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه وحسن الريحان والبقل وزرع الناس أصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب، وكانت الأرض مستريحة الوف سنين فزكا كل ما غرس بها حتى بلغت غلّة العمارات بالنهر المعروف بالاسحاقي وما عليه والايتاخي والعمري والعبد الملكي ودالية ابن حماد والمسروري وسيف والعربات المحدثة وهي خمس قرى والقرى السفلى وهي سبع قرى والأجنة والبساتين وخراج الزرع أربع مائة الف دينار في السنة » . وقد أورد ابن المعتز في ديوان شعره ذكر الجسر والقرى الخمس المشار اليها في وصف اليعقوبي هذا ، قال :

سقى الاله سرّ من رأى القطرا والكرخ والخمس القرى والجسرا

وكان المعتصم على زعم المؤرخين العرب يحب العمارة فيذكر عنه قوله : « في العمارة امور محمودة فاولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال وتعيش البهائم ، وترخص الاسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش ، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعاً متى انفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة احد عشر درهما فلا تؤامرني فيه »

وقد وصف ابن سرابيون (٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م) نهر الاسحاقي كما شاهده بعد ان هجرت سرّ من رأى واعيد مقر الخلافة العباسية الى بغداد بمدة قليلة ، قال :«يحمل من دجلة من غربيها نهر يقال له الاسحاقي ، أوله اسفل من تكريت بشي يسير ، يمر من غربي دجلة ، عليه ضياع وعمارات ويمر بطيرهان ويجيء الى قصر المعتصم بالله المعروف بقصر الجص،ويسقي الضياع التي هناك في غربي مدينة سرّ من رأى ، المعروفات بالأولى والثانية الى السابعة[1] ويصب في دجلة بازاء

(١) ان الضياع السبع التي يشير اليها ابن سرابيون في وصفه هذا هي نفس القرى السبع التي ذكرها اليعقوبي .

نهر المطيرة »[١] . وقد رسم ابن حوقل الذي كتب في حدود سنة ٣٦٧ هـ (٩٨٨ م) نهر الاسحاقي في خارطته « صورة الجزيرة » ، وهو يتشعب من نهر دجلة من جنوب تكريت مباشرة ثم يمتد باتجاه الغرب حتى يفضي الى نهر الصراة ، ونهر الصراة كان يسحب المياه من نهر الفرات وينتهي في دجلة في وسط مدينة بغداد الغربية (راجع رسم رقم ٩ ـ صورة الجزيرة لابن حوقل) ، ذلك مما يدل على ان نهر الاسحاقي كان لا يزال موجوداً في زمن ابن حوقل على الشكل الذي وصفه ابن سرابيون من قبل .

ومن أهم العمارات على نهر الاسحاقي التي لا تزال آثارها شاخصة ، « قصر الحويصلات » الواقع على الضفة اليسرى من النهر بازاء كرخ اشناس[٢] ، و « قصر العاشق » على ضفته اليمنى بازاء دار العامة (دار الخليفة)[٣] ، و قبة الصليبية على ضفته اليمنى ايضاً بازاء القصر الهاروني[٤] . هذا عدا « معسكر الاصطبلات » الواقع في ذنائب مجرى النهر مقابل القادسية[٥] . وتوجد آثار أبنية أيضاً في الموضع المعروف بـ « تل الصخر » الذي يقع على الضفة الشرقية من نهر الاسحاقي بين خرائب الحويصلات وقصر العاشق ، كما توجد آثار بناء على الضفة الغربية شمالاً في التل المعروف بـ « تل جمان » الواقع على بعد حوالي كيلو مترين من جنوب محطة مكيشيفة .

ومن الغريب ان مستر لاين صاحب كتاب « مسائل بابلية » قد اتخذ من آثار مجرى الاسحاقي وقوداً للهيب خياله، فصور لنا مجاري النهر وفروعه خنادق ميمنة وميسرة ، ووهاده خزانات لاملاء الخنادق بالمياه ، واكتاف النهر العالية

---

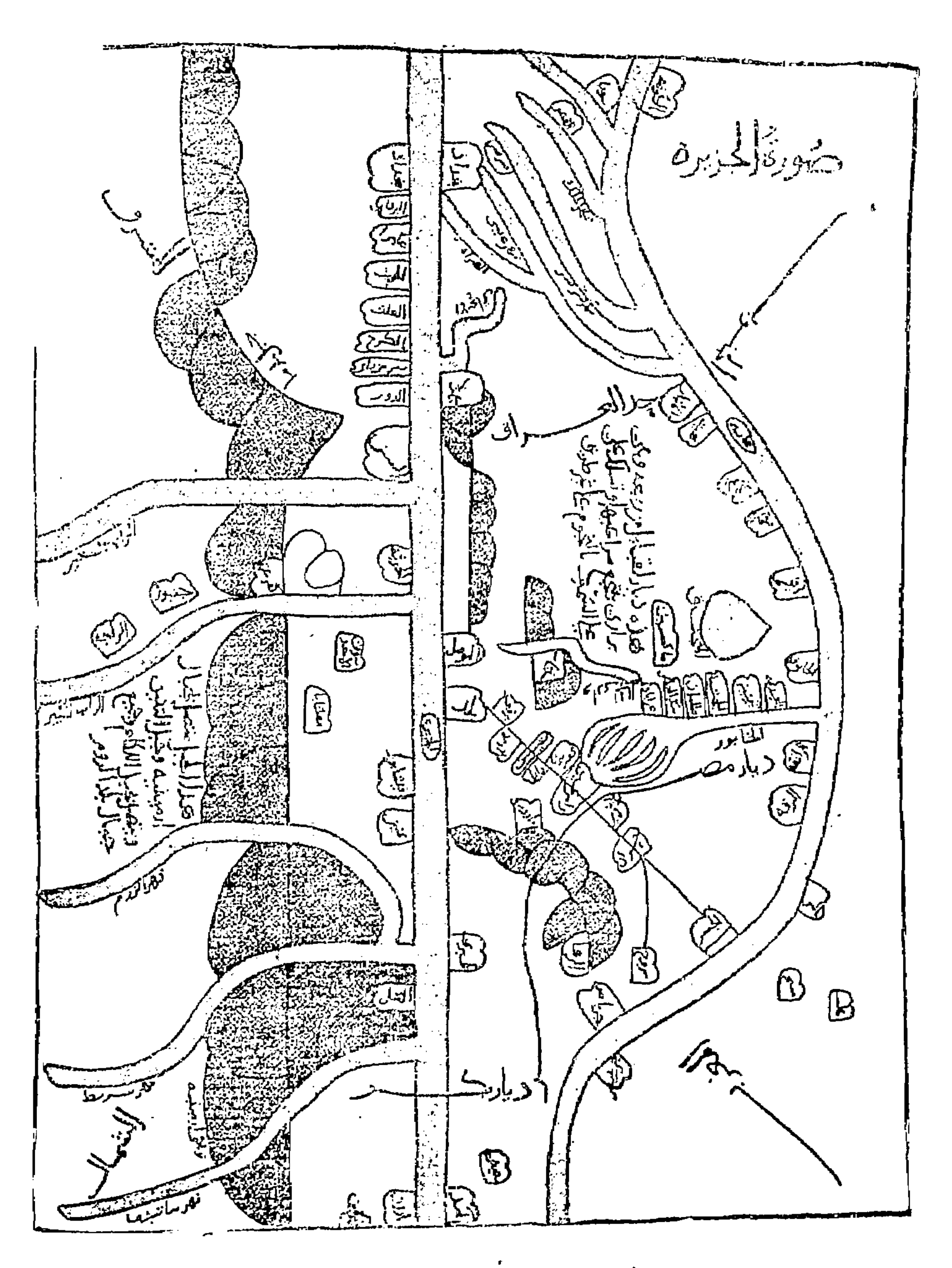
(١) حول المطيرة راجع البحث الذي تقدم في الصفحات ٥٩ ـ ٦١

(٢) راجع البحث الذي تقدم وهو الخاص بـ « كرخ اشناس » في صفحة ٥٧

(٣) انظر البحث الذي تقدم والخاص بدار العامة في صفحة ٦٦

(٤) انظر البحث الذي تقدم عن القصر الهاروني في صفحة ٧١

(٥) راجع البحث التالي الخاص بمعسكر الاصطبلات في هذا الفصل .



صورة الجزيرة لابن حوقل (٣٦٧ هـ = ٩٧٨ م)

تحصينات دفاعية الخ ... والاغرب من هذا انه يربط هذه الآثار التي يزعم انها تحصينات عسكرية بعهد البابليين وعهد نمرود .

ط ـ بناء الحويصلات

تقع خرائب « الحويصلات » في السهل الذى على الجانب الأيسر من نهر الاسحاقي على بعد سبعة عشر كيلو متراً شمالي محطة سكة حديد سامراء ، ويرجح انها بقايا قصر من قصور الخلفاء في سامراء على الجانب الغربي من دجلة. وتبلغ مساحة بناية هذا القصر حوالي تسعة عشر الف متر مربع ، واما مساحة القصر مع حديقته وسوره الخارجي فتزيد على المائة والثلاثين الف متر مربع. وتوجد آثار بناية اخرى تقع غربي القصر على الضفة الشرقية من نهر الاسحاقي فتطل على القصر من أعالي تلك الضفة ، وبالنظر لقرب هذه البناية من مكان القصر الذي في السهل المجاور لذا يصح لنا القول بانها جزء من القصر . ويلاحظ ان مياه دجلة قد جرفت الزاوية الشمالية الشرقية من القصر الذي في السهل كما ازالت معالم السور الخارجي من الجهتين الشمالية والشرقية والضلع الشمالية مع قسم من الضلع الشرقية من السور الداخلي أيضاً، ذلك ما يدل على ان القصر الرئيسي كان يقع على ضفة نهر دجلة القديم الذي كان يجري غربي مجراه الحالي محاذياً للقصر .

ويغلب على الظن ان خرائب الحويصلات هذه بقايا القصر الذي ذكر ابن سرابيون في كتابه « عجائب الاقاليم السبعة » ان المعتصم بناه على نهر الاسحاقي وسماه باسم « قصر الجص » ، بدليل ان القصر بني بالحصى الممزوجة بالجص بشكل يشبه الخرسانة . ومما قاله الحموي في المعجم ان « قصر الجص قصر عظيم قرب سامراء فوق الهاروني بناه المعتصم للنزهة وعنده قتل بختيار بن معز الدولة بن بويه قتله عضد الدولة ابن عمه » (وبختيار هو خامس ملوك آل بويه كنيته ابو منصور ولقبه عز الدولة) . (راجع رسم رقم ٢ أ ولوحة رقم ٢) .

ي ـ قصر العاشق

اما اطلال قصر العاشق فتقع على بعد حوالي تسعة كيلومترات من جنوبي الحويصلات وهي بقايا قصر ضخم على الضفة اليمنى من نهر الاسحاقي كان قد سماه المؤرخون باسم المعشوق إلا ان اسمه هذا تحول بين الناس الى العاشق . وقد بني هذا القصر في أواخر أيام حكم المعتمد في سامراء قبل ان يتركها نهائياً ويعيد مقر الخلافة الى بغداد . ويتكوّن القصر من طابقين الطابق الاسفل منه قد تحول الآن الى سراديب اما شكل القصر فهو مستطيل فيبلغ طوله ١٣١ متراً وعرضه ٩٦ متراً وقد حوّط بساحة مسوّرة ، ويشاهد في هذه الساحة بين القصر وبين السور الخارجي عدة مبان فرعية . ويدور حول القصر خندق واسع كان يستمد مياهه من قناة جوفية (كهريز) كانت تنحدر من العيون التي في أراضي الجزيرة الغربية المرتفعة فتفضي الى خندق القصر الذي كان مرتفعاً بالنسبة الى منسوب مياه نهر الاسحاقي (راجع رسم رقم ٢أ ولوحة رقم ٢)

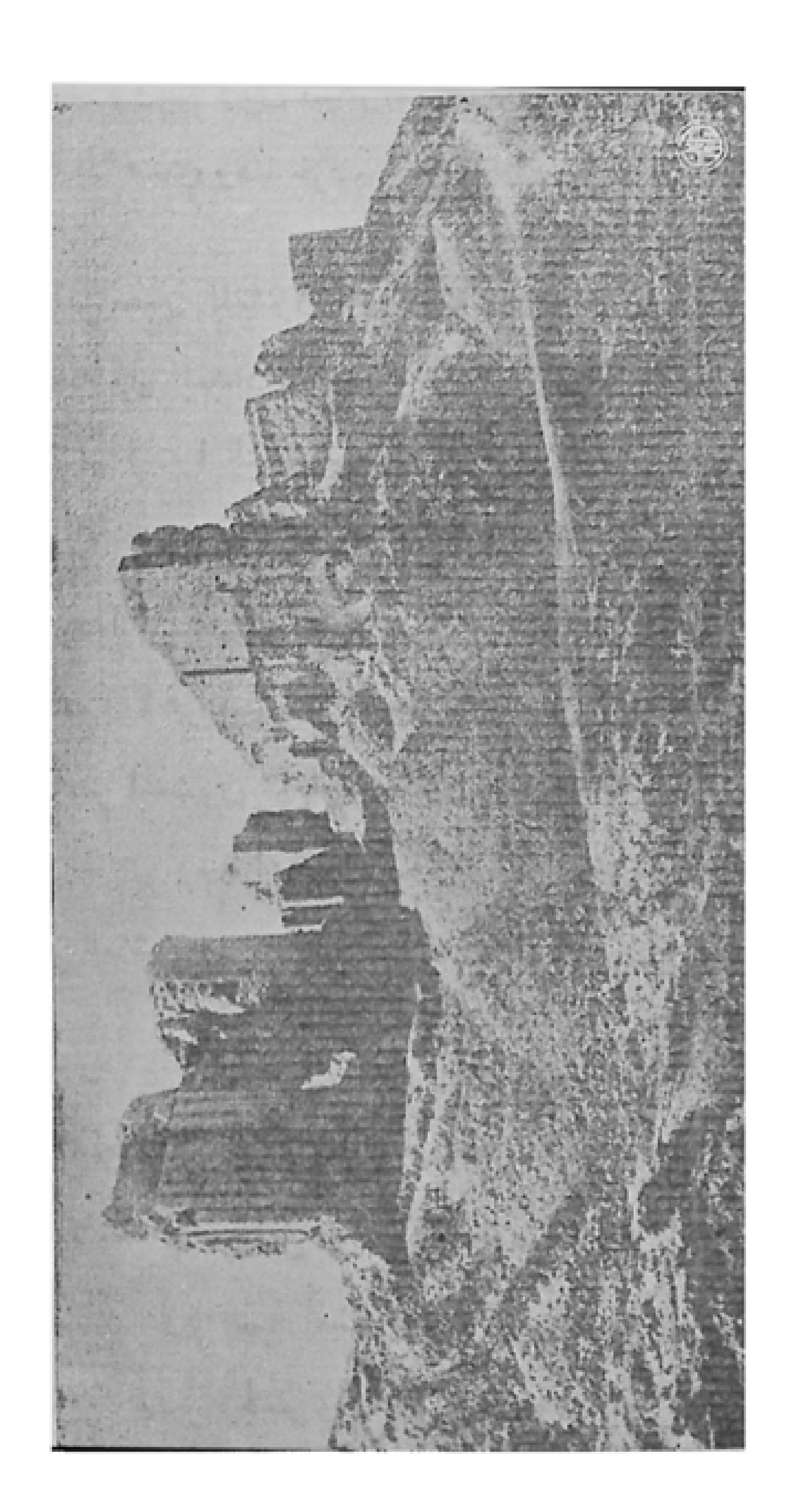
وقد أشار اليعقوبي في وصفه لمدينة سرّ من رأى الى هذا القصر فقال ان المعتمد لما ارتقى عرش الخلافة « أقام بسرّ من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ثم انتقل الى الجانب الشرقي « يقصد الغربي » بسرّ من رأي فبنى قصراً موصوفاً بالحسن سماه المعشوق فنزله وأقام به حتى اضطربت الامور فانتقل الى بغداد ثم الى المدائن . »

وقد أشاد البحتري بقصر المعشوق هذا فأنشد في قصيدة يمدح بها المعتمد على الله قائلا : ـ

لا زال معشوقك يسقى الحيـــا   من كل داني المزن واهي الخروق

لم أر كالمعشوق قصراً بـــدا   لأعين الرّائين غـــير المشوق

هـــذاك قـــد برّز في حسنـه   سبقا وهذا مسرع في اللحوق



تصوير رقم ٢ — اطلال قصر العاشق (منظر عام)

وقال ياقوت واصفاً هذا القصر انه « قصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء في وسط البرية باق الى الآن ليس حوله شيء من العمران يسكنه قوم من الفلاحين إلا انه عظيم مكين محكم لم يبن في تلك البقاع على كثرة ما كان من القصور غيره وبينه وبين تكريت مرحلة عمّره المعتمد على الله وعمر قصراً آخر يقال له الاحمدي وقد خرب » .

وذكر ابن جبير المعشوق في وصف رحلته كما ذكره ابن بطوطه ايضاً في وصف رحلته بين بغداد والموصل وسمّى كلاهما القصر باسم « المعشوق » ، ويلاحظ انهما اعتبرا البناية حصناً لوجود ابراج ضخمة في جدار القصر . اما ابن بطوطه فقد وصف البناء بقوله انه يقع على نهر دجلة ، وفيما يلي نص ما كتبه في هذا الصدد قال : « فنزلنا موضعاً على شط دجلة بالقرب من قصر يسمى المعشوق وهو مبني على الدجلة » . كل ذلك يدل على ان نهر الاسحاقي الذي يقع قصر المعشوق على ضفته كان مندرساً في ذلك الوقت ونظراً لقرب البناء من ضفة نهر دجلة اعتبره مبنياً على ضفة نهر دجلة (راجع تصوير رقم ٧ - اطلال قصر العاشق) .

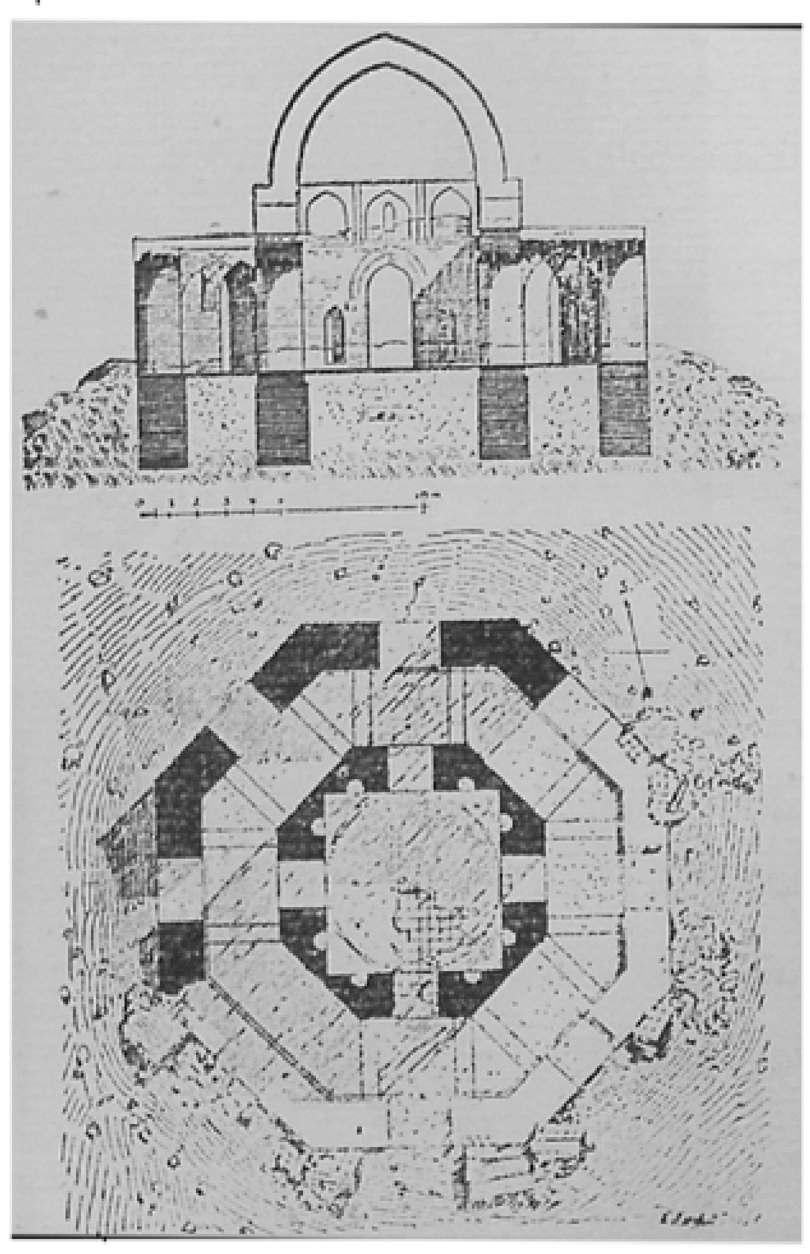
وقد أورد ياقوت ذكر قصر آخر على الضفة اليمنى لنهر دجـلة قرب الاسحاقي سمّاه « قصر حبش » ، فقال عنه انه موضع قرب تكريت فيه مزارع شربها من الاسحاقي ، ولعل موقع هذا القصر في التل المعروف بـ « تل مهيجير » ، وهو تل مسطح علوه خمسة أمتار وطوله عشرون متراً يقع في حافة دجلة الغربية الحالية مقابل القصر الجعفري الذي في الضفة اليسرى[١] ، وتوجد آثار نهر قديم يتفرع من الضفة اليسرى من فرع الابيتر الذي تقدم ذكره وينتهي عند التل المذكور .

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بالقصر الجعفري في هذا الفصل .

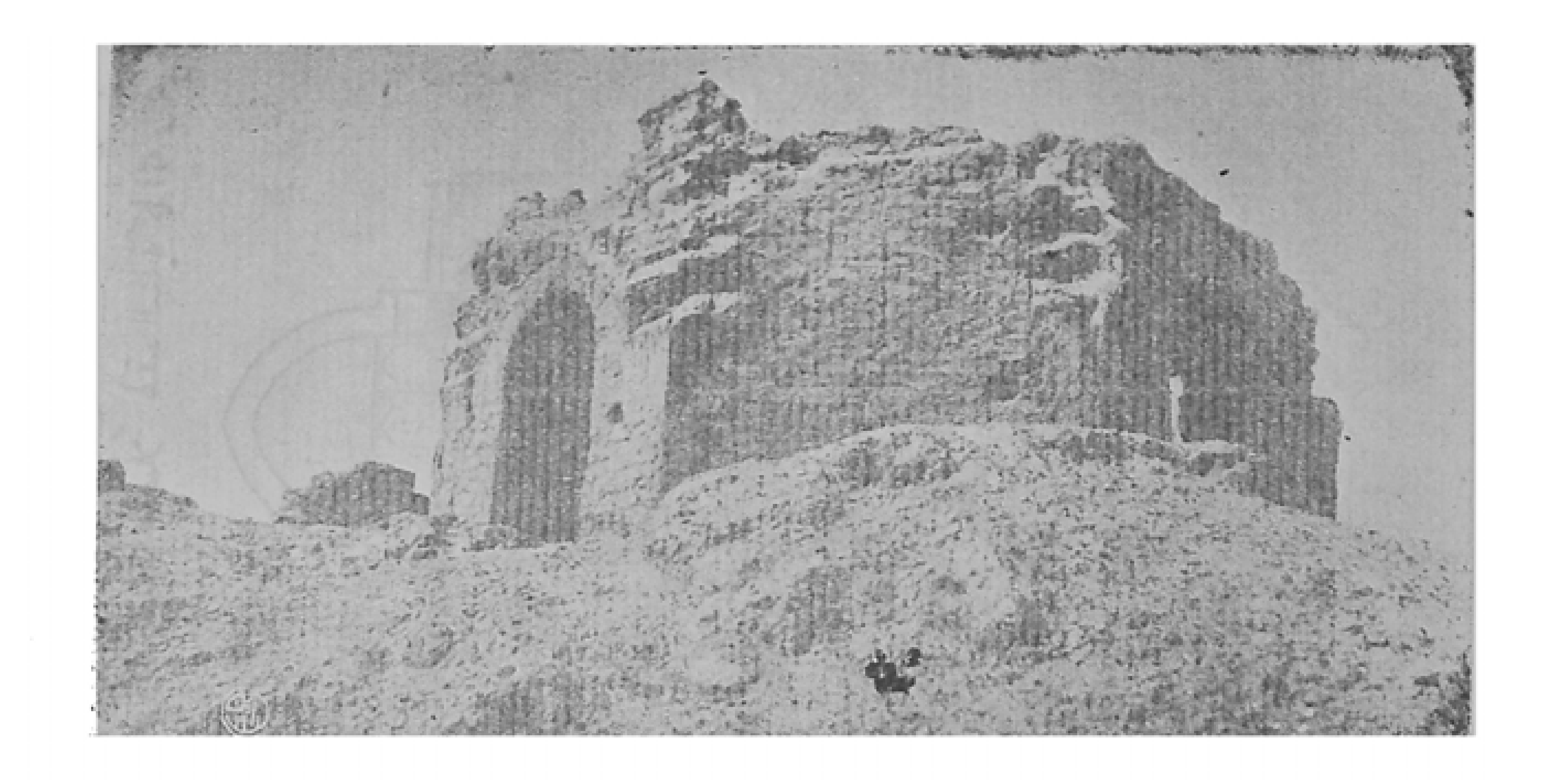
ك - قبة الصليبية

تشتمل اطلال الصليبية على بناية مثمنة الشكل من اللبن الجصي تتوسطها قاعة مربعة يحيط بها رواق مثمن ، وقد اجمع الاخصائيون على انها كانت متوجة بقبة . وقد رسم هرزفلد مخططاً مفصلاً لهذه البناية كما انه رسم مقطعاً عرضياً



تصوير رقم ٤ - مخطط قبة الصليبية - حسب تخطيط هرزفلد

للبناية يجدها القارىء في تصوير رقم (٤) . ويظن البعض ان هذه البناية كانت ضريحاً لأحد الخلفاء ويرى آخرون انها كانت منظرة على رأس الجسر من الجهة الغربية وهي في نفس الوقت قبة حراس الجسر نظراً لوقوعها أمام الجسر تماماً ،



تصوير رقم ٣ ـ قبة الصليبية (منظر خارجي)

ويرى هؤلاء أيضاً ان من المحتمل ان تكون البناية سميت بالصليبية اصلب بعض الاشخاص على رأس الجسر بالقرب منها ، لاسيما أن التاريخ يذكر كثيراً من مثل هذه الحوادث حيث كان الصلب العلني مألوفاً في ذلك العهد . على اننا نميل الى الأخذ بالرأي الأول وهو ترجيح كون البناء ضريحاً لشخصية مهمة لأن البناء أشبه بقبب الأضرحة منه الى أي طرز آخر. ولا بد من الاضافة في هذا الصدد الى ان البناء يقع في اعلى نقطة من هذه المنطقة وهذا يتفق والعادة المتبعة بأقامة المقابر على الاماكن المرتفعة (راجع تصوير رقم ٣ ورسم رقم «٢ أ » ولوحة رقم ٢) .

ل ـ معسكر الاصطبلات

تقع اطلال معسكر الاصطبلات في الضفة الغربية من دجلة على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً من مدينة سامراء الحالية جنوباً ، « وتتألف من حيث الأساس من مستطيل صغير متصل بمستطيل كبير ، يبلغ طول ضلع المستطيل الصغير نحو خمسمائة متر ، وعرضه مائتين وخمسة عشر متراً ، كما يبلغ طول ضلع المستطيل الكبير الفا وسبعمائة متر وعرضه خمسمائة وخمسين متراً ، وان كلا المستطيلين محاطان بسور مدعوم بأبراج ، والمستطيل الصغير مقسم الى سلسلة أحواش منتظمة ، واما المستطيل الكبير فقسم الى ثلاثة اقسام متساوية تفصل بينها أسوار شبيهة بالاسوار الخارجية ، وان المربع الشرقي من هذه الاقسام الثلاثة كامل البناء ، حيث يشاهد فيه شارعان رئيسيان عريضان يتقاطعان من منتصفيهما في اتجاه عمودي على جدران السور وعلى الشوارع الاربعة التي تمتد على طول الاسوار ، والمربعات الاربعة التي تتكوّن على أضلاع هذين الشارعين المتعامدين تنقسم بدورها الى اقسام عديدة بشوارع طولية وعرضية كلها متعامدة أو متوازية ، واما القسم الاوسط من المستطيل الكبير فقليل البناء ، واما القسم الغربي فمحروم من المباني فلا يرى فيه شيء غير خطوط الشوارع ،

ومن الواضح ان الاصطبلات كانت معسكراً كبيراً مع دور للقواد وثكنة للجنود وساحات للخيم »[١] . ومما يلفت النظر ان الاضلاع الجانبية للمستطيلين المذكورين تمتد في اتجاه الشمال الحقيقي تماماً (راجع رسم رقم ٩) .

وكان يحيط بالمعسكر سور خارجي طويل يبدأ في الشمال من حافة نهر دجلة الغربية في المكان المعروف باسم « تل بندري » ، وهو التل الواقع على بعد حوالي عشرة كيلومترات من جنوب مدينة سامراء الحالية[٢]،فيمتد الى مسافة ستة وعشرين كيلومتراً غربي المعسكر ، ثم ينتهي جنوباً الى حافة دجلة الغربية أيضاً عند التل الأثري المعروف باسم «تل مسعود»[٣] الواقع على بعد ثلاثة عشر كيلومتراً من جنوب « تل بندري » . وكان هذا السور محصناً بأبراج عدة في المنعطفات وفي المداخل الرئيسية للمعسكر ، ومن جملة هذه الابراج البرجان

---

(١) نشرة دائرة الآثار العراقية عن سامراء ص ٧٣

(٢) يقع « تل بندري » على حافة (الـكهف) المرتفع الذي يطل على الحاوي المعروف بـ « حاوي الرقة » الذي يسكن فيه عرب صالح الجاسم اليوم . والثابت ان مجرى دجلة كان يسير في وسط هذا الحاوي بمحاذاة (الـكهف) عندما انشيء سور الاصطبلات ، فـكان السور يبدأ عند حافة النهر من مكان « تل بندري » وهو بناء كان يؤلف برجاً منيعاً على رأس السور . اما مكان البرج بالنسبة الى السور والنهر فـكان في الزاوية التي تتكون من الخارج باتصال رأس السور مع ضفة النهر .

(٣) يقع « تل مسعود » على حافة (الـكهف) المرتفع الذي يطل على اراضي « حاوي كبان » المنخفضة ، وهي الاراضي الرسوبية المسماة « اراضي الحوابيج» والتي يسكنها اليوم حسين الحسن وعرب اولاد عبد الواحد دراجي [؟ ، وقد نصبت هناك مكائن ضخ لارواء مزارعها . والثابت ان مجرى النهر كان يسير في وسط هذا الحاوي وان السور كان ينتهي في حافته عند تل مسعود . ويقع البناء الذي في تل مسعود داخل الزاوية التي تتـكون من التقاء السور بمجرى دجلة وتشكل اطلاله شبه مربع يبلغ طول ضلعه حوالي ٨٠ متراً ، وفي شمال التل على بعد حوالي ٤٠٠ متر توجد آثار بناء قديم أيضاً عليه مقبرة يرجح انه جزء من بناء تل مسعود . ومن المحتمل ان يكون سبب تسمية التل بتل مسعود ان احد القائمين بالبناء هناك كان يسمى مسعوداً فسمي باسمه . ومثل ذلك يصح ان يقال عن « تل بندري » الواقع في الشمال .

الواقعان في « تل بندري » و « تل مسعود » وقد انشئا في أول السور وفي منتهاه في مكان اتصالها بحافة نهر دجلة .

اما مساحة أرض المعسكر بما فيها مساحة الثكنات التي داخل السور ، وهي حوالي ٤٢٠ دونماً عراقياً ، (مشارة) فتبلغ ثمانية وخمسون كيلومتراً مربعاً (أي حوالي ٢٣ر٠٠٠ مشارة) .

ويجد القارىء في (رسم رقم ٢ ب) خارطة حقيقية تبين حدود السور الخارجي للمعسكر وحدود الثكنات التي داخل السور وقد رسمت بعد تتبع آثارها وتدقيقها في مواقعها . ويشاهد في الخارطة المذكورة ان السور الخارجي بعد أن يترك « تل بندري » الى يمينه في الزاوية التي يشكلها من الخارج باتصاله مع حافة نهر دجلة يسير جنوباً بانحراف قليل نحو الغرب مسافة ١٢٠٠ متر ، ومن ثم ينعطف نحو الغرب وبعد أن يسير نحو ٦٠٠ متر في الاتجاه الأخير يعرج الى الجهة الجنوبية الشرقية فيسير في هذا الاتجاه زهاء ٧٠٠ متر مشكلاً مثلثاً احدى ضلعيه المستطيلتين في الشمال والأخرى في الجنوب وقاعدته تتكون من الفتحة التي في الشرق بين الضلعين المذكورتين . ويقترب مجرى الاسحاقي الذي ينحدر من الشمال من الزاوية التي في رأس المثلث ومن هنا يلازم السور فيسير بمحاذاته من الخارج حتى نهاية السور في الجهة الجنوبية الشرقية . ويوجد في آخر الضلع الجنوبية المثلث باب رئيسي يواجه « القبلة » ، فتشاهد آثار بناء هذا الباب وآثار قنطرة العبور على نهر الاسحاقي الذي يسير بمحاذاة السور من الخارج . وتشكل بقايا بناء الباب تلاً من انقاض الآجر والجص ، أما قنطرة العبور التي بجانب الباب غرباً فقد استخرج آجرها حتى اعمق نقطة من الأساس . ومن الباب يسير السور نحو الجنوب الشرقي بصورة متعرجة حتى اذا ما قطع مسافة ٥ر٦٠٠ كيلومتراً على هذه الصورة وصل الى جوار الزاوية الجنوبية الغربية لحدود بناء الثكنات المستطيل فيصبح على بعد مائتي متر عن تلك الزاوية . ويوجد

في هـــذه النقطة من السور مدخل رئيسي للمعسكر وللثكنات تقع عنده آثار برج كما تقع على جانبه من الخارج قنطرتا عبور على مجريي نهر الاسحاقي وفرعه اللذين يسيران بمحاذاة السور . وبهذا يشكل بناء الثكنات حاجزاً مستطيلاً يمتد على عرض المعسكر بين نهر دجلة والسور الخارجي للمعسكر، هذا باستثناء فتحة المائتي متر التي بين الركن الجنوبي الغربي للبناء والسور الخارجي للمعسكر . ومن هنا يستمر السور في سيره الى الجنوب الشرقي على شكل شبه قوس حتى اذا قطع مسافة ستة كيلومترات في هذا الاتجاه وصل الى ركن بارز يأخذ السور منه في اتجاهات هندسية مستقيمة في متعرجاته ، فينعطف نحو الجنوب الشرقي فيسير مسافة ٢ر٧٠٠ كيلومتراً في اتجاه مستقيم ثم يميل الى الشرق فيسير في اتجاه مستقيم هندسي أيضاً مسافة ١ر٩٠٠ كيلومتراً ، ومن ثم ينحرف الى الشمال الشرقي في اتجاه مستقيم فيسير مسافة ٣ر٠٠٠ كيلومتراً في هذا الاتجاه . ويقع على هـــذه الضلع الأخيرة مدخلان للمعسكر يشاهد الى جانبهما آثار ابراج لحماية المدخلين المذكورين . ويصبح المعسكر عند هذين المدخلين في أوسع ساحاته بالنسبة الى المسافة التي تمتد عرضاً بين نهر دجلة والسور الخارجي ، حيث تبلغ هذه المسافة زهاء سبعة كيلومترات. وفي نهاية الضلع الاخيرة يعرج السور الى الشمال بانحراف قليل الى الغرب راجعاً الى حافة نهر دجلة فيشكل زاوية قائمة داخلها آثار برج كبير، فيسير في اتجاه مستقيم مسافة ٠ر٢٠٠ كيلومتراً وينتهي في حافة مجرى دجلة عند « تل مسعود » الواقع داخل الزاوية التي يشكلها السور باتصاله مع حافة نهر دجلة .

ويعترض السور في اتجـاهه الاخير نهر دجيل الحالي فيقطعه على مسافـة كيلومتر واحد من « تل مسعود » جنوباً كما يعترضه أيضـاً خط سكة حديد بغداد ـ سامراء وطريق بغداد ـ سامراء العام فيقطعانه على بعد حوالي كيلومتر من نهر دجيل جنوباً .

ويتصل السور عند رأس الزاوية القائمة التي تشكلها الضلع الاخيرة المتجهة نحو دجلة مع الضلع التي قبلها بجدار مرتفع يعرف بـ «عركوب المطبّك» ، وهو جدار ضخم قديم مبني باللبن ومحصّن بابراج ضخمة يرجع الى ماقبل عهد العرب ، فكان يبدأ من ضفة نهر دجلة الغربية من قرب امام الخضر الحالي ثم يمتد في الجهة الجنوبية الغربية نحو أرض الجزيرة التي بين دجلة والفرات . ويوجد خلف الجدار من الجهة الغربية خندق عميق يسير الى محاذاة الجدار ، ويظهر ان هذا الخندق كان يستمد المياه من ضفة نهر دجلة اليمنى فيؤلف حاجزاً مائياً خلف الجدار . وقد ظنّ المؤرخون والكتاب الافرنج بان هذا الجدار هو « سور الميديين » الذي ورد ذكره في الكتب اليونانية القديمة ، وسيأتي البحث عن ذلك في الفصل الثاني عندما نتطرق الى تطورات « سد عرود » ومنشئه .

وكان نهر الاسحاقي الذي انشأة المعتصم يأتي من الشمال فيسير بمحاذاة سور معسكر الاصطبلات غرباً وجنوباً ثم بعد ان يقطع « جدار المطبّك » وخندقه يسير شرقاً حتى ينتهي في نهر دجيل القديم فيصب فيه[1] . ونهر دجيل هو النهر القديم الذي يقع شرقي «جدار المطبّك» والذي يسميه الاهلون «عركوب الفرحاتية» وكان يتفرع من ضفة دجلة الغربية شرقي «تل مسعود» فيسير في الجهة الجنوبية الشرقية في وسط الجزيرة التي بين دجلة والفرات حتى ينتهي في منخفض عقرقوف ، وسيأتي البحث عن هذا المشروع العظيم في الفصول التالية[2] . ولاحاطة السور بخندق من المياه من أطرافه كافة فتح في شماله فرع من الضفة اليسرى من نهر الاسحاقي في نقطة تقع مقابل « تل بندري » فيسير خلف السور في قسمه الاعلى الذي يمتد مابين نهر الاسحاقي ودجلة ثم ينصب في دجلة .

وهكذا احيط المعسكر بالمياه من كل اطرافه ، فنهرا دجلة ودجيل يحدانه من

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن مشروع نهر الاسحاقي في صفحة ٧٩

(٢) راجع الفصلين الثالث والحادي عشر .

الشمال والشرق ، ونهر الاسحاقي يحدّه من الجنوب والغرب ، ويحده في اقصى الشمال الفرع الذي يمتد مابين نهر الاسحاقي ونهر دجلة امام « تل بندري » (راجع رسم رقم ٢ ب) .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان القدماء كانوا يحرصون الحرص كله على ان يجعلوا تحصيناتهم محاطة بحواجز من المياه على شكل خنادق عميقة تملأ بالمياه فيصعب عبورها بدون واسطة عبور أو سباحة ، لذلك نجد أن أكثر الأسوار والجدران القديمة التي نشاهدها في مختلف انحاء العراق ، ولا سيما تلك التي ترجع الى ماقبل عهد العرب ، تحاذيها خنادق عميقة لتحقيق هذا الغرض .

وكان نهر الاسحاقي عدا احاطته سور معسكر الاصطبلات بحاجز مائي يموّن المعسكر بالمياه ، ولتحقيق هذا الغرض كانت هناك ثلاثة فروع رئيسية تتفرع من ضفته اليسرى فتخترق المعسكر ثم يصب بعضها في نهر دجلة والبعض الآخر في نهر دجيل الواقع في الجنوب. فالفرع الأول، وهو الفرع الشمالي ، كان يتفرع في نقطة تقع على بعد حوالي كيلومترين من جنوب شرقي المدخل الرئيسي للمعسكر،وهو المدخل الواقع في القسم الشمالي من السور الخارجي،فيخترق السور من تحته ، وبعد ان يمتد عرض المعسكر في القسم الواقع شمال غربي بناء الثكنات يصب في دجلة ويلي هذا الفرع الفرع الأوسط،وهو الفرع الذي كان يتفرع من نهر الاسحاقي في نقطة تقع على بعد ١٨٠٠ متر من جنوب شرقي صدر الفرع الشمالي ، فيخترق السور من تحته ثم يتجه الى جهة الثكنات فيدخلها من الناحية الشمالية،وبعد ان يخترقها يصب في دجلة أيضاً . وهناك ناظم خاص انشيء على نهر الاسحاقي في جنوب فوهة هذا الفرع مباشرة لحجز المياه امام الناظم وتحويلها بمنسوب عال الى الفرع المذكور . ويشتمل هذا الناظم على ثلاث فتحات ، ولا تزال آثاره ظاهرة في جنوب مأخذ الفرع مباشرة ، وقد استخرج آجر البناء الى حد الأساس بحيث ظهرت معالم الاساسات بكل وضوح ، فغدت أشبه

شيء بالحفائر الهندسية التي تحفر عادة قبل بناء أساسات الناظم . وفي جنوب هذا الناظم، على مسافة حوالي نصف كيلومتر من موضعه يتفرع الفرع الثالث ، وهو الفرع الجنوبي، فيسير بين نهر الاسحاقي وبين سور المعسكر مسافة ٥٨٠٠ متر ثم يدخل المعسكر من تحت سوره الخارجي فيخترق قسمه الجنوبي الشرقي ويخرج من تحت السور أيضاً الى خارج المعسكر بالقرب من ملتقى السور بجدار المطبك فيخترق جدار المطبك وخندقه ثم يتجه نحو نهر دجيل القديم فيصب فيه على مسافة حوالي أربعة كيلومترات ونصف كيلومتر من مقدم مصب نهر الاسحاقي في نهر دجيل. وهناك ناظم ثان انشيء على نهر الاسحاقي في جنوب مأخذ الفرع الجنوبي هذا مباشرة لحجز المياه أمام الناظم وتحويلها بمنسوب عال الى الفرع المذكور، كما انشيء ناظم في فوهة هذا الفرع لتنظيم المياه التي تدخل اليه . ويستدل من آثار الناظمين المذكورين ان الناظم الواقع على نهر الاسحاقي يتألف من فتحتين والناظم الواقع في فوهة الفرع من فتحة واحدة . وقد انشئت على بعد مسافة قصيرة من جنوب فوهة هذا الفرع قنطرتان للعبور عند المدخل الى الثكنات احداها على نهر الاسحاقي ، وهي ذات فتحتين، والاخرى على الفرع وتشتمل على فتحة واحدة .

ومما يلفت النظر ان قسماً كبيراً من أراضي المعسكر كان يستعمل لاحداث مراع اصطناعية لجياد الجيش الامبراطوري ، واما القسم المبني ضمن السور الداخلي فكان معداً لسكنى الجنود والضباط . وكان بعض أراضي المعسكر وخاصة القسم الجنوبي الشرقي الذي يشكل أوسع بقعـــة داخل المعسكر (راجع رسم رقم ٢ ب) يغمر بالمياه من فروع نهر الاسحاقي المار ذكرها فيتكون بذلك المرعى المطلوب ، وهو ما نسميه « الجاير » . وكانت هذه الطريقة متبعة في القطر العراقي منذ أقدم الأزمنة وقد استمر استعمالها في المقاطعات الواسعة حتى شرع في تنظيم الري وسن قانون الري والسداد العراقي الذي يمنع احداث مثل هـذه

المراعي في الاراضي الزراعية . واذا تصورنا وضع هذه الجياد وهي ترعى رعي الاغنام فيداخل سور المعسكر اتضحت لنا ضرورة تحقيق مشروع النهر الذي يفضي الى المعسكر لتأمين مياه الشرب لتلك الجيـاد فلا يضطر الجنود الى نقل مياه الشرب اليها من نهر دجلة .

بقي علينا ان نبحث عن تاريخ انشاء هذا المعسكر وعمن قام بأنشائه ، وهل كان من عمل المعتصم أو من عمل المتوكل أو غيره من خلفاء سامراء ؟ ... واذا رجعنا الى المدونات التاريخية فاننا لا نجد فيها ما يوصلنا الى اية معلومات صريحة في هذا الصدد ، لذلك كان لزاماً علينا ان نستند الى نتائج التتبعات العملية حول صلة المعسكر بالاعمال الاخرى في سامراء ، ولما كان مشروع نهر الاسحاقي أوثق دليل يستند اليه في التوصل الى معرفة العهد الذي انشيء فيه المعسكر ، وكان هذا المشروع (نهر الاسحاقي) قد انشيء في عهد المعتصم، جاز لنا ان نستخلص من ذلك ان معسكر الاصطبلات كان من عمل المعتصم أيضاً بدليل ان فروع النهر كانت تفضي الى المعسكر. والظاهر ان من أهم الاغراض التي كان نهر الاسحاقي يرمي الى تحقيقها اقامة نهر جار على محاذاة السور الخارجي للمعسكر لتقوية وسائل التحصين خلف السور ، وذلك بحسب القاعدة العسكرية التي كانت متبعة في ذلك الوقت، واعني انشاء الخنادق خلف الاسوار وأملائها بالمياه لتكون حواجز مائية تحول دون الوصول الى تلك الاسوار .

بقي علينا ان نتساءل الآن ، هل كان انشاء المعسكر أثناء اقامة المعتصم في القاطول أي أثناء شروعه في بناء عاصمته في القادسيـة التي تقع أمام معسكر الاصطبلات في الجانب الايسر من دجلة (١) ، أم انه كان بعد عدول المعتصم عن فكرة انشاء المدينة في القاطول وانتهائه الى موضع سامراء؟؟. فاننا نرى ان المعتصم

(١) راجع البحث التالي الخاص بموضوع القادسية والقاطول في الفصل الرابع

شرع في بناء هذا المعسكر أثناء مكوثه في القاطول وبعد ان انتقل الى موضع سامراء واتجهت نيته الى بناء العاصمة هناك ارتأى ضرورة الاستفادة من موضع هذا المعسكر المنعزل فاضاف اليه سوره الخارجي كما انه أنشأ نهر الاسحاقي لتموينه بالمياه واحداث المراعي للجياد واحاطة السور بخندق من المياه . ودليلنا على ماتقدم وجود كهاريز وسط بناء الثكنات يستدل منها على ان المعتصم قبل ان يفتح نهر الاسحاقي كان قد استعان ببعض الكهاريز التي تستمد مياهها من الينابيع الواقعة في منطقة الجزيرة غربي المعسكر لايصال المياه الى داخل المعسكر.

ويرى السيد أمير علي صاحب كتاب «مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي» ان المعتصم هو الذي شيد معسكر الاصطبلات ليستوعب جياد الجيش الامبراطوري وقد كان عددها ١٦٠ الف حصان(١) .

والذي يلفت النظر ان المستر لاين صاحب كتاب « المشاكل البابلية » يذهب الى ان آثار نهر الاسحاقي واطلال معسكر الاصطبلات وما هنالك من بقايا أبنية قديمة في هذه المنطقة انما تعود الى العهد البابلي وانها كانت تحصينات تتصل بمشروع « سد نمرود » القديم ، ويضيف الى ذلك قوله ان ماذكره المؤرخون العرب عن انشاء نهر الاسحاقي في عهد المعتصم غير صحيح ويورد مثالاً لاخطاء الجغرافيين القدماء في وصفهم للجداول القديمة منها ماذكره ابن سرابيون من ان نهر دجيل كان يتفرع من نهر الفرات .

رأي هرزفلد في الاصطبلات

ومن الغريب ان يرى هرزفلد في آثار الاصطبلات الرأي الذي ابداه في كتاب أرسله الى المؤلف بتاريخ ٢٩ آب ١٩٤٧ انه يحتمل أن تكون هذه الآثار من بقايا اطلال قصر العروس الذي ورد ذكره في كتب المؤرخين من العرب،

(١) راجع الترجمة العربية بقلم رياض رأفت ص ٢٤٣

مستنداً في رأيه هذا الى ماجاء في كتاب الاغاني من وصف رحلة نهرية قام بها المتوكل يصحبه ولاة العهود من سامراء الى قصر العروس.وفيما يلي ترجمة كلامه هذا ، قال:« اما اطلال الاصطبلات فمن الصعب التوصل الى تشخيص ما كانت عليه اذا استندنا الى المدونات التاريخية،ولكن من المحتمل ان تكون بقايا قصر العروس الكبير فقد جاء في الاغاني(٩ : ٣٢) ان جماعة من المحتفلين ابحروا من جسر سامراء نهر أحتى وصلوا الى هذا القصر الامر الذي يدل على ان القصر كان على الضفة الغربية، وكان قد كلف انشاء هذا القصر مبلغاً كبيراً كما ذكر ياقوت (١٧:٣) لذلك يحتمل انه كان أوسع قصور سامراء »(١)

اما وصف الاغاني الذي أشار اليه هرزفلد فهذا نصه : « أخبرني حنظلة قال حدثني ميمون بن هرون قال : لما عقد المتوكل لولاة العهود من ولده ركب بسر من رأى ركبة لم ير احسن منها وركب ولاة العهود بين يديه والاتراك بين ايديهم أولادهم يمشون بين يدي المتوكل بمناطق الذهب في ايديهم الطبرزينات المحلاة بالذهب ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجوانحيات وسائر السفن وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العروس وأذن للناس فدخلوا اليه فلما تكاملوا بين يديه مثل أبراهيم بن العباس بين الصفين فاستأذن في الانشاد فأذن له فقال :

ولما بدا جعفر في الخميس ... بين المطل وبين العروس

فيتضح من النص المذكور انه ليس فيه أية اشارة أو دليل على ان قصر العروس كان في الجهة الغربية من دجلة أو انه كان جنوبي سر من رأى أو

---

(١) فيما يلي نص كلامه بالانكليزية : —

«Istablat is difficult to identify with any literary notice, but it is possibly the very large Qasr al-Arus (al-Aghani 9, 32) where a great procession sails from the Samarra bridge down river, to this castle which therefore was on the western bank. It was the most expensive (Yakut 3, 17) hence probably the largest.

شماليها . ولا ندري كيف توصل هرزفلد الى الرأي الذي تقدم ذكره في حين ان كل مافي الاصطبلات من الآثار ينطق بكونها ثكنات للجيش ، وقد يكون في القسمية وحدها المتوارثة حتى اليوم ، أي الاصطبلات ، كفاية للدلالة على انها كانت اصطبلات الجيش العباسي .

٥ — المرحلة الثانية لانشاء مدينة سامراء – عهد المتوكل

بحثنا فيما تقدم عن المرحلة الأولى لانشاء مدينة سامراء التي تنحصر في عهدي المعتصم والواثق ، ونبحث الآن عن المرحلة الثانية التي ترجع الى عهد المتوكل[1] ، وهو العهد الذي دام خمسة عشر عاماً بين سنة ٢٣٢هـ (٨٤٦م)

---

(١) هو جعفر بن محمد بن هرون ولقب بالمنتصر بالله ثم لقبه احمد ابن ابي دواد المتوكل على الله ويكنى بأبي الفضل . ولد في شوال سنة ست ومائتين للهجرة وبويع له يوم وفاة أخيه الواثق في ٢٤ذي الحجة عام ٢٣٢ هـ . وقد سماه بعض الكتاب « نيرون العرب » لشدة بأسه وتصرفاته الجائرة ، ومن جملة اعماله انه اقصى أحرار الفكر عن وظائف الدولة وعطل المحاضرات التي كانت تلقى في العلم والفلسفة واصدر امره بترك المباحثات والمناظرات وامر الناس بالتمسك بالتقليد . ويقال انه لم يكتف باضطهاد احرار الفكر حسب ، بل اوغل أيضاً في اضطهاد الذميين الذين قاسوا في خلال حكمه أشد ضروب الجور والايذاء ، اذ اقصاهم عن وظائف الدولة وحرمهم جميع الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عهد اسلافه . وبلغ به كرهه للعلويين ان هدم في سنة ٢٣٦ هـ قبر الحسين (ع) بكربلا . وقضى في عهد خلافته على المعتزلة وهم اصحاب مذهب الاعتزال الذي كان قد نشأ في عهد المأمون (راجع ماتقدم عن موقف المعتصم من هذا المبدأ في صحيفة ٤٧ حاشية ١) .

وعلى العموم ان عهد المتوكل يعد بداية انحلال الامبراطورية العربية وتسرب الفساد في جسم الدولة ، وقد انتهز الروم فرصة انتشار هذه الفوضى واستأنفوا حروبهم ، فأغاروا على دمياط من اعمال مصر ثم غزوا كليكيا واسروا منها خلق كثير وذبحوا ١٢٠٠٠ بعد ان مثلوا بهم شر تمثيل بأمر الامبراطورة «تيودورة» ولم ينج من هذا الاعتداء الا من اعتنق المسيحية . ولما بلغت تصرفات المتوكل حداً لايطاق تآمر عليه القواد الاتراك فقتلوه وهو ثمل في قصره بالمتوكلية (أي في قصر الجعفري) وكان ذلك ليلة ٣ شوال عام ٢٤٧ هـ ، ودفن في القصر الجعفري . ويقال ان ابنه المنتصر كان يعلم بسر المؤامرة التي دبرت لقتله ، والمعروف انه لم يكن راضياً عن تصرفات أبيه الجائرة .

و٢٤٧ هـ (٨٦١ م) . لقد امتاز عهد المتوكل بكثرة المشاريع العمرانية التي اقيمت في عاصمته وبجسامة النفقات التي بذلت في هذا السبيل ، فقد كان للمتوكل ولع خاص بهذه المشاريع،ففي عهده انشئت عدة قصور فخمة وعدة مشاريع للري ، كما انشئت في هذا العهد أيضاً « مدينة المتوكلية » في اقصى الشمال[1] ، واختطت شوارع جديدة منهـــا الشارع الاعظم الذي انشىء بعرض حوالي مئة متر وطول ١٢ كيلومتراً تقريباً . وعلى العموم ان مدينة سامراء بلغت أوج ازدهارها وتوسعها في هذا العهد الذي يصح ان يعد العصر الذهبي لعاصمة الامبراطورية العباسية من حيث عمرانها وتنسيقها .

ومما ذكره ياقوت في معجمه عن الحركة العمرانية في عهد المتوكل قال : « ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل مابناه المتوكل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس انفق عليه ثلاثين الف الف درهم والقصر المختار خمسة آلاف الف درهم والوحيد الفي الف درهم والجعفري المحدث عشرة آلاف الف درهم والغريب عشرة آلاف الف درهم والشيدان عشرة آلاف الف درهم والبرج عشرة آلاف الف درهم والصبيح خمسه آلاف الف درهم والمليح خمسة آلاف الف درهم وقصر بستان الايتاخية عشرة آلاف الف درهم والتل علوه وسفله خمسة آلاف الف درهم والجوسق في ميدان الصخر خمسمائة الف درهم والمسجد الجامع خمسة عشر الف الف درهم وبركوان (بركوارا) للمعتز عشرين الف الف درهم والقلائد خمسين الف دينار وجعل فيها أبنية بمائة الف دينار والغرد في دجلة الف الف درهم والقصر بالمتوكلية وهو الذي يقال له الماحوزة خمسين الف الف درهم والبهو خمسة وعشرين الف الف درهم واللؤلؤة خمسة آلاف الف درهم فذلك الجميع مائتا الف الف واربع وتسعون الف الف درهم » .

ويستدل مما تقدم ان مجموع ما انفقه المتوكل على قصوره بلغ ثلثمائة مليون

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بانشاء مدينة المتوكلية في هذا الفصل .



الخليفة المتوكل على الله

(٢٣٢-٢٤٧هـ)

درهم ، أي حوالي اثنى عشر مليون دينار باعتبار ان الدراهم كانت في أيام المتوكل كل خمسة وعشرين درهماً بدينار . ويؤيد المسعودي بهاظة النفقات التي بذلها المتوكل في سبيل مشروعاته العمرانية في سرّ من رأى إذ يقول: « وقد قيل انه لم تكن النفقات في عصر من الاعصار ولا وقت من الاوقات مثلها في أيام المتوكل »

وذكر المسعودي في « مروج الذهب » ان « المتوكل احدث في ايامه بناء لم يكن الناس يعرفونه، وهو المعروف بالحيري والكمين والاروقة وذلك ان بعض سماره حدثه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى قصراً احدث بنياناً في دار قراره ، وهي الحيرة ، على صورة الحرب وهيئته للهجته بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر احواله ، فكان الرواق مجلس الملك وهو الصدر، والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفي اليمين منها خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والابواب الثلاثة على الرواق ، فسمي هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيري والكمين ، اضافة الى الحيرة واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله واشتهر الى هذه الغاية » . ويحتمل ان يكون قصر الحير الذي وصفه ياقوت بقوله انه « اسم قصر كان بسامراء انفق على عمارته المتوكل أربعة آلاف الف درهم ثم وهب المستعين انقاضه لوزيره احمد بن الخصيب فيما وهبه له » قد سمي بهذه التسمية لطرز بنائه الحيري المتقدم الذكر .

أ ـ شارعا الاسكر (العسكر ؟) والحير الجديد

وقد وسع المتوكل مدينة سرّ من رأى من الشرق والجنوب والشمال ،ففتح من الشرق شارعين خلف « شارع برغامش التركي »(١) ، الشارع الأول، وهو

(١) راجع البحث الذي تقدم عن هذا الشارع في الصفحتين ٦٥ و ٦٦

المجاور لشارع برغامش يسمى « شارع صالح العباسي » ، وهو « شارع الاسكر (العسكر ؟) « فيه قطائع الاتراك والفراغنة والاتراك أيضاً في دروب منفردة والفراغنة في دروب منفردة ممتد من المطيرة الى دار صالح العباسي التي على رأس الوادي ويتصل ذلك بقطائع القواد والكتاب والوجوه والناس كافة »[١]. وعلى الارجح ان المقصود بـ « رأس الوادي » رأس « وادي اسحق بن ابراهيم » الذي تقدم البحث عنه[٢]. أما الشارع الثاني الذي خلف « شارع الاسكر » ، فيقال له « شارع الحير الجديد » فيه اخلاط من الناس من قواد الفراغنة والاسروشنية والاشتاخنجية وغيرهم من سائر كور خراسان »[٣] . وبذلك بلغ عدد الشوارع الموازية لنهر دجلة على طول مدينة سامراء سبعة شوارع ، أولها من جهة الغرب « شارع الخليج » وآخرها من جهة الشرق « شارع الحير الجديد » .

وكانت الشوارع الاربعة الاخيرة ، وهي « شارع الحير الأول » و« شارع برغامش التركي » و « شارع الاسكر » و « شارع الحير الجديد » تسمى « طرق الحير » .

ب ـ حائر الحير[٤]

كان المعتصم قد بنى حائطاً في نهاية الأبنية من جهه الشرق سماه « حائر الحير »

---

(١) انظر « كتاب البلدان » لليعقوبي (طبعة النجف) ص ٢٩

(٢) انظر البحث الذي تقدم عن هذا الوادي في صفحة ٦٢

(٣) انظر « كتاب البلدان » لليعقوبي ص ٢٩

(٤) قال ياقوت ان الحائر هو في الأصل حوض يصب اليه مسيل الماء من الامطار سمي بذلك لان الماء يتحير فيه يرجع من اقصاه الى ادناه ... وقال الاصمعي يقال للموضع المطمئن الوسط المرتفع الحروف حائر وجمعه حوران واكثر الناس يسمون الحائر الحير . . . وقال أبو القاسم علي بن حمزة البصري راداً على ثعلب في الفصيح قيل الحائر لهذا الذي يسميه العامة حيرا وجمعه حيران وحوران .

وكان الحائط ممتداً على طول حدود البناء الخارجية بين «الجوسق» و «المطيرة»، واحتفظ بالسهل الواسع الذي في ظهر سر من رأى شرقاً. الا انه لما اتسعت حدود البناء في تلك الجهة على عهد المتوكل انشىء حائط غيره على الحدود الجديدة للبناء التي في ظهر « شارع الحير الجديد » . فكان هذا الحائط يحد الاراضي المنبسطة الواسعة الواقعة الى شرقيه وهذه سميت بـ «ساحة الحير» نسبة الى «حائر الحير» والى طرق الحير التي تمتد على محاذاته(١) . ولا تزال آثار هذا الحائط تشاهد في جنوب شرقي مدينة سامراء الحالية فتمتد من قرب « وادي الموح » الواقع جنوبي مدينة سامراء الحالية مباشرة في خط هندسي مستقيم الى الجهة الجنوبية الشرقية حتى تتصل بالركن الجنوبي الغربي لسور حديقة المتوكل للوحوش(٢) ، فيتكوّن باتصال هذين الحائطين مثلث رأسه في نقطة اتصال الحائطين وضلعاه « حائط الحير » من جهة الشرق وحائط حديقة الحيوانات من جهة الغرب (راجع الرسم رقم ١٣ واللوحة رقم ٢)

وكان على هذا الحائط باب رئيسي يقع في ظهر مدينة سامراء الحالية جنوبي المسجد الجامع الكبير المعروف بـ « مسجد الملوية »(٣) فيصل مدينة سر من رأى وقصورها الرئيسية بساحة الحير الواقعة خارج المدينة شرقاً ، وكان يعرف هذا الباب باسم « باب الحير » . وقد ذكر الطبري « باب الحير » هذا في عدة مناسبات فيما كتبه عن الحوادث التاريخية في سامراء العباسية فقال انه يقع مما يلي « الجوسق »(٤) وما يلي « قبلة المسجد الجامع »(٥)

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بساحة الحير في هذا الفصل .
(٢) راجع البحث التالي الخاص بحديقة المتوكل للوحوش في هذا الفصل وفي الفصل السادس.
(٣) راجع البحث التالي الخاص بالمسجد الجامع الكبير في هذا الفصل .
(٤) حول الجوسق انظر ما تقدم في صفحة ٧٤
(٥) راجع الطبري (٣ : ١٤٧٢ ـ ١٤٧٥ ، ١٧٨٧ ـ ١٧٨٩ ، ١٨٠٢ ، ١٨٠٤ ، ١٨١٠)

وقد ورد ذكر « حائط الحير » فيما دونه المؤرخون عن بعض الحوادث التاريخية المتصلة بذلك العهد ، فسمي باسم « حائطي الحير » مما يدل على انه كان حائطان ينفصل أحدهما عن الآخر ، فروي الطبري حادث أسر بابك وذهاب المعتصم متنكراً الى المطيرة ليزور الافشين على أثر رجوعه من حملته قال « ان المعتصم ركب اليه بين الحائطين في الحير فدخل عليه متنكراً الخ ... »[١] وقال أيضاً انه لما مات احمد بن اسرائيل سنـة ٢٥٥ هـ دفن بين الحائطين[٢] . وجاء ذكر الحائطين أيضاً فيما رواه الطبري عن بعض الحوادث التي تتصل بعهد المهتدي .

ج – المسجد الجامع الـكبير

وانشأ المتوكل في حدود الحير خارج البناء مسجداً جامعاً واسعاً ليحل محل الجامع القديم الذي كانـ قد انشأه المعتصم على شارع السريجة والذي على حد قول اليعقوبي ضاق بالناس فهدمه المتوكل وبنى عوضاً عنه هذا الجامع الكبير[٣] .

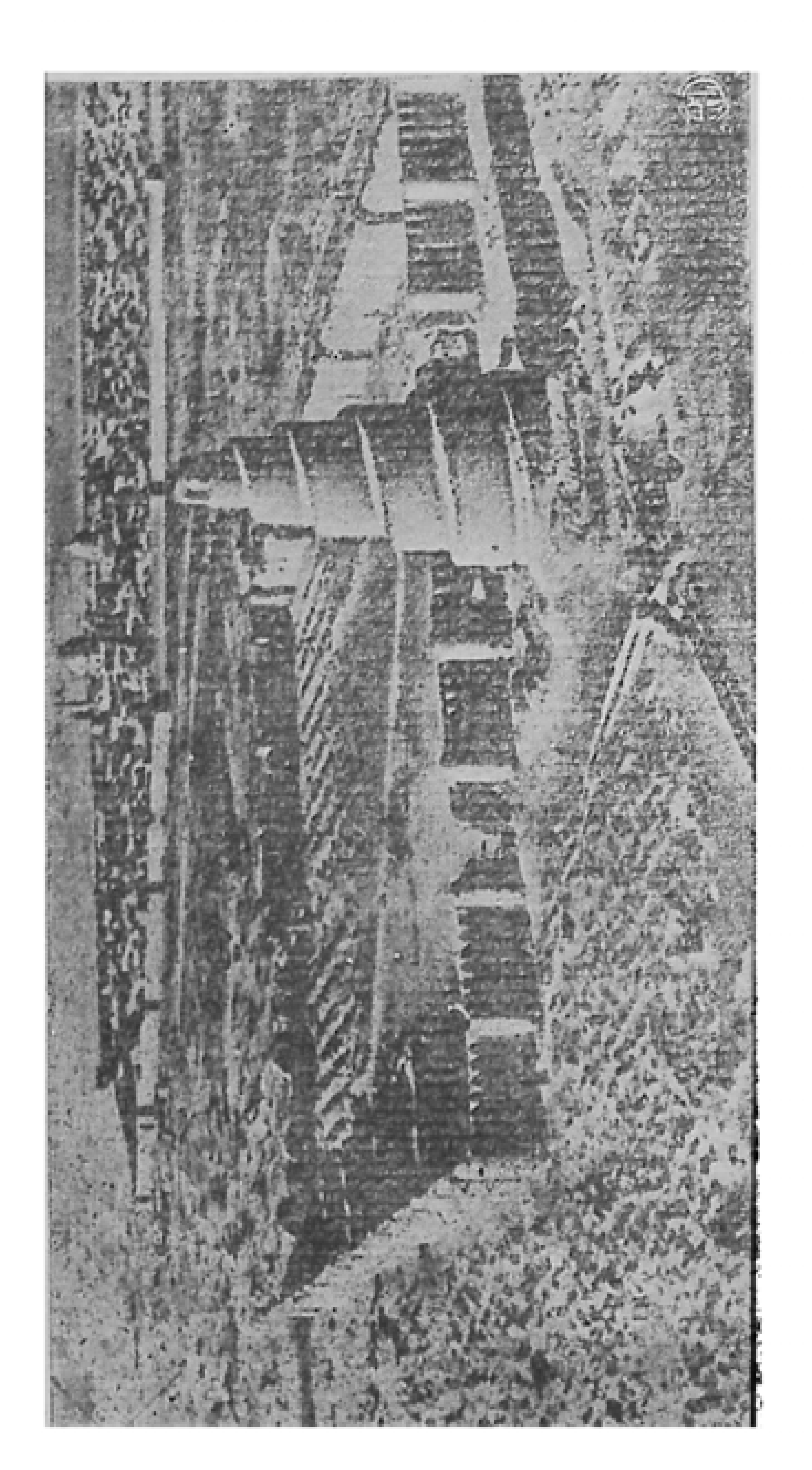
وقد ذكر ياقوت في معجمه ان المتوكل « اقطع الناس في ظهر سرّ من رأى في الحير الذي كانـ احتجره المعتصم واتسع الناس بذلك وبنى مسجداً جامعاً فاعظم النفقة عليه وأمر برفع منارة لتعلو اصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر اليها من فراسخ فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول » . وقريب من هذا ما رواه البلاذري ونصه : « لما استخلف المتوكل هارون الواثق بالله في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين فاقام بالهاروني وبنى بناء كثيراً وأقطع الناس في ظهر سرّ من رأى بالحائر الذي كان المعتصم بالله احتجره بها قطائع فاتسعوا بها وبنى مسجداً جامعاً كبيراً واعظم النفقة عليه وأمر برفع منارته لتعلو أصوات المؤذنين فيها حتى نظر اليها من فراسخ ، فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول » .

---

(١) راجع الطبري (٣ : ١٢٣٠)

(٢) الطبري (٣ : ١٧٢٣)

(٣) راجع ماتقدم في صفحة ٦٤



تصوير رقم ٥ـ مدينة سامراء الحالية وبقايا الجامع الكبير ومئذنة الملوية (صورة جوية)

ويشاهد المرء آثار المسجد الجامع هذا مع مئذنته المعروفة باسم « الملوية » شمالي شرقي مدينة سامراء الحديثة مباشرة، وهي تعد من أهم الآثار الماثلة للعيان من مدينة سامراء القديمة، ويمتاز هذا الجامع مع مئذنته عن بقية الجوامع بفسحته وضخامته وبمئذنته الغريبة . اما بناء الجامع فلم يبق منه غير جدرانه الخارجية التي تحيط بساحة مستطيلة طولها نحو ٢٤٠ متراً وعرضها ١٥٨ متراً. ويبلغ ارتفاع الجدران زهاء عشرة امتار وثخنها حوالي المترين وهي مبنية بالآجر . وقد دعمت هذه الجدران من خارجها بأبراج نصف دائرية وعددها اربعون برجاً (راجع رسم ٣ ولوحة رقم ٧ وتصوير رقم ٥) .

وكان في جدران المسجد واحد وعشرون باباً تختلف سعة كل منها باختلاف الموقع من الحيطان ، فتبلغ سعة أكبرها ٤٫٧٥ متراً وسعة اصغرها ١٫٥٠ متراً. ومن هذه الابواب خمسة في الضلع الشمالية لحائط المسجد وثمانية في كل من الضلعين المستطيلتين اللتين في الشرق والغرب ، وتتفق مواقع الابواب في الحائط الشرقي مع مواقع أبواب الجانب الغربي . اما الضلع الجنوبية فلا يوجد فيها غير المحراب الذي يواجه «القبلة» . وقد اختيرت مواقع الابواب بحيث تتفق ونظام الاروقة في حرم المسجد .

ويستدل من استكشافات هرزفلد على انه كان في حرم المسجد ٢٥ رواقاً الاوسط منها اكثر اتساعاً من البقية و ٢٤ صفاً من الاعمدة في كل منها عشرة عمد ، هذا عدا الايوان الشمالي وفيه ٢٤ صفاً من الاعمدة في كل صف منها ثلاثة عمد والرواقين الجانبيين في كل منها ٢٢ صفاً من الاعمدة في كل صف منها أربعة عمد . وبذلك تتكون جملة عدد الاعمدة ٤٨٨ عموداً . وكانت السقوف ترتكز على العمد مباشرة دون طيقان من البناء .

اما المحراب فهو مستطيل اذ يبلغ عرضه ٢٫٥٩ متراً وعمقه ١٫٧٥ متراً ، وكان يحف به من الجانبين زوجان من اعمدة الرخام وردية اللون ذات قواعد وتيجان

على شكل الساعة كانت قد جلبت من عينتاب . وكان يرتكز على هذه الاعمدة عقدان رأسيان (Pointed) يضمها أطار مستطيل يرتفع بارتفاع المسجد .

وكان في وسط صحن المسجد فوّارة عظيمة وهي التي ذكرها اليعقوبي بقوله « وجعل فيه (أي المسجد) فوارة ماء لاينقطع ماؤها » ، ووصفها المستوفي بانها كانت من قطعة واحدة من الحجر محيطها ٢٣ ذراعاً وارتفاعها سبعة اذرع وثخنها نصف ذراع وكانت تعرف بـ « كأس فرعون ». وروى المستوفي أيضاً ان مئذنة المسجد كان ارتفاعها ١٧٠ ذراعاً يرقى اليها من الخارج وهي منفردة في طرازها ولم يبن نظيرها من قبل . وقد عزا المستوفي بناء الفوارة والمئذنة الى المعتصم على ان المصادر التاريخية تشير الى انها تعود الى عهد المتوكل .

وقد اثبتت حفريات هرزفلد ان الاساس الاسطواني لقاعدة الفوّارة كان مبنياً بالطوب ومونة الجير والرماد. اما كأسها فكانت مرتكزة على قاعدة مكسوّة بالرخام وقد عثر بجوار الفوارة خارج الاساس الاسطواني على قطع من اعمدة الرخام والتيجان وعلى زخارف جصية منقوشة ومذهّبة ومحلاة بالفسيفساء الزجاجية . ولذلك يظن أن قد كانت هناك سقيفة من الخشب محمولة على دائرة من الاعمدة مرفوعة فوق هذه النافورة المسماة « كأس فرعون » .

وقد ثبت لنا من تدقيقاتنا ان الفوّارة هذه كانت تستمد مياهها من القناة التي انشأها المتوكل لايصال المياه الى مدينة سرّ من رأى ، وهي القناة التي كانت تبدأ من شمالي الدور فتسير الى مسافة حوالي أربعين كيلومتراً حتى تصل الى قلب العاصمة[1]

ويستدل من حفريات هرزفلد في منطقة المسجد على انه كان يحيط بالمسجد سور عظيم من الآجر من جوانبه الشرقية والغربية والجنوبية، وكان يحيط بهذا المستطيل

(١) راجع البحث التالي الخاص بهذه القناة في الفصل الخامس

المعظم من جوانبه الاربعة سور آخر يفصله عن السور الاول فضاء مكشوف عظيم الاتساع في الشرق والجنوب والغرب واكثر ضيقاً في الشمال . ويتضح من حفريات هرزفلد في سنة ١٩١٢-١٩١٣ ان اضلاع السور الخارجي كانت تبلغ ٣٧٦ X ٤٤٤ متراً اي ان مساحة المسجد والزيادات التي في خارجه كانت تربى على ١٧ هكتاراً أو اكثر من ٦٨ دونماً عراقياً (مشارة) .

اما المئذنة الملوية فتقع على بعد ٢٥ متراً من حائط المسجد الشمالي، وعلى محوره الاوسط تماماً، وطول ضلع قاعدتها المربعة ٣٢ متراً وهي تتصل بالمسجد باساس عرضه ١٣ متراً ، وتعلو هذه القاعده مئذنة حلزونية ذات مرقى سعته ٥٠ر٢ متراً يبدأ من وسط الجانب الجنوبي للقاعدة ويدور في اتجاه عكس عقارب الساعة حتى تتم دورات خمس . ويعتقد هرزفلد ان هذا المرقى كان به قديماً ستائر خشبية لان بالدرجات ثقوباً يظن انها عملت لتثبيت قوائم هـذه الستائر الخشبية وترتفع قمة المئذنة عن القاعدة المذكورة بمقدار خمسين متراً . وفي القمة ثمانية ثقوب استنتج هرزفلد من وجودها انه ربما كانت تغطي هذا الموضع سقيفة مرفوعة على ثمانية اعمدة خشبية مثبتة في هذه الثقوب(١)

ويتفق علماء الآثار بان فكرة بناء مئذنة ذات مرقى حلزوني كالمئذنة التي تقدم وصفها مشتقة من الزيجورات البابلية القديمة لانها على طراز الزقورة التي كان يتخذها الصائبة من الكلدانيين والحرانيين والبابليين في بيوت عباداتهم وكان يسميها العرب الهيكل .

وقد بلغت النفقة على المسجد خمسة عشر الف الف درهم كما روى ياقوت الحموي أو مايساوي ستمائة الف دينار . اما تاريخ انشائه فقد ذكر سبط بن الجوزي ان البدء ببنائه كان سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٩ م) وكان الانتهاء منه في سنة ٢٣٧ هـ (٨٥٢ م) .

---

(١) راجع رسم المئذنة الملوية على الغلاف .

وأشار اليعقوبي الى ان المتوكل «جعل الطرق الى المسجد من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رياح في كل صف حوانيت فيهـا أصناف التجارات والصنـاعات والبياعات ، عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء لئلا يضيق عليه الدخول الى المسجد اذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورجله ومن كل صف الى الذي يليه دروب وسكك فيها قطائع جماعة من عامة الناس فاتسعت على الناس المنازل والدروب واتسع أهل الاسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والاسواق التي في صفوف المسجد الجامع ، واقطع نجاح بن سلمة الـكاتب في آخر الصفوف مما يلي قبلة المسجد واقطع احمد بن اسرائيل الـكاتب أيضاً بالقرب من ذاك ، واقطع محمد بن موسى المنجم واخوته وجماعة من الـكتاب والقواد والهاشميين وغيرهم »(١)

يتضح مما تقدم ان الشوارع الثلاثة التي كانت تؤدي الى المسجد كانت تنزل من الشمال من جهة وادي ابراهيم بن رياح فتفضي الى مئذنة الملوية ثم الى المسجد في جانب الحائط الشمالي الذي كانت فيه خمسة ابواب وهي الابواب المقابلة للقبلة. ومما يلفت النظر ان هرزفلد رسم هذه الشوارع الثلاثة في الخارطة التي وضعها عن سامراء القديمة بحسب وصف اليعقوبي وهي صاعدة من الجنوب الى الشمال نحو الحائط الجنوبي للمسجد ، وهو الحائط الذي يقع فيه المحراب وكان بدون ابواب . ولا شك ان ذلك بعيد كل البعد عن الواقع وهو لا يتفق ووصف اليعقوبي الذي يشير بصورة واضحة الى ان الشوارع الثلاثة كانت تنزل من جهة وادي ابراهيم بن رياح، وهو الوادي الواقع في الشمال. وفضلاً عن ذلك لا يمكن تصور هذه الشوارع في جنوب المسجد في حين ان الخلفاء كانوا يسكنون في القصور الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من المسجد كقصر الجوسق وقصر الهاروني . ثم ليس من المعقول ان تتجه الشوارع في اتجاه حائط القبلة الذي يقع فيه المحراب وهو بدون أي مدخل .

(١) « كتاب البلدان » لليعقوبي (طبعة النجف) ص ٣٢

وفيما ذكره الطبري عن حادث مقتل موسى بن بغا في سنة ٢٥٦ هـ دليل واضح على أن الطريق المؤدي الى المسجد بين الجوسق والمسجد كان من جهة مئذنة الملوية أي من الشمال ، فقال الطبري مانصه : « وفي سنة ٢٥٦ اخرج العامة موسى بن بغا من داره ثم اخرجوه من باب الحير الذي يلي قبلة المسجد الجامع ليذهبوا به الى الجوسق فلما صاروا به الى حد المنارة ضربه رجل من اصحاب مفلح ضربة من ورائه على عاتقه الخ ... »[1]

ويشاهد بجانب المسجد وعن شماله من الغرب سور من اللبن يسمى « سور عيسى » أو « سور ام عيسى » يضم داخله بقايا بناء ، ولا يعلم على التحقيق من هو هذا عيسى هل هو عيسى بن علي أو عيسى بن موسى العباسي ، لان اليعقوبي لم يذكره في كتاب البلدان عند ايراده الاقطاعات التي اقطعها الخليفة أصحابه. وبناء هذا السور من اللبن طوله ٣٦٠ متراً وعرضه ٢٠٠ متر . ويشاهد المرء وراء السور على مسافة ٢٠٠ متر عنه تلولاً كثيرة كشف الدكتور هرزفلد عن قسم منها يعرف باسم « دار بهلول » فظهرت فيه أبنية هي عبارة عن غرف متصلة بعضها ببعض وبناؤها باللبن ومطلي خارجها بالجص وعلى الجص غشاء من البورق ، كما يشاهد على كيلو مترين من السور شمالاً آكام وتلول على جانبي الطريق الذي في الحدود الشرقية للاطلال تعرف الآن بـ « مدق الطبل » ، وقد دلت التنقيبات فيها انها كانت دوراً واسعة تشتمل على كثير من الحجرات كلها مزينة بالزخارف والتخاريم الجصية .

د ـ حير الحيوانات وبركة البحتري

وقد وسع المتوكل حدود مدينة سرمن رأى فامتد العمران خلف حدود طرق الحير في الجهة الجنوبية الشرقية للمسجد الجامع ، وكان من جملة مشاريعه

(١) الطبري (٣ : ١٨١٠)

في تلك الجهة انشاء حديقة واسعة للحيوانات الوحشية . ولا تزال آثار السور الذي كان يحيط بهذه الحديقة باقية حتى الآن شرقي حدود بناء سامراء القديمة، فيبلغ مجموع طول محيط هذا السور حوالي ثلاثين كيلومتراً يضم مستطيلاً تزيد مساحته على العشرين الف دونم عراقي (مشارة) . ويحتوي هذا المستطيل على ساحة واسعة تعد من أجمل الاراضي السهلة الخصبة في منطقة سامراء . وكانت البركة الجعفرية المشهورة التي وصفها البحتري في قصيدته المقصورة ضمن هذه الحديقة الواسعة ، كما كان امام البركة قصر فخم يستدل من آثاره على انه كان أحد قصور الخليفة المعدة لنزهته .

وتتجه الضلعان الجانبيتان لسور الحديقة نحو الشمال تماماً فتتصل الضلع الغربية بـ « حائر الحير » في منتهى هذا الضلع من الجنوب في نقطة تقع على بعد أحد عشر كيلومتراً تقريباً من المسجد الجامع ، غير ان الضلع المذكورة تقترب من المسجد في حدها الشمالي حيث لا تتجاوز المسافة بين ذلك الحد وبين المسجد الستة كيلومترات (راجع رسم رقم ١٣ ولوحة رقم ٢ ولوحة رقم ٧)

ويلاحظ ان هرزفلد كان يظن بأن حديقة الحيوانات هذه كانت تقع في شمال المسجد الجامع أي في الطرف الشرقي لدار العامة وان حلبة السباق التي خلف الدار (راجع ص ٧١) تقع في الحديقة نفسها . وكان يظن أيضاً ان « حائر الحير » كان في ذلك الموضع أيضاً ، فرسمه في ظهر الحديقة من الغرب ، هــذا في حين أن حائر الحير كان يمتد من قرب سامراء الحالية الى الجنوب الشرقي ، وبعد أن يقطع مسافة ١٢ كيلومتراً في هذا الاتجاه يتصل بحير الحيوانات الواقع في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد[١] . ويظهر انه بعد ان وقف على ما توصلنا اليه من نتائج في صدد موضع حير الحيوانات عاد فغير رأيه هذا وكتب مؤيداً بان السور الذي أشرنا اليه وهو السور الذي في جنوب شرقي المسجد هو سور

---

(١) راجع ماتقدم عن « حائر الحير » في صفحة ١٠٦

حير الحيوانات الذي كان يتصيد الخليفة فيه ، وان حائر الحير يقع هناك[١] .

٥ ــ ساحة الحير وحلبات السباق وتل العليق

وكانت هناك خلف حدود البناء الخارجية لمدينة سر من رأى في الفسحة التي بين تلك الحدود وبين حير الحيوانات ساحة واسعة تعرف بـ« ساحة الحير ». وهذه تقع بين ضفة القاطول الكسروي الغربية وحدود مدينة سر من رأى الشرقية، وكانت حلبة السباق تقع في الجهة الشمالية من هذه الساحة كما كانت الجبهة الشرقية من دار الخليفة وقصر الجوسق تطل عليها . وكانت هذه الساحة مركزاً للمظاهرات تحتشد فيها الجموع والمواكب في الثورات المحلية كما كانت تقام فيها المناورات العسكرية وما أشبه ذلك . وكثيراً ما كان يعسكر فيها الجنود في مثل هـــذه الحالات . ففي حوادث الفتن التي وقعت في عهد المهتدي عسكر المهتدي مع جنوده في هذه الساحة، وهذا نص ما كتبه الطبري في هذه الحوادث قال: « ان المهتدي بعد أن خرج من الجوسق عسكر في ساحة الحير بالقرب من موضع الحلبة وأمر أن تخرج الخيام والمضارب فتضرب في الحير »[٢]

ويشاهد في غربي ساحة الحير هذه على الحدود الشرقية لمباني سامراء القديمة آثار ثلاث حلبات سباق أحدثها واكثرها تنسيقاً تلك التي تقع في حدود الحير شمال شرقي المسجد الجامع الكبير بقليل ، وهي مكوّنة من أربع حلقات كبيرة حول مربع مركزي فيه دكة مرتفعة معدّة لجلوس الخليفة وحاشيته . ويبلغ طول الدورة الكاملة في هذه الحلقات المتتالية ما يزيد على خمسة كيلومترات في حين ان البعد الاعظم من الدكة المركزية على طول هذه الحلقات تقل عن ٦٠٠ متر . وهكذا كان المتسابقون يقطعون في هذه المساحة مسافة طويلة دون أن

(١) راجع البحث التالي الخاص بحير المتوكل للوحوش وبركة البحتري في الفصلين السادس والسابع .

(٢) راجع الطبري (٣ : ١٨٠٤)

يتباعدوا عن الدكة المركزية أكثر من ستمائة متر في جميع الأحوال ، والأرجح ن هذه الحلبة هي نفس الحلبة التي أشار اليها الطبري (راجع الرسمين ٣ و ١٣ واللوحتين رقم ٢ و ٧) .

اما الحلبتان الاخريان فتتكون كل منها من حلقة واحدة مستطيلة يبدأ داخلها ضيقاً من أحد رأسي الحلقة ثم يتوسع تدريجياً على طول الحلقة حتى يبلغ أقصى سعته في الرأس الثاني . وأولى الحلبتين وهي أقدم الحلبات الثلاثة تبدأ عند الحدود الشرقية لبيت الخليفة وذلك من الرأس الضيق للحلقة فتمتد طولاً الى جهة الشرق الى داخل ساحة الحير حتى تنتهي بالقرب من الضفة اليمنى لنهر القاطول(١) حيث تقع الجهة الواسعة للحلقة . ويبلغ طول الحلقة بين الرأسين حوالي خمسة كيلومترات في حين ان محيطها يبلغ أكثر من عشرة كيلومترات ونظراً لاتصال هذه الحلبة ببيت الخليفة قد يكون من المناسب أن نطلق عليها اسم « حلبة بيت الخليفة » لتميزها عن الحلبات الاخرى المجاورة لها(٢)

اما الحلبة الثانية فتتكون من حلقة مستطيلة أيضاً وتختلف عن حلبة بيت الخليفة في كونها تبدأ عند تل اصطناعي يقع في الشمال . ويرتفع هذا التل بحيث يشرف على جميع منطقة سامراء ، والتل المذكور مخروطي الشكل ويدعى « تل العليج » (تل العليق) ، وكان فوق قمته بناء يحتمل انه « قصر التل » الذي ورد ذكره فيمعجم ياقوت والمصادر العربية الاخرى. ونظراً لاتصال هذه الحلبة بالتل المذكور فقد يصح لنا ان نطلق عليها اسم « حلبة تل العليق» . وتبدأ هذه الحلبة عند تل العليق المار الذكر وذلك في الرأس الضيق لحلقة الحلبة فتمتد الى الجنوب مخترقة في امتدادها الرأس الغربي لحلقة حلبة بيت الخليفة حتى تنتهي قرب المسجد الجامع الكبير . ولم يبق من معالم هذه الحلبة إلا الجانب الشرقي

---

(١) راجع البحث التالي عن القاطول الكسروي في الفصل الثالث .

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن حلبة سباق بيت الخليفة وساحة اللعب في صفحة ٧١

للحلقة ، الذي يمتد مسافة خمسة كيلومترات تقريباً ، حيث ينتهي أمام المسجد الجامع الكبير من جهة الشرق. اما الطرف الغربي فقد محت معالمه الحلبة الاخيرة ذات الاربع حلقات التي تقع فيه تماماً (راجع رسم رقم ٣) .

ويعد تل العليق من أهم المواقع الأثرية في سامراء التي تسترعي التفات الزائر فاننا اذا ألقينا نظرة على تصويره المأخوذ من الجو نجد انه محاط بخندق واسع ، كما نشاهد حوله معالم سور مستدير والى شماله طريقاً منحدراً من قمته يعبر الخندق ، وربما كانت عليه قنطرة، ثم يستمر في اتجاهه مابين الخندق والسور، ومنه الى مسافة نصف كيلومتر تقريباً . ويبلغ عمق الخندق نحو ثلاثة امتار ، وقطر التل مائتي متر ، واما قطر السور المحيط به وبالخندق فنحو اربعمائة وخمسين متراً . وتوجد في شمال التل مباشرة اطلال تسمى « تلول المدرسة » ، ومن المرجح ان تكون هذه الاطلال من بقايا مقصورة كانت معدّة لراحة الخليفة وحاشيته ولتناول الطعام فيها أثناء حفلات السباق، ودليلنا على ان لهذه الاطلال صلة مباشرة بالتل وجود آثار سور يمتد بين التل نفسه والاطلال .

وكانت المياه تصل الى الخندق الذي يحيط بتل العليق من القناة التي حفرها المتوكل لايصال المياه الى سامراء ، وهي القناة التي تبدأ من حافة دجلة الشرقية في نقطة تقع شمالي قرية الدور الحالية بقليل ، فتسير بموازاة دجلة تاركة تل العليق الى يسارها حتى تنتهي الى سامراء . وكان هناك فرع خاص يتشعب من القناة من أمام التل فيفضي الى الخندق الذي يحيط بالتل(١) كما انه كان كهريز خاص يخرج من الخندق من جهته الجنوبية فيتجه نحو القناة ، وكان هذا الكهريز يرجّع المياه الى القناة بعد امتلاء الخندق . وبذلك كانت المياه دائمة الجري فتدخل الى الخندق من الجهة الشمالية وبعد امتلاء الخندق تعود الى القناة من الجهة الجنوبية . ولا تزال آثار هذين الكهريزين (المدخل والمخرج)

---

(١) راجع البحث الذي يلي عن هذه القناة في الفصل الخامس من الكتاب .

واضحة المعالم يمكن تتبعهـا في جوار التل بسهولة (راجع لوحة رقم ٢ ورسم رقم ١٣) .

ويعلل الناس تسمية « تل العليق » برواية يتناقلونها أباً عن جد، وهي أن التل تكوّن من التراب الذي نقله الجنود الخيالة بعليق خيولهم ، ويروون ان الخليفة المتوكل أراد أن يظهر كثرة جنوده بدليل عياني محسوس فأمر بان يملأ كل واحد من جنوده الخيالة عليقه بالتراب ثم يرميه هناك ، وتـكوّن التل من التراب الذي تجمّع على هذا الوجه .

وقد اطلق المؤرخون على هـذا التل اسم « تل المخالي » ، ولعله سمّي كذلك للسبب الذي ذكر اعلاه وهو ان التل انشيء بالاتربة التي حملها العساكر بمخالي خيلهم . قال الراوندي في كتاب الخرايج ص ٢١٢ من طبع ايران ما نصه: «ومنها حديث تل المخالي ، وذلك ان المتوكل أمر العسكر وهم تسعون الف فارس من الاتراك الساكنين بسر من رأى أن يملأ كل واحد منهم مخلاة فرسه من الطين الاحمر ويجعلوا بعضه على بعض في وسط برية واسعة هناك فلما فعلوا ذلك صار مثل جبل عظيم الخ ... » وقد جاء في خاتمة روضة الصفا لمحمد خداوند شاه ذكر انشاء هذا التل بالطريقة المذكورة نفسها ثم انشاء قصر عال فوقه الا انه نسب انشاء التل والقصر الى المعتصم ، والظاهر أن اسم المعتصم جاء هنا سهواً . واليك ما كتبه صاحب هذه الخاتمة قال : « ان المعتصم أمر عساكره ان يملئوا مخاليهم من التراب الاحمر وينبذوه في فضاء واسع حتى صار جبلا عظيماً ثم بنى عليه قصراً عالياً واعظم النفقة عليه » . هذا وقد جاء ذكر « تل المخالي » أيضاً في كتاب « خلاصة الذهب المسبوك » لعبد الرحمن الاربلي طبع بيروت ١٨٨٥ (ص ١٦٢).

ولقد درس هرزفلد هذا التل خلال تنقيباته في سامراء قبل الحرب العالمية الاولى فظهر له ان بناية صغيرة مربعة تشتمل على تسع غرف احداهن في الوسط كانت فوق قمته ، ولعل البناء المذكور كان القصر المعروف باسم « قصر التل »

الذي قيل انه يعود الى عهد المتوكل ، وذكر ياقوت ان المتوكل انفق على هذا القصر خمسة آلاف الف درهم علوه وسفله . وقد ذكر ابن المعتز هذا القصر في قصيدة جاء فيها :

فتلك اطـلال لهم قفارا | ترى الشياطين بها نهارا
بالتل والجوسق والقطائع | كم ثم من دار لهم بلاقع

وقد اختلفت الآراء في تاريخ انشاء « تل العليق » كما اختلفت في معرفة الغاية التي انشي من أجلها فبعض المؤرخين من الافرنج يرى انه يرجع الى عهد الرومان والبعض الآخر يرى انه يرجع الى ماقبل ذلك العهد . إلا اننا نرى بان اتصال التل بقناة المتوكل هو اقوى دليل على انه من عمل المتوكل . أما القصد من انشائه فتكاد الآراء تجمع على انه انشي لتأمين تمتع الخليفة ورجال حاشيته بمناظر حلبة السباق من محل مرتفع يمتد فيه البصر الى اقصى حد الحلبة مما يساعد على تتبع حركات الخيول في هذه المسافة الطويلة .

ونستخلص من ذلك كله ان « حلبة بيت الخليفة » اقدم الحلبات الثلاث ثم تليها « حلبة تل العليق » ثم الحلبة الاخيرة ذات الاربع حلقات . والارجح ان حلبة بيت الخليفة يرجع تاريخ انشائها الى عهد المعتصم حيث نجد في الرأس الغربي لحلقة هذه الحلبة تلاً مرتفعاً على الحدود الشرقية لبيت الخليفة قد اعدّ لجلوس الخليفة وحاشيته على نمط تل العليق المنشأ في رأس الحلبة التي تتصل به(١). والظاهر ان هذه الحلبة أهملت بعد ان تم انشاء « حلبة تل العليق » التي صارت تمتد بعدئذ من الشمال الى الجنوب حيث اخترقت « حلبة تل العليق » القسم الشرقي من « حلبة بيت الخليفة » التي تسير من الغرب الى الشرق . ولما كانت الروايات التاريخية تؤيد كون «تل العليق» انشيء على عهد المتوكل لذلك نؤكد

(١) راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٧١

بأن « حلبة تل العليق » انشئت في ذلك العهد . ويرجح ان الحلبة الاخيرة ذات الاربع حلقات قد انشئت على عهد المتوكل أيضاً بعد أن هجرت « حلبة تل العليق » بدليل ان الحلبة الأخيرة هذه اخترقت ساحة « حلبة تل العليق » نفسها بحيث محت معالم الطرف الغربي من تلك الحلبة . ومما يؤيد أيضاً ان « حلبة بيت الخليفة » كانت قد انشئت في زمن المعتصم وانها اقدم الحلبات أن قسماً من سور « قصر الدكة » يخترق هذه الحلبة في الطرف الشمالي من حلقتها المستطيلة ، كما أن هنالك آثار قصر آخر مع سوره الكامل تشاهد داخل ساحة هذه الحلبة[1] .

وفيما يلي ملاحظات دائرة الآثار العراقية حول الحلبات الثلاث المذكورة :
« يظهر ان أقدم هذه الحلبات هي التي تمتد خلف بيت الخليفة . تزيد طول دورة هــذه الحلبة على عشرة كيلومترات . ويبلغ بعدها الأعظم عن الدكة أربعة كيلومترات ونصف . ان طول الدورة كان يساعد على سباقات كبيرة غير ان الخيول كانت تتباعد عن الدكة في هذه الحلبة تباعداً كبيراً ، لايترك مجالاً لتتبع حركاتها .

« وأما الحلبة التي تبدأ من تل العليق فليست واضحة المعالم إلا في قسمها الأول ، مع هذا فان اتجاه هذا القسم كاف للحكم على ان هذه الحلبة كانت طويلة جداً ، وطبيعي ان علو التل كان يساعد على تتبع حركات الخيول من هذه المسافات الـكبيرة ، غير أن ذلك كان مما يتطلب جهداً كبيراً وانتباهاً شديداً .

« واما ساحة الفروسية ـ التي وصفنا شكلها البديع ـ فيظهر انها استحدثت بعد ذلك أيضاً ، بغية ايجاد حلبة سباق يبقى المتسابقون فيها تحت النظر على الدوام ... »[2]

(١) راجع البحث التالي الخاص بـ « قصر الدكة » في هذا الفصل .
(٢) نشرة دائرة الآثار العراقية عن سامراء ص ٦٤ ـ ٦٥

ويعد ما أنشده البحتري في وصف الحلبة من ارقى شعره ، فقال وهو يمدح المتوكل :ـ

ياحسن مبدي الخيل في بكورها	تلوح كالانجم في ديجورها
كأنما أبدع في تشهيرها	مصور حسن من تصويرها
تحمل غرباناً على ظهورها	في البيرق المنقوش من حريرها
إن حاذروا النبوة من نفورها	أهووا بأيديهم الى نحورها
كأنها والحبل في صدورها	أجادل تنهض في سيورها
مرّت تباري الريح في مرورها	والشمس قد غاب ضياء نورها
في الرهّج الساطع من تنويرها	حتى إذا أصغت إلى مديرها
وانقلبت تهبط في حدورها	تصوّب الطير إلى وكورها
صار الرجال شرفاً لسورها	أعطي فضل السبق من جمهورها
من فضّل الأمة في امورها	في فضلها وبذلها وخيرها
جعفر الذائد عن ثغورها	تبهى به وهو على سريرها

خلافة وفّق في تدبيرها

و ـ « قصر الدكة » في ساحة الحير

وكان في الحدود الشمالية الغربية لساحة الحير قصر يسمى بالدكة ، وكان هذا القصر يقع على ضفة نهر القاطول الكسروي(١) اليمنى في شرقي تل العليق ، وكان امامه بركة مدورة تستمد مياهها من فرع خاص يتشعب من قناة سامراء ـ وهي القناة التي حفرها المتوكل لايصال مياه دجلة الى مدينة سامراء(٢) ـ كما كانت أمامه ساحة واسعة تبلغ مساحتها حوالي ١٥٠٠ دونم (مشارة) ، وكانت

(١) حول نهر القاطول الكسروي المذكور راجع البحث التالي الخاص بتاريخ النهروان وتطوره في الفصل الثاني .

(٢) راجع البحث التالي الخاص بهذه القناة في الفصل الخامس .

الساحة مسوّرة بجدار على شكل مستطيل قائم الزوايا ، تمتد الضلع الشمالية مسافة حوالي كيلو مترين ونصف بين ضفة القاطول الكسروي وتل العليق ، ومن قرب تل العليق تنحرف الضلع الثانية فتسير الى الجنوب الشرقي بموازاة القاطول الكسروي حوالي كيلومتر ونصف كيلومتر ، وتخترق الضلع الثانية هذه الحلبة القديمة (حلبة بيت الخليفة) مما يدل على أن القصر والسور أنشئا بعد أن أهملت هذه الحلبة وحلت محلها « حلبة تل العليق ». وتوجد آثار بناء في منتصف كل من الضلعين الطوليتين كما انه توجد آثار بناء في منتصف الضلع التي تخترق الحلبة مقابل بناية القصر الواقعة على ضفة القاطول الكسروي تماماً . ويستدل من مواقع هذه الآثار انها كانت أبواباً رئيسية في منتصف هذه الاضلاع الثلاثة . ويتضح من ذلك ان السور يقع في ثلاث اضلاع فاما الضلع الرابعة فهي ضفة القاطول الكسروي المرتفعة وهي الضفة التي يقع عليها القصر .

وقد ذكر الطبري موقع الدكة فيما رواه عن حادثة مقتل صالح بن وصيف سنة ٢٥٦ﻫ قال : « وتحلّب الناس وتهايجوا من دار أمير المؤمنين فركبوا في السلاح وأخذوا في الحير حتى اجتمعوا مابين الدكة وظهر المسجد (جامع الملوية) . » وهذه هي ساحة الحير التي تقدم وصفها[١] والتي تقع بين القاطول الكسروي الذي عليه الدكة وبين جامع الملوية (راجع اللوحتين ٢ و ٧ والرسم ١١) . وجاء ذكر موقع الدكة أيضاً بمناسبة اخرى في نفس المصدر[٢].

ويرجّح ان يكون قصر الدكة المذكور القصر الذي كان يعرف باسم « قصر الساج » بدليل ان البحتري لما وصف هذا القصر أشار الى نهر كان يبدأ من قرب قصر الجعفري وينتهي عنده فيوصل بينه وبين قصر الجعفري ، ولا

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن ساحة الحير في صفحة ١١٦ والبحث التالي في الفصل السادس .

(٢) راجع الطبري (٣ : ١٨٣٠،١٨٠٧)

شك ان النهر المذكور هو النهر الذي كان يتفرع من قناة سامراء . وقد ذكر البحتري ايضاً انهذا القصر يقع خارج سامراء في ساحة خضراء مليئةبالاشجار المورقة والمزهرة والمثمرة ولكنه غير بعيد عنها . واني لم أجد أثراً آخر ينطبق عليه وصف البحتري المار ذكره كما انطبق على اطلال الدكة السالفة الذكر . وفيما يلي نص الأبيات التي أنشدها البحتري في وصف القصر والنهر كما وردت في قصيدة قافية يمدح بها المعتز ، قال :

شجر على خضر ترفّ غصونه	من مزهر أو مثمر أو مورق
وكأن قصر الساج خلة عاشق	برزت لوامقها بوجه مونق
قصر تكامل حسنه في قامة	بيضاء واسطة لبحر محدق
داني المحل فلا المزار بشاسع	عمن يزور ولا الفناء بضيّق
قدّرته تقدير غير مفرط	وبنيته بنيان غير مشفق
ووصلت بين الجعفري وبينه	بالنهر يحمل من جنوب الخندق
نهر كأن الماء في حجراته	إفرند متن الصارم المتألق
فاذا الرّياح لعبن فيه بسطن من	موج عليه مدرّج مترقرق
ألحقه يا خير الورى بمسيره	وامدد فضول عبابه المتدفق

يستدل مما تقدم ان المعتز (٢٥١ ــ ٢٥٥ هـ) هو الذي انشأ هذا القصر ، وعليه يجوز لنا القول بان النهر الذي فتح من قناة سامراء ليفضي الى القصر كان من عمل المعتز أيضاً .

وتوجد آثار قصرآخر في داخل الحلبة القديمة (حلبة بيت الخليفة) في حدها الشمالي ، وهذه تقع في جنوب شرقي تل العليق بالقرب من الركن الجنوبي الغربي لسور قصر الدكة . وفي هذا القصر ساحة واسعة مسوّرة بسور مستطيل قائم الزوايا أيضاً . ويقع القصر في داخل السور في منتصف احدى ضلعي السور اللتين تمتدان في العرض . ويبلغ طول الضلع الطولية زهاء أربعمائة متر وطول

الضلع العرضية حوالي ٢٦٥ متراً ، وبذلك تـكون مساحة الساحة حوالي ٤٢ دونماً عراقياً (مشارة) . ووقوع هذا القصر وسوره داخل حلبة بيت الخليفة يدلنا على انه من جملة القصور التي انشئت بعد اهمال حلبة بيت الخليفة (راجع اللوحة رقم ٢ والرسم رقم ١٩) .

ويحتمل أن تـكون هذه الاطلال من بقايا قصر البديع الذي كان قد انشيء على عهد المتوكل بدليل ان البحتري لما وصف هذا القصر اقترح على المعتز أن يمد فرع قناة سامراء الذي انشأه لتموين قصر الدكة (قصر الساج) بالماء فيوصله الى قصر البديع ومنه ينهيه في دجلة قرب الجوسق . وهذا يدل على ان قصر الجوسق كان يقع بالقرب من دجلة غربي قصر البديع ، ويكون ذلك جنوبي دار الخليفة . وهذا ما أنشده البحتري بصدد النهر المذكور قال وهو يخاطب المعتز :

ألحقـه يا خير الورى بمسيره ... وامدد فضول عبابه المتدفق
فاذا بلغت به البديع فانما ... انزلت دجلة في فناء الجوسق[١]

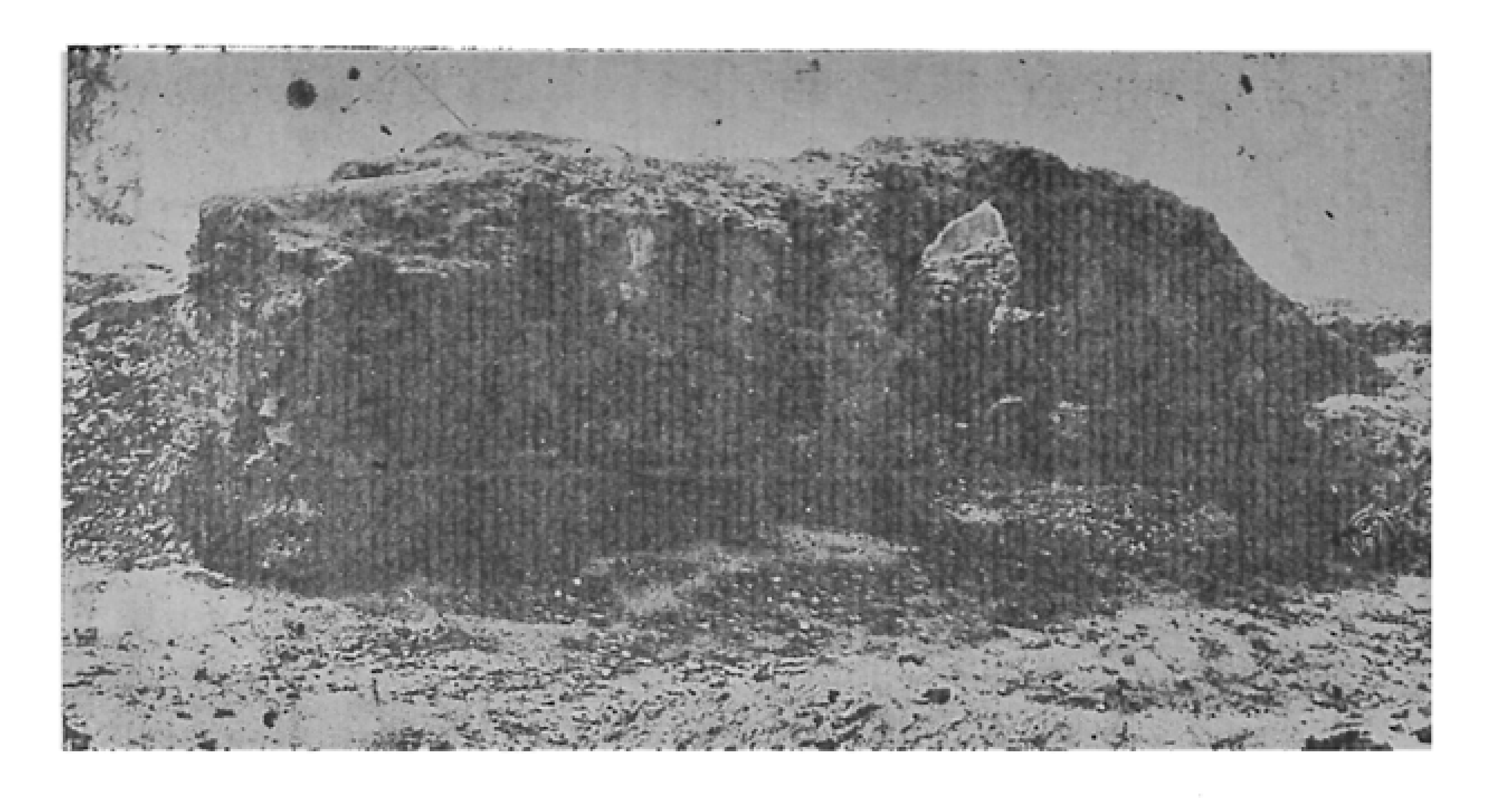
وقد أشار الطبري الى أن المتوكل لما أنشأ قصر الجعفري بالمتوكلية[٢] أمر بنقض قصر البديع وحمل ساجه اليه .

ز ـ قصر بركوارا (المنقور)

بحثنا فيما تقدم عن التوسع العمراني الذي احدثه المتوكل على الجهة الشرقية من مدينة سر من رأى وننتقل الآن الى ذكر اعماله العمرانية التي أقامها في اقصى الجنوب في جوار المطيرة [٣] وفي اقصى الشمال في جهة كرخ أشناس ودور عربايا[٤] . اما من جهة الجنوب فقد أنشأ خلف المطيرة بناء سماه « بلـكوارا »

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن الجوسق في صفحة ٧٤
(٢) راجع البحث التالي الخاص بمدينة المتوكلية وقصورها في هذا الفصل .
(٣) حول « المطيرة » راجع ما تقدم في ص ٥٩ ـ ٦١
(٤) حول « كرخ اشناس » و « دور عربايا » راجع البحث الذي تقدم في ص٥٧ـ٥٩



تصوير رقم ٥ أ ـ اطلال قصر بلكوارا (المنقور)

(وقدسماه بعض المؤرخين « بركوارا » والبعض الآخر « بزكوار »)[1] وانزل ابنه المعتز في هذا البناء . ويقال لهـــذا الموضع اليوم « المنقور » وهو يبعد ستة كيلومترات الى الجنوب من مدينة سامراء الحديثة عند الطرف الجنوبي بمنطقة الاطلال القديمة . ويعد العلامة كرزول قصر بلـكوارا « من أعظم المنشئات المعمارية لـكبر مساحته وحجمه وكثرة الظواهر الفنية المعمارية فيه » .

وقد اكتشف هرزفلد هـذه المنطقة سنة ١٩١١ فاستمرت حفرياته فيها من ١٢ تموز الى ٩ تشرين الأول ، والقصر الذي اكتشفه هنالك تزيد مساحته على ثلاثة اضعاف مساحة مدينة سامراء الحالية، ويحيط بهذا القصر سور ذو ابراج مستطيل التخطيط طول ضلعه ١٢٥٠ متراً يرتـكز جانبه الجنوبي على شاطىء دجلة الصخري الذي يرتفع هنا بمقدار خمسة وعشرين متراً ، وقد اكتشف هرزفلد في هذا القصر ايضاً بعض الزخارف الجصية التي كانت تـكسو جدران القصر من الداخل (راجع تصوير رقم ٥ أ) .

وكان للبناء ثلاثة أبواب تقع في منتصف الجدران الثلاثة غير المطلة على النهر أي الشمالية والشرقية والغربية ويخترق البناء شارعان رئيسيان متقاطعان . وكان البناء يشتمل على مجموعة من المنازل وثـكنات للمشاة والحرس ، وكان من ضمن القصر حديقة يحيط بها سور ذو دعامات أو فصوص وينتهي عند الشاطىء نفسه بسقيفات غنية بالزخارف والى جانب الحديقة مرفأ للسفن وفي وسطها حوض للماء .

وقد تطرق الشابشتي في كتابه الديارات الى وصف القصر فقال : « وبالقادسية بنى المتوكل قصره المعروف ببركوارا ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز ، وجعل اعذاره فيه . وكان من أحسن أبنية المتوكل واجلّها ، وبلغت النفقة عليه

---

(١) لقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا القصر فسماه ياقوت والطبري باسم « بزكوار » والشابشتي وابن سرابيون باسم « بركوارا » واليعقوبي باسم « بلـكوار » .

عشرين الف الف درهم » . وقد أيد ياقوت ذكر هذا المبلغ الذي صرف في بناء القصر والذي أشار اليه الشابشتي (١) .

واطلق ياقوت الحموي اسم « بزكوار » على هذا القصر (وذكره في مكان آخر باسم « برکوان ») فقال عنه انه « اسم بيت بناه المتوكل في قصر له بسر من رأى فقال بعضهم يذكره بعد خرابه وكتب على حائطه :

هذي ديار ملوك دبّروا زمناً أمر البلاد وكانوا سادة العرب
عصى الزمان عليهم بعد طاعته فانظر الى فعله بالجوسق الخرب
وبزكوار وبالمختار قد خليـا من ذلك العز والسلطان والرتب

وجاء ذكر القصر في تاريخ الطبري باسم « بزكوار » ايضاً في استعراض حوادث سنة ٢٥٨ هـ فذكر أن المعتمد لما عقد لأخيه أبي احمد على ديار مضر وقنسرين والعواصم شيعه الى « بزكوار » وانصرف (٢) .

اما موضع قصر « بلـكوارا » وتاريخ انشائه فقد ذكر اليعقوبي ان المتوكل « انزل ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له « بلـكوارا » فاتصل البناء من بلـكوارا الى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار أربعة فراسخ » ، وقال في موضع آخر « ان المتوكل بنى مدينة جديدة سماها الجعفرية واتصل البناء من الجعفرية الى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسر من رأى ماراً الى الموضع الذي كان ينزله ابنه ابو عبد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ » . وقد استنتج هرزفلد من قول اليعقوبي هذا ان اطلال المنقور وبنائها هي اطلال بلـكوارا لأن المسافات التي ذكرها اليعقوبي وهي الأربعة والسبعة فراسخ توافق موقعه موافقة تامة وهي تكوّن الطرف الجنوبي لمنطقة الاطلال ، ولذلك لا بد ان يكون بلـكوارا قد بني في عهد الخليفة المتوكل على الله . وقد

(١) راجع البحث الذي تقدم في صفحة ١٠٤
(١) راجع الطبري (٣ : ١٨٦٠)

عثر هرزفلد على كتابة أثرية بالخط الكوفي البسيط على كتلة من الخشب في احدى القاعات نصها « الامير المعتز بالله بن أمير المؤمنين » ، وهو لقب أبي عبد الله طلحة بن الخليفة المتوكل . ولما كان لقبه المعتز بالله قد طبع على النقود المسكوكة منذ سنه ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) مما يدل على انه لم يلقب بذلك اللقب إلا منذ سنة ٢٤٠ هـ ، ولما كان المتوكل منذ سنة ٢٤٥ معنياً بانشاء مدينته الجديدة «الجعفرية» ، لذلك حصر هرزفلد التاريخ الذي بني به قصر بلكوارا بين سنتي ٢٤٠و٢٤٥هـ (٨٥٤و٨٥٩ م) .

مدينة المتوكلية وقصورها وشوارعها

لعل أهم التوسعات التي اجراها المتوكل هي الممتدة اليوم الى الجهة الشمالية حيث اختار مكاناً في تلك الجهة وبنى مدينة جديدة سماها المتوكلية ، أو الجعفرية ، وانتقل اليها ، اما المكان الذي وقع اختياره عليه فيقال له « الماحوزة » وهو المكان الذي قيل عنه ان المعتصم كان قد فكر في انشاء مدينة فيه . وتقع خرائب المتوكلية على ضفة نهر دجلة في اقصى الشمال على بعد حوالي عشرة كيلومترات من آخر البناء الذي في الدور (دور العرباني) ، وهو الحد الشمالي لبناء المعتصم ، ويكون ذلك على بعد حوالي ٢٠ كيلومتراً من شمالي سامراء الحالية . ويشاهد الزائر اليوم السور الضخم الذي يحيط بالمتوكلية والذي يبلغ مجموع طوله حوالي اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر ، اما مساحة الارض التي في داخل السور فتبلغ حوالي ٥٤٠ دونماً (مشارة) . وهناك سور آخر في جنوب المدينة بقليل يمتد بين ضفة القاطول الكسروي اليمنى ونهر دجلة فيفصل هذا السور الخارجي مدينة المتوكلية ومشتملاتها عن مدينة سر من رأى التي في الجنوب تاركا إياها في عزلة عن المدينة القديمة ، وفي هذا السور باب ضخم في وسط السور هو المدخل العام للمدينة .

ومما كتبه البلاذري بصدد انشاء مدينة المتوكلية قوله : « احدث المتوكل

مدينة سماها المتوكلية وعمّرها وأقام بها وأقطع الناس القطائع وجعلها فيما بين الكرخ المعروف بفيروز وبين القاطول المعروف بكسرى فدخلت الدور والقرية المعروفة بالماحوزة فيها ، وبنى بها مسجداً جامعاً وكان من ابتدائه اياها الى ان نزلها اشهر ونزلها في أول سنة ست واربعين ومائتين ثم توفي رحمه الله في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين » .

ونقل المتوكل جميع الدواوين الى مدينته الجديدة (المتوكلية) وأقطع ولاة عهوده وسائر أولاده وقواده وكتّابه وجنده والناس كافة ، فاتسع البناء في المنطقة الشمالية هذه التي تمتد بين آخر البناء في الدور (دور العرباني) من جهة وآخر الحدود الشمالية لمدينة المتوكلية من الجهة الاخرى مسافة حوالي خمسة عشر كيلومتراً . ولتأمين المواصلات العامة بين مدينته الجديدة (المتوكلية) وبين مدينة المعتصم (سامراء) مد الشارع الاعظم (وهو شارع السريجة الاعظم الذي ينتهي الى دار أشناس في الكرخ وهي الدار التي صارت في هذا الدور للفتح بن خاقان) مقدار ثلاثة فراسخ (أي حوالي ١٥ كيلومتراً) الى قصوره في الشمال ، وجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه وأقطع الناس يمنة الشارع الاعظم ويسرته وجعل عرض الشارع الاعظم مائتي ذراع وكذلك شق الدروب من جهتي الشارع الاعظم وكانت الدروب التي على جهة نهر دجلة تنتهي بالنهر هناك والدروب التي على الجهة الشرقية من الشارع تنتهي في آخر البناء من جهة الشرق [١]. ولا تزال آثار هذا الشارع جلية تحدها الخرائب من الجهتين [٢] ، كما انه لا تزال آثار بناء الابواب المذكورة باقية ظاهرة تشاهد في نهاية الشارع الاعظم وذلك في السور الخارجي لمدينة المتوكلية وقصورها ، وهو السور الذي يمتد بين ضفة القاطول الكسروي اليمنى ونهر دجلة (راجع اللوحتين ١ و ٢ والرسمين ٢ و ١٧) .

---

(١) « كتاب البلدان » لليعقوبي .

(٢) راجع البحث التالي الخاص بالشارع الاعظم في الفصل الثامن .

وهكذا فقد اتصل البناء على ضفة نهر دجلة فيبدأ في أقصى الشمال من المتوكلية فالدور فكرخ أشناس فسر من رأى « ماداً الى الموضع الذي كان ينزله المعتز بن المتوكل ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ (حوالي ٣٤ كيلو متراً) » (١) .

ولتموين المدينة الجديدة بالمياه السيحية أخرج المتوكل نهراً من ضفة دجلة اليسرى من نقطة تقع على بعد حوالي أربعين كيلومتراً من شمال مدينة تكريت ، ويسير هذا النهر على محاذاة دجلة جنوباً مسافة حوالي ستين كيلومتراً حتى يصل الى المتوكلية ، وقد سمي « النهر الجعفري » وانفق عليه ما يقرب من مليون دينار إلا أنه كان مشروعاً فاشلاً للاسباب التي سيأتي البحث عنها في الفصول التالية (٢).

ويلاحظ أن المتوكل كان يشرف شخصياً على اعمال المدينة الجديدة في « الماحوزة » وعلى حفر النهر الذي يمدها بالمياه فانتقل من سر من رأى وجعل مقره في قرية « المحمدية » ليكون قريباً من ساحة العمل فيسهل الاشراف عليه عن كثب (٣) . أما موضع قرية المحمدية فيقول البلاذري انها قريبة من « الماحوزة » وانها كانت تعرف بـ « الايتاخية » نسبة الى ايتاخ التركي « ثم سماها المتوكل المحمدية باسم ابنه محمد المنتصر ، وكانت تعرف أولاً بدير أبي الصفرة وهم قوم من الخوارج ». غير ان ابن سرابيون اعتبر الايتاخية والمحمدية قريتين منفصلتين وقال انهما تقعان بالقرب من بعضهما على القاطول الأعلى الكسروي (٤) ـ الايتاخية من الشمال والمحمدية جنوبيها ـ وذلك على مسافة قليلة من صدره . وأضاف ابن سرابيون الى ذلك قوله انه كان على القاطول جسر من الحجارة عند الايتاخية وجسر من الزواريق عند المحمدية .

---

(١) « كتاب البلدان » لليعقوبي .
(٢) راجع البحث التالي الخاص بمشروع « نهر الجعفري » في الفصل الثامن .
(٣) الطبري (٣ : ١٤٣٨)
(٤) راجع البحث التالي عن القاطول الكسروي المذكور في الفصلين الثاني والثالث .

وجاء ذكر « المحمدية » أيضاً فيما رواه الطبري عن مقتل أبي نصر في حوادث سنة ٢٥٦ﻫ ، ومما قاله عن هذا الحادث ان أبا نصر قبل ان يتم قتله لجأ الى المحمدية وكتب المهتدي اليه يعطيه الأمان على نفسه فوثق بذلك فرجع غير انه حبس على أثر عودته وقتل[١]. وقد روى اليعقوبي ان قطيعة ايتاخ كانت تقع في آخر شارع أبي أحمد مما يلي وادي ابراهيم بن رياح ، أي في شمالي الكرخ ودور عربايا، وكان هذا الشارع على حسب قول اليعقوبي ينتهي الى باب البستان وقصور الخليفة[٢]. ولعل قرية الايتاخية كانت من ضمن قطيعة ايتاخ المذكورة، ويحتمل أن يكون قصر بستان الايتاخية الذي ذكره ياقوت وقال انه من جملة قصور المتوكل وان كلفة إنشائه بلغت عشرة آلاف الف درهم[٣] أحد قصور الخليفة التي روي اليعقوبي ان شارع أبي احمد كان ينتهي عندها .

أما الموضع الذي كانت فيه قرية المحمدية وقصور الخليفة بالنسبة الى الاطلال المتبقية فلم نعثر على موضع تنطبق عليه الاوصاف المتقدمة غير موضع التل المعروف باسم « تل الأصيبعين » الواقع على الضفة اليمنى من القاطول الكسروي عند الكيلومتر (١٣ر٥٠٠) من صدره حيث تقع بالقرب من هذا التل في جهة الغرب أطلال عمران قديم ، ثم ان هناك تلاً آخر يقع جنوبي « تل الاصيبعين » عند الكيلومتر (١٨ر٣٠٠) من صدر القاطول يقال له «تل تمر» ، يقوم على الضفة اليمنى من القاطول أيضاً وفيه آثار قصر قديم وبالقرب منه على حافة القاطول تشاهد آثار قصر آخر كما أن هناك خرائب مجاورة تمتد غرباً حتى تتصل بالشارع الاعظم . ويغلب على الظن أن قرية المحمدية كانت في أحد هذين الموضعين . أما إذا أخذنا بقول ابن سرابيون وهو ان هناك قريتين تعرفان بالايتاخية والمحمدية

---

(١) الطبري (٣ : ١٨١٩ ، ١٨٢٤)

(٢) راجع ماتقدم في صفحة ٦٥

(٣) راجع ماتقدم في صفحة ١٠٤

فتكون هاتان القريتان في الموضعين المذكورين أي في جوار «تل الأصيبعين» و «تل نمر»

وكان المتوكل قد بنى في موضع الماحوزة بالمتوكلية قصراً فخماً سماه باسمه «القصر الجعفري» وانتقل اليه . ولا تزال بقايا هذا القصر وبركته الواسعة تشاهد على ضفة نهر دجلة في شمال السور الداخلي لمدينة المتوكلية في الزاوية التي يكونها نهر دجلة من جهة ونهر القاطول الكسروي من الجهة الثانية . وقد جاء وصف هذا القصر في اكثر كتب المؤرخين من العرب فقال ابو الفداء في تاريخ المختصر : «وفي سنة ست وأربعين ومائتين تحول المتوكل الى الجعفري وكان قد ابتدأ في عمارته سنة ٢٤٥ وانفق عليه أموالاً تجل عن الحصر ويقال لمكانه الماحوزة» . وقال ياقوت في مادة (الجعفري) : «وفي سنة ٢٤٥ بنى المتوكل الجعفري وانفق عليه الفي الف دينار وكان المتولي لذلك دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا الشرابي» . واضاف ياقوت الى ذلك قوله بان «الدراهم كانت في أيام المتوكل كل خمسة وعشرين درهماً بدينار فيكون عن الفي الف دينار خمسون الف الف درهم» . وقد أيد ياقوت ذلك في مادة (سامراء) فذكر ان كلفة «القصر بالمتوكلية، وهو الذي يقال له الماحوزة، خمسين الف الف درهم». وأشار أيضاً في المادة نفسها الى أن هناك قصراً آخر كان يسمى «الجعفري المحدث» بلغت كلفة انشائه عشرة آلاف الف درهم . ولعل قصر المحدث هذا هو القصر الذي ذكره الطبري فقال في سيرة المنتصر ان محمدا المنتصر توفي في قصر المحدث بسامراء ، مما يدل على ان القصر المذكور يقع في سامراء وانه غير القصر الجعفري الذي بالمتوكلية .

ويلاحظ ان الطبري قد اعتبر مبلغ الالفي الف دينار ، الذي ذكر ياقوت بانه كان كلفة بناء قصر الجعفري ، شاملاً كلفة بناء المتوكلية نفسها ، وفيما يلي نص ما كتبه في هـذا الصدد قال : «وفي سنة ٢٤٥ هـ أمر المتوكل ببناء الماحوزة

وسماها الجعفري وأقطع القواد واصحابه فيها وجدّ في بنائها وتحول الى المحمدية ليتم أمر الماحوزة وأمر بنقض القصر المختار والبديع وحمل ساجها الى الجعفري وانفق عليها فيما قيل اكثر من الفي الف دينار وجمع فيها القراء فقرؤا وحضر أصحاب الملاهي فوهب لهم الفي الف درهم وكان يسميها هو وأصحابه الخاصة المتوكلية »

وقد اشتهر القصر الجعفري بحسنه ونخامة بنائه فكان مصدر وحي الشعراء والكتّاب ، وذكر ابن خلكان ان أبا العيناء محمد بن القاسم بن الخلاء الاهوازي البصري « دخل على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري سنة ٢٤٦ فقال له ما تقول في دارنا هذه فقال ان الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك فاستحسن المتوكل كلامه » .

كما ان للشعراء في ذكر هذا القصر أشعاراً كثيرة ، ولعل أحسن ماقيل فيه وصف البحتري له في أبياته التالية : ــ

قد تم حسن الجعفري ولم يكن	ليتم إلا بالخليفة جعفر
ملك تبوأ خير دار انشئت	في خير مبدى للانام ومحضر
في رأس مشرفة حصاها لؤلؤ	وترابها مسك يشاب بعنبر
مخضّرة والغيث ليس بساكب	ومضيئة والليل ليس بمقمر
فرفعت بنياناً كأن منارة	أعلام رضوى أو شواهق صيبر
أزرى على همم الملوك وغض من	بنيان كسرى في الزمان وقيصر
عال على لحظ العيون كأنما	ينظرن منه الى بياض المشترى
ملأت جوانبه الفضاء وعانقت	شرفاته قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته ففناؤه	من لجّة غمر وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح فتنثني	اعطافه في سائح متفجر
اعطيته محض الهوى وخصصته	بصفاء ودّ منك غير مكدّر
واسم شققت له من اسمك فاكتسى	شرف العلو به وفضل المفخر

وقال البحتري أيضاً وهو يرثي المتوكل بعد مقتله : —

تغيّر حسن الجعفري وأنسه	وقوّض بادي الجعفري وحاضره
تحمّل عنه ساكنوه فجأة	فعادت سواء دوره ومقابره
اذا نحن زرناه أجدّ لنا الاسى	وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

وهنالك آثار قصر آخر لا يقل عن القصر الجعفري في سعة بنائه يقع جنوبي القصر الجعفري على ضفة نهر دجلة ، خارج سور المتوكلية أيضاً ، ولعله من جملة قصور المتوكل في مدينته الجديدة . ويرجح ان موضع هذه الاطلال هو مكان قصر اللؤلؤ الذي ذكر الطبري ان المتوكل انشأه في المتوكلية وانه لم ير مثله في علوه ، الامر الذي يؤيده ابن الأثير بقوله « وبنا المتوكل في المتوكلية قصراً سماه لؤلؤة لم ير مثله في علوه » . وقد ذكر ياقوت ان المتوكل انفق على بناء هذا القصر خمسة آلاف الف درهم .

وتدل الروايات التاريخية المدوّنة على ان مشروع مدينة المتوكلية الجديدة تم في اقل من عامين ، فقد شرع المتوكل في بنائها سنة ٢٤٥ هـ فأتمها في نهاية سنة ٢٤٦ هـ ، ويؤيد المؤرخون انه انتقل الى المدينة الجديدة في اليوم الاول من المحرم سنة ٢٤٧ هـ (١). وقد تكامل السرور للمتوكل بعد ذلك ، فقال « الآن علمت اني ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها »(٢) .

وكان طبيعياً ان ينبري الشعراء فينظمون قصائدهم في وصف مدينة المتوكل الجديدة ، ومن اشهر ما قيل فيها قول البحتري : —

أرى المتوكلية وقد تعالت	محاسنها واكملت التماما
قصور كالكواكب لامعات	يكدن يضئن للساري الظلاما

(١) هذا ماذكره اليعقوبي غير أن البلاذري خالفه فقال ان المتوكل نزل المتوكلية في أول سنة ست واربعين ومائتين ، والارجح ان ماذكره اليعقوبي هو الاصح بالنظر الى تأييد بقية المؤرخين لكلامه .

(٢) « كتاب البلدان » لليعقوبي

وللبحتري قصيدة أخرى يصف في بعض ابياتها المتوكلية منها :

يهنيك في المتوكلية انها حسن المصيف بها وطاب المربع

فيحاء مشرقة يرق نسيمها ميث تدرجها الرياح واجرع

وفسيحة الاكتاف ضاعف حسنها بر لها مفض وبحر مترع

قد سر فيها الأولياء اذ التقوا بفناء منبرها الجديد فجمعوا

فارفع بدار الضرب باقي ذكرها ان الرفيع محله من ترفع (١)

ولكن للاقدار احكامها فما مضى عام واحد على انشاء هذه المدينة العظيمة حتى قضت الاقدار عليها بالموت والاقفار ، وكان ذلك على أثر قتل المتوكل في ٣ شوال من سنة ٢٤٧ هـ (٢). ولما كان المتوكل قد انتقل الى المتوكلية في اليوم الأول من المحرم سنة ٢٤٧ فيكون قد قضى فيها تسعة أشهر وثلاثة ايام فقط .

---

(١) يستدل من البيتين الاخيرين انه كان في المتوكلية جامع انشيء فيه منبر جديد كما كان فيها دار لسك النقود (راجع البحث التالي الخاص بجامع أبي دلف) .

(٢) قتل المتوكل وهو في مجلس انسه في القصر الجعفري الذي بالمتوكلية ، قتله غلام تركي اسمه باغر ، وخلاصة الحادث ان المتوكل بينما كان يشرب مع ندمائه وقد سكر اذ دخل أحد المتآمرين المسمى بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف فانصرفوا ولم يبق عند المتوكل الا وزيره الفتح بن خاقان ، فغلق الابواب كلها الا الباب الذي دخل منه الذين قتلوا المتوكل ، فأول من ضربه باغر فتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه وقتل الاثنان . والمعتقد ان قتل المتوكل تم بالاتفاق مع المنتصر أحد أولاد المتوكل ، وسبب ذلك ان المتوكل كان قد عقد لأولاده الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ثم تغير على المنتصر دون اخوته وكان يسميه المنتظر ويقول له أنت تتمنى موتي وتنتظر وقتي ، وكان يأمر الندماء ان يعبثوا به الى ان أوغر صدره وقل صبره . وبويع المنتصر من ساعة مقتل المتوكل الا ان مدته في الخلافة لم تتجاوز الستة اشهر فقد قتله المماليك الاتراك أيضاً اذ دسوا الى طبيبه ليسمه ففصده بمبضع مسموم فمات . وقد رثا البحتري ويزيد المهلبي المتوكل بمرثيتين من أجود ما قيل في معناهما وكانا حاضرين ليلة قتله فاختفى أحدهما في طي الباب والآخر في قناة الشاذروان .

ويلاحظ مما كتبه اليعقوبي ان المتوكل دفن في نفس القصر الذي قتل فيه (اي في القصر الجعفري) راجع الجزء الثالث من « تاريخ اليعقوبي » طبعة النجف ص ٢٠٩

وقد هجرت المدينة وقصورها بعد مقتل المتوكل فوراً وعاد ابنه الخليفة المنتصر والناس جميعاً الى سامراء .

ط - جامع أبي دلف

تعد بقايا « جامع أبي دلف » القائمة خارج حدود مدينة المتوكلية في نهاية الشارع الاعظم شمالاً من أبرز الخرائب في منطقة المتوكلية (راجع اللوحتين ٢ و ٧ والتصاوير ٦ و ٧ و ٨) ، على ان الآراء اختلفت في تاريخ انشاء هـذا

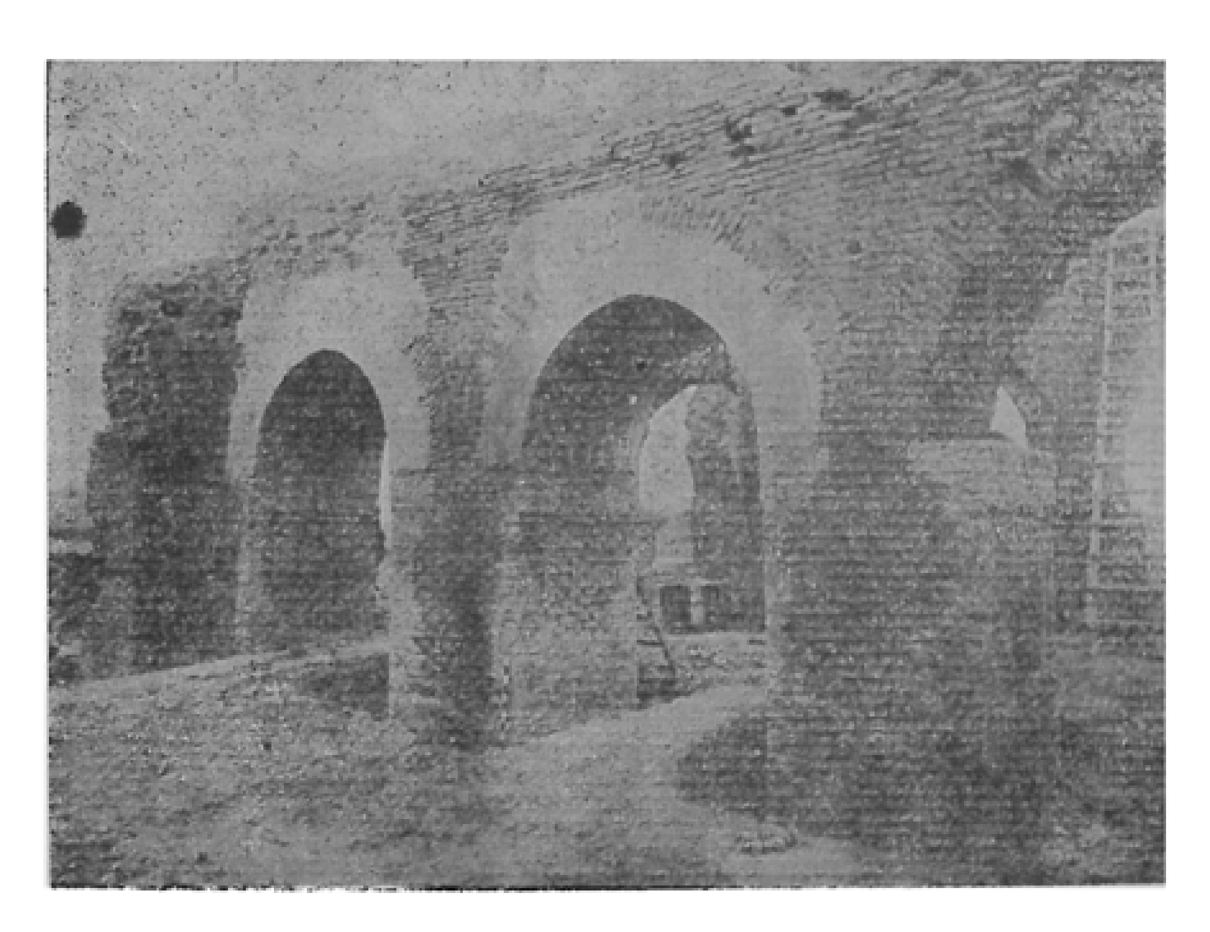


تصوير رقم ٦
جامع ابي دلف (الرواق الاوسط للمصلى بعد الترميم ورفع الانقاض)

الجامع ، فهل كان تابعاً لمدينة المتوكلية فيكون قد أقامه المتوكل أو كان قد أنشيء قبل عهد المتوكل . اما الجامع فيشبه جامع الملوية الذي بناه المتوكل شرقي سر من رأى في أول طرق الحير شبهاً كبيراً ، فهو مستطيل الشكل أيضاً طوله ١٥٨ متراً وعرضه ١٠٨ أمتار وله صحن مكشوف محاط من جهاته الاربع

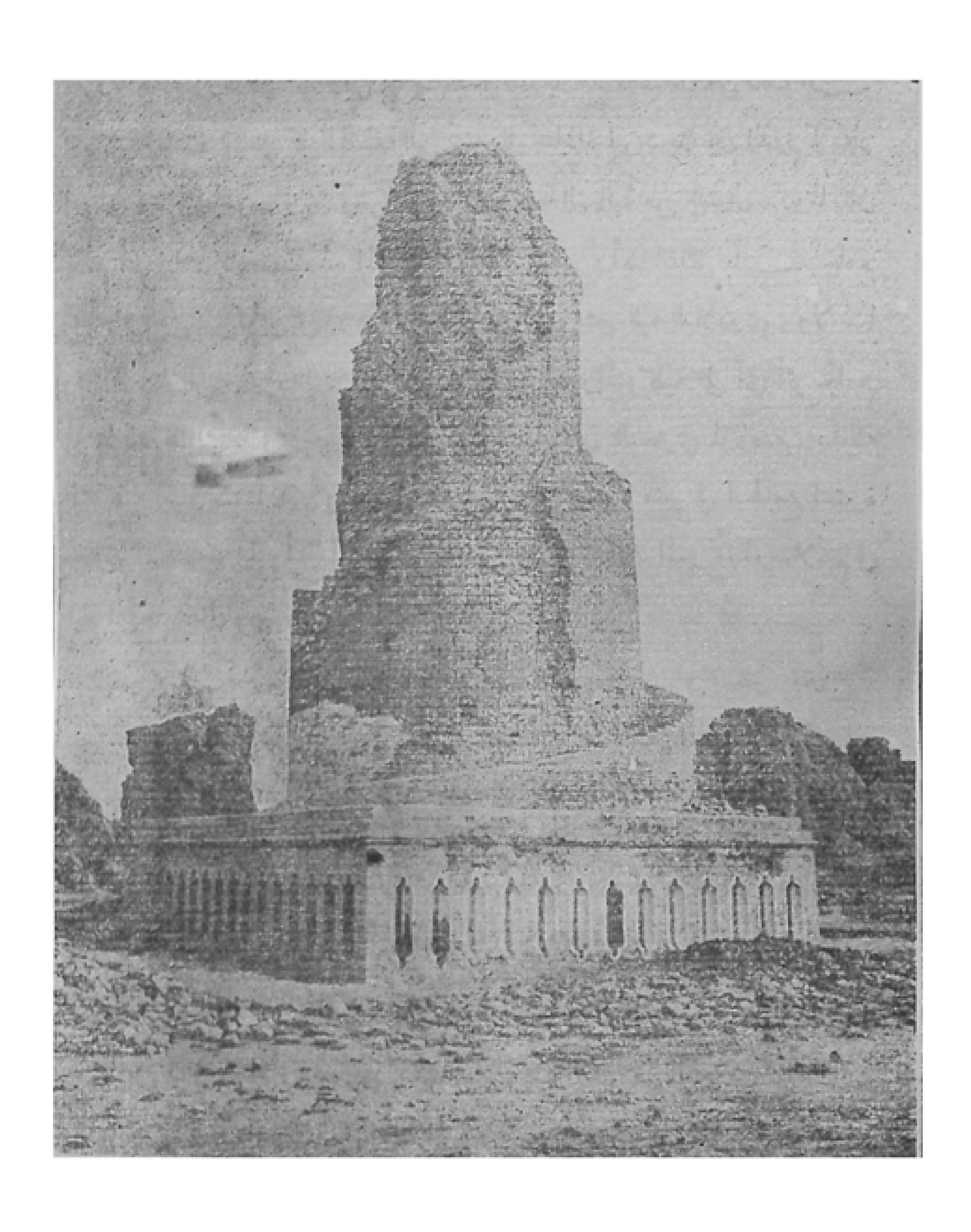
بأروقة والى جانبه مئذنة ملوية الشكل أيضاً ذات مرقاة خارجية يبلغ ارتفاعها عن مستوى التبليط حتى القمة المتهدمة نحو ١٩ متراً .

ومع ان الاعتقاد السائد ان تاريخ انشاء هذا الجامع يعود الى عهد الخليفة المتوكل إلا انه ليس هناك ما يثبت صحة هذا الظن أو خطأه ، غير انه من المعلوم ان المنطقة التي يقع فيها هذا الجامع كانت خالية من البناء في زمن المعتصم وان مكان الجامع يقع على بعد عدة كيلومترات من شمالي حدود آخر البناء الذي



تصوير رقم ٧
جامع أبي دلف (قوسان من أقواس الرواق الاوسط للمصلى)

في الدور (دور العرباني)، فليس من المنطق اذن أن يكون هذا الجامع قد أنشيء في زمن غير زمن المتوكل ، وقد اختير مكانه هذا ليكون متوسطاً بين قصور المتوكلية من جهة وحدود البناء القديم الذي في الدور من الجهة الثانية ، ومما يؤيد ذلك أيضاً قول البلاذري بان المتوكل أحدث المتوكلية « وجعلها فيما بين



تصوير رقم ٨
ملوية جامع أبي دلف بعد ترميم القاعدة ورفع الانقاض

الـكرخ المعروف بفيروز وبين القاطول المعروف بكسرى فدخلت الدور والقرية المعروفة بالماحوزة فيها ، وبنى بها مسجداً جامعاً » . فيستدل من ذلك أن المتوكلية كانت تشمل كل المنطقة التي تمتد على محاذاة نهر دجلة بين الدور (دور العرباني) من الجنوب وبين آخر حدود المتوكلية الشمالية من الشمال . ولما كان جامع أبي دلف يتوسط هذه المنطقة فلا مجال لتغيير رأينا القائل بأن جامع أبي دلف من عمل المتوكل، وهو نفس الجامع الذي يشير اليه البلاذري ، ولا سيما واننا لم نعثر أثناء تحرياتنا للابنية الواقعة داخل سور المتوكلية على أي أثر لجامع أو مئذنة هناك . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان البحتري لما وصف مدينة المتوكلية أشار ضمناً الى وجود جامع فيها والى وجود منبر في الجامع اعتبره جديد الانشاء ، وأن الاولياء كانوا يلتقون في فناء ذلك المنبر أثناء صلاتهم في أيام الجمع ، فقال وهو يصف المتوكلية : ـ

وفسيحة الاكناف ضاعف حسنها　　　برّ لها مفض وبحر مترع
قد سرّ فيها الاولياء إذ التقوا　　　بفناء منبرها الجديد فجمّعوا

ومما يؤيد ان الجامع المذكور هو جامع أبي دلف نفسه ان دائرة الآثار العراقية اهتدت في أثناء تنقيباتها في أبنية الجامع الى وجود محرابين هناك يقع احداهما على ظهر الآخر، وعلى رأيها انه يحتمل ان الأول مشيد عند التأسيس وبعد اكمال تشييد الجامع وجد من الضروري تصغيره حيث انشيء منبر جديد يشغل جزءاً من المحراب الأول . ولعل ذلك هو السبب الذي حمل البحتري على أن يطلق على المنبر اسم « المنبر الجديد » باعتبار انه انشيء بعد مضي بعض الوقت على إنشاء الجامع[1] .

---

(١) راجع البحث المفصل عن جامع أبي دلف في مجلة « سومر » ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، كانون الثاني ١٩٤٧ ص (٦٠ـ٧٦) .

ى - مشروعات الرى فى عهد المتوكل

من أهم الاعمال التي تمت على عهد المتوكل المتصلة بتنسيق وتخطيط مدينة سامراء وضواحيها مشروع القناة (قناة سامراء) الذي يؤمن سحب المياه من دجلة وايصالها الى مختلف المواقع في المدينة . ويشتمل هذا المشروع على قناة خفية تستمد مياهها من نهر دجلة في شمالي الدور (دور تكريت) فتسير مسافة حوالي أربعين كيلومتراً حتى تصل الى قلب العاصمة (سر من رأى)، وقد مدها المتوكل الى الجنوب حتى جوار القادسية . وبفضل هذه القناة تمكن المتوكل من انجاز مشاريعه الجبارة في قلب العاصمة والتوسع شرقي مدينة سامراء باتجاه منطقة الحير ، ومن أهم هذه المشاريع مشروع إنشاء حلبة السباق التي في الحير (حلبة تل العليق) وهي الحلبة التي أمن وصول المياه اليها من دجلة[1] ، ثم مشروع انشاء بركتي قصر الخليفة (دار الخليفة)[2] . وان هذه القناة هي التي مكنت المتوكل من تموين المسجد الجامع (جامع الملوية) الذي انشأه في أول الحير بالمياه الدائمة فجعل فيه على حسب قول اليعقوبي « فوارة ماء لاينقطع ماؤها »[3] .

ولكي يؤمن المتوكل ايصال المياه الى حير الحيوانات ، الذي انشأه جنوبي شرقي مدينة سامراء ، والى البركة الجعفرية (بركة البحتري) التي في الحير المذكور قام بمشروع ري خاص لتحقيق ذلك ففتح نهراً يقال له « نهر نيزك » يستمد المياه من القاطول الاعلى الكسروي وينتهي الى الحير والبركة . ولتموين النهر بالمياه الدائمة ورفع مستوى المياه في القاطول انشأ ناظماً قاطعاً على القاطول

(١) حول الحلبة المذكورة راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٢١

(٢) حول البركتين المذكورتين راجع البحث الذي يلي في الفصل الخامس وما تقدم في ص ٦٨ و٧٠

(٣) حول مشروع القناة المذكورة راجع البحث التالي في الفصل الخامس وما تقدم في ص ١١٩

فأمن بذلك تنظيم المياه في ذلك المكان حسب المقتضى [١]

وأخيراً علينا أن نشير الى مشروع « نهر الجعفري » وهو المشروع الذي انشيء لايصال المياه الى مدينة المتوكلية سيحاً . ويشتمل هذا المشروع على حفر جدول من ضفة دجلة اليسرى في نقطة تقع على بعد حوالي اربعين كيلومتراً من شمال تكريت فيسير جنوباً على محاذاة نهر دجلة مسافة حوالي ستين كيلومتراً حتى يصل المتوكلية . وكان الجدول المذكور يمون بركة القصر الجعفري بالمياه وعلاوة على تموين مدينة المتوكلية بالمياه ، كان يمون السواقي التي على جانبي الشارع الاعظم الذي يمتد بين « المتوكلية » و « كرخ أشناس » ، كما كان يمون أيضاً جامع أبي دلف بالمياه[٢] (راجع لوحة رقم ١). ولكي يستطيع المتوكل الشروع بانشاء مدينة المتوكلية وايصال المياه الى أماكن العمل دون أن يضطر الى الانتظار حتى ينتهي من مشروع النهر أنشأ قناة تسحب المياه من أعالي نهر دجلة وتحملها الى نواحي العمل في المدينة . وتبدأ هذه القناة (قناة المتوكلية) من ضفة دجلة اليسرى بالقرب من التلول المسماة « تلول هطرة » الواقعة شرقي حدود حاوي البو عجيل في نقطة تقع على بعد حوالي اثنى عشر كيلومتراً من شمالي الدور (دور تكريت) وحوالي ثمانية كيلومترات من جنوبي مدينة تكريت[٣]، ثم تمتد الى موازاة قناة سامراء من شرقيها فتخترق الدور وتتابع

---

(١) راجع البحث الذي يلي في الفصلين السادس والسابع .

(٢) حول النهر الجعفري ، راجع البحث الذي يلي في الفصل الثامن

(٣) ان « تلول هطرة » المذكورة كانت موضع قرية « هاطرى » القديمة، وهي القرية التي ذكر ياقوت ان « بينها وبين الجعفرى الذى عند سامراء (أى القصر الجعفرى الذى في المتوكلية) ثلاثة فراسخ وهي دون تكريت واسفل الدور الاعلى المعروف بالخربة (أى دور تكريت) وكان اكثر اهلها اليهود » . وهذا يتفق مع المسافة الحالية بين تلول هطرة واطلال القصر الجعفرى .

سيرها الى جانب قناة سامراء حتى إذا ماقطعت مسافة حوالي أربعة كيلومترات جنوبي الدور انحرفت الى الغرب واتجهت نحو مدينة المتوكلية . وتقطع القناة في طريقها الاخير قناة سامراء كما انها تقطع القاطول الاعلى الكسروي في نقطة تقع على بعد حوالي سبعة كيلو مترات من الدور . ولا تزال آثار شبكة الكهاريز الفرعية التي تتفرع من القناة المذكورة ماثلة للعيان يمكن مشاهدتها في مواضع عديدة داخل مدينة المتوكليه .

الفصل الثاني

النهروان منشؤه ـ تطوره

١ ـ تمهيد

عرضنا في الفصل الأول صورة مجملة لمدينة سامراء القديمة والتطورات التي اعتورت مراحل انشائها ، وليتسنى لنا الوقوف على نظام الري القديم في المدينة علينا أن نستعرض قبل كل شيء الأدوار التي مرّت على مشروع النهروان القديم، وهو المشروع الذي يعدّ العمود الفقري لمنظومات الري القديم في منطقة سامراء .

اما الآثار التي نشاهدها اليوم لهذا النهر التاريخي العظيم على طول الضفة الشرقية لنهر دجلة بين الدور (دور تكريت) والكوت لمسافة ثلثمائة كيلومتر تقريباً فتعود الى عدة عصور واغلة في القدم

وقد كان هذا الجدول اعظم وأوسع جدول عرفه العالم القديم ، ولا شك انه يعد من أطول وأكبر الجداول في العالم حتى في عصرنا هذا . وإذا لاحظنا أن عرضه يبلغ في بعض أقسامه حد المائة والعشرين متراً وعمقه في بعض الأقسام يبلغ أكثر من عشرة امتار اتضحت لنا أهمية هذا المشروع وعظمته . فلا نعجب إذن اذا قال ويلكوكس « ان النهروان كان يؤثر في مجري دجلة تأثيراً محسوساً في موسم الفيضان عندما كان يسحب اقصى حد استيعابه للمياه ». وقد أضاف الى ذلك قوله «لايوجد أي جدول سواء أكان في مصر أو في الهند يمكن ان يضاهي النهروان في حجمه ، فان أوسع جدول في مصر لايتجاوز عرضه الستين متراً وعمقه العشرة امتار » .

٢ ـ صدر النهروان

للنهروان ثلاثة مداخل رئيسية تتفرع من الضفة اليسرى لنهر دجلة في منطقة سامراء اثنان منها يتفرعان من جنوب سامراء ، أما المدخل الثالث فيتفرع من شماليها . ويؤلف المدخلان الجنوبيان المجرى الرئيسي الاصلي للنهروان وقد انشئا على حسب الطريقة القديمة المتبعة في ذلك الوقت ، أي على أساس انشاء مدخلين للجدول أحدهما خاص بموسم الفيضان يستعمل عند ارتفاع مناسيب المياه في النهر والثاني خاص بموسم الصيهود (موسم قلة المياه) يستعمل عند هبوط مستوى النهر .

ومن المفيد ان نذكر في هذا الصدد ان الاقدمين اعتادوا أن يضعوا تصاميم جداولهم من دون نواظم في الصدور ، إلا انهم كانوا يعوضون عن ذلك بانشاء مدخلين لكل جدول يفتحونه ، فيستخدم اعلاهما في الموسم الصيفي ، فلا يفتح إلا بعد ان تغدو المياه رائقة وخالية من الطمي ، أما المدخل الذي يقع عادة على بعد عدة كيلومترات اسفل المدخل الأول فينشأ قعره بمنسوب عال بحيث لا تجري فيه المياه الا بعد ارتفاع مستوى مياه النهر في موسم الفيضان ، أي عندما تكون المياه مشبعة بالمواد الغرينية . ومن فوائد هذه الطريقة انها تؤمن المحافظة على المدخل الصيفي من تراكم ترسبات الطمي فيه ، كما انها تحقق الاستفادة من موقع المدخل الصيفي الذي تكون امامه مياه النهر في أعلى منسوب يمكن الحصول عليه في موسم الصيهود عندما تشح المياه ويهبط مستواها في النهر . وأخيراً ان هذه الطريقة تسهّل ضبط مياه الفيضان في المدخل الاسفل ذي القعر المرتفع حيث يكون مستوى المياه في النهر أمام هذا المدخل أوطأ منه أمام المدخل الاعلى[1] .

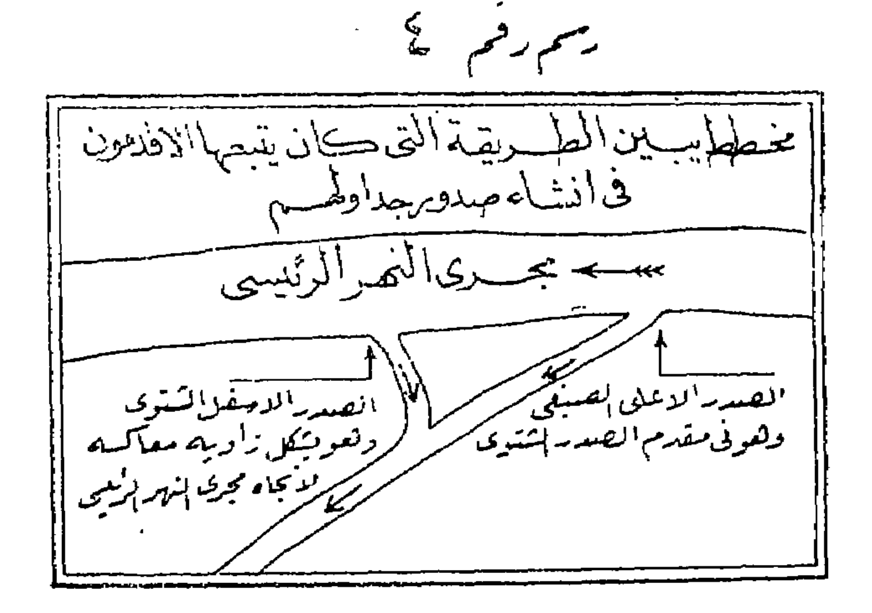
---

(١) راجع الجزء الثاني من كتابنا « وادي الفرات » حيث يجد القارىء في ص ١٢٤ منه بحثاً عن مشكلة الطمي وجداول الري القديمة .

وعلى هـذا الأساس انشيء مدخلان للنهروان ، وهما الواقعان في جنوبي سامراء ، فكان مدخل المجرى الشمالي المعروف اليوم باسم « نهر القائم » أو « نهر الارفاف » يستعمل أيام شحة المياه ، على حين ان مدخل المجرى الواقع جنوبي « نهر القائم » ، وقد رأينا ان نطلق عليه اسم « مجرى الصنم » للاسباب التي ستأتي فيما بعد ، كان يستعمل في موسم الفيضان . ويستدل من تدقيق مناسيب المياه في مجرى دجلة أمام كل من المدخلين المذكورين ان مستوى مياه نهر دجلة كان أمام المدخل الأسفل أوطأ منه أمام المدخل الأعلى بما يقرب من ثلاثة أمتار .

ونلاحظ ان المدخل الأسفل ، الذي كانت تجري فيه مياه الفيضان ، انشيء في اتجاه معاكس لمجرى النهر الرئيسي كما مبين في المخطط التالي (رسم رقم ٤) . ويظهر ان قد كان الغرض من ذلك تقليل كمية الطمي التي تدخل

رسم رقم ٤



الى الجدول بنتيجة تخفيض سرعة المياه الذي يتجه نحو المدخل ، على اعتبار ان انخفاض سرعة جري المياه يقلل من كمية الطمي التي تحملها هذه المياه الى الجدول .

ومن المهم ذكره في هذا الصدد ان السير ويليم ويلكوكس كان قد اتبع في

وضع تصاميم مشاريعه التي اقترحها على نهر الفرات الطريقتين المذكورتين ، فاقترح إنشاء مداخل مرتفعة خاصة بالفيضان واخرى خاصة بموسم الصيهود في كل الجداول التي وضع تصاميمها على نهر الفرات ، كما انه اقترح إنشاء صدر جدول الحلة معاكساً لجرى التيار ومواجهاً قناطر الهندية على نفس الطريقة القديمة الآنفة الذكر[١] . ولا شك أن السير ويليم ويلكوكس اقتبس هاتين الطريقتين من القدماء بعد دراسته لمشاريع الري في العراق دراسة دقيقة ، ولا عجب في ذلك فهو الذي كان يقول : « ان العراق في غنى عن تخطيط جديد لشق الترع فان في الآثار الباقية من الدور العباسي كفاية لتنظيم أمر الزراعة والري في العراق » .

٣ - نهر القائم - مجرى النهروان الصيفي

يتفرع صدر مجرى القائم من نهر دجلة في نقطة تقع على بعد حوالي ١١ كيلومتراً من جنوبي سامراء[٢] عند برج القائم الواقع على الضفة اليمنى من المجرى[٣] (راجع التصوير رقم ٩ - برج القائم) ، لذلك يسمى هذا المجرى

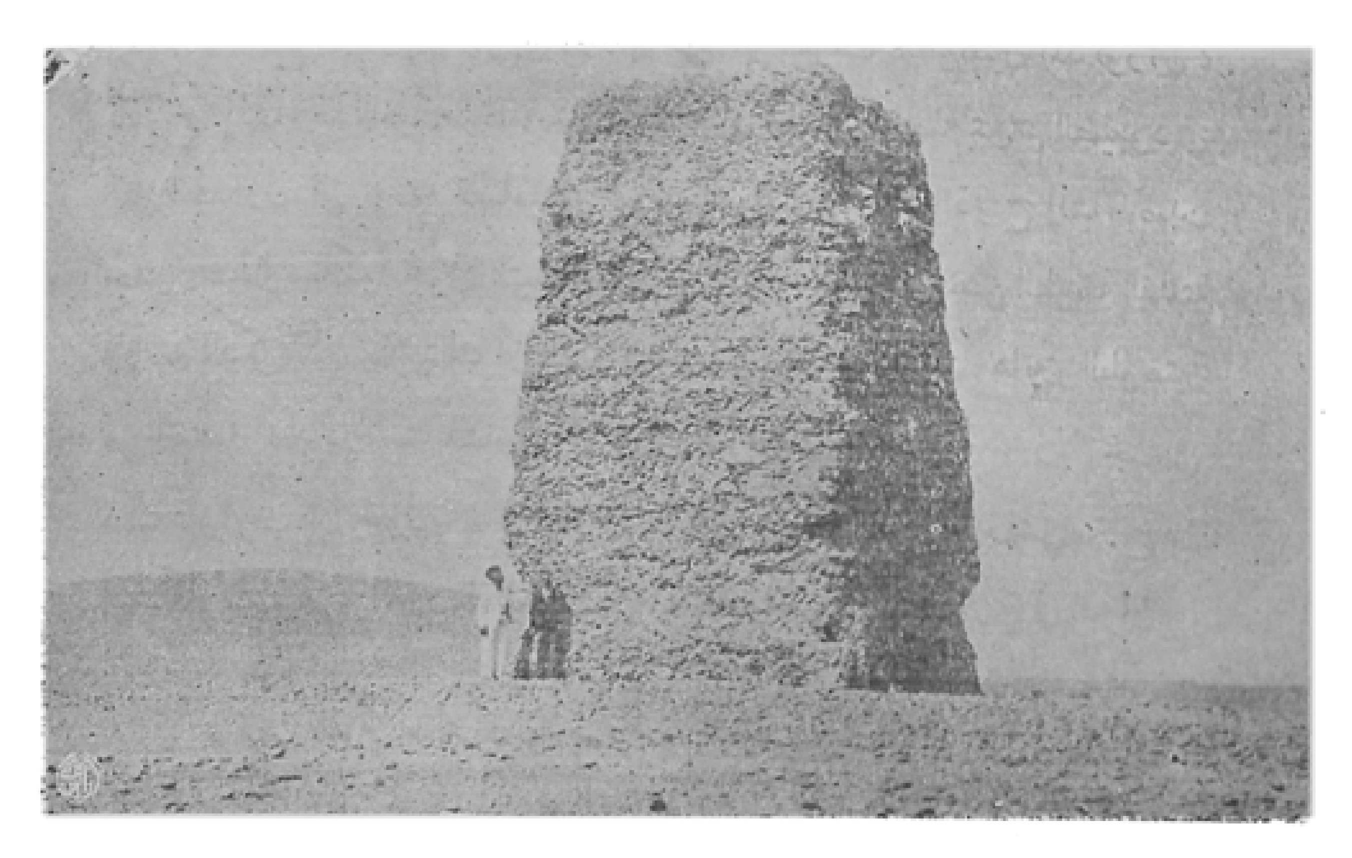
---

(١) حول تفاصيل مقترحاته المذكورة راجع الجزء الثاني من كتابنا « وادي الفرات » ص ١٢٥ - ١٢٧ و ص ٣١٣ - ٣١٥ وكذلك كتابنا « قناطر الهندية - تصميمها تاريخها اهدافها » (بالانكليزية) ص ٥٨ - ٦٢ .

(٢) تشير هذه الابعاد الى المسافات التي تمتد على طول نهر دجلة .

(٣) يتكون هذا البرج من بناء مربع الشكل يبلغ طول ضلعه حوالي ستة امتار وارتفاعه عن الأرض المجاورة ١٥ الى ٢٠ متراً ويقع على فم مجرى القائم تماماً وقد سمي في اكثر الخرائط باسم « امام القائم » على حين انه لا يوجد فيه غير آثار منارة قديمة هي أقرب الى شكل النصب التذكاري أو البرج من القبر . ويظهر من الآثار المتبقية ان بناء البرج الداخلي بني بالجص والحصى الخشن ، والارجح ان وجه البناء كان مغلفاً بطبقة من الآجر عليها بعض الكتابة وان هذه الطبقة تخربت أو تلفت منها مادة الآجر التي فيها لاستعمالها في أبنية سامراء . ويلاحظ في الجهة الشرقية من البرج آثار يستدل منها على انه كان في تلك الجهة سلم مدرج يصعد الى قمة البرج .

ويعتقد البعض بان البناء كان نصباً تذكارياً اقيم بمناسبة انشاء الجدول وهي الطريقة المتبعة منذ اقدم العصور حتى الآن عند انشاء الجداول فيدون عادة على النصب



تصوير رقم ٩ ـ برج القائم

باسم « مجرى القائم » مع ان البعض يسميه باسم « نهر الارفاف » . ويسير مجرى القائم هذا بعد ان يترك حصن القادسية على ضفته اليمنى[١] في الاتجاه الجنوبي الشرقي محاذياً الى نهر دجلة ، فيخترقه نهر العظيم قرب مصب العظيم في دجلة ، ثم يخترقه نهر الخالص قرب مدينة الخالص الحالية ويخترقه نهر ديالى قرب مدينة بعقوبة . وبعد ذلك يجري موازياً للضفة اليسرى لنهر ديالى

= اسم القائم بالمشروع وتاريخ انشاء المشروع وغير ذلك من الامور المتعلقة بالمشروع. وقد اختلف المحققون في أمر تعيين تاريخ هذا البناء فبعضهم، وفي مقدمة هؤلاء المس بيل ، يعتقد بانه أقيم عندما انشيء المشروع ولذلك فهو أقدم من العصر العربي .

والذي نراه هو ان البرج قديم جداً والارجح ان البناء الاصلي يرجع الى العصر الذي انشيء فيه النهروان في الاصل ثم اعيد انشاؤه على عهد الرشيد عندما اعاد الرشيد حفر المجرى نفسه ، ولعل المتوكل أضاف اليه بعض الزخارف أو قام بتقويته . والدليل على هذا ان الحموي يذكر بان القائم « بنية كانت قرب سامراء من أبنية المتوكل » كما ان ابن عبد الحق يؤيد ذلك بقوله ان القائم « ثنية قرب سامراء من أبنية المتوكل » .

(١) حول هذا الحصن راجع البحث التالي الخاص بالقادسية في الفصل الرابع .

الحالي ، وبعد أن يجري في هذا الاتجاه مسافة زهاء ثلاثين كيلومتراً جنوبي بعقوبة يترك نهر ديالى فينحرف نحو الشرق مخترقاً الأراضي الزراعية الواقعة على ضفة نهر دجلة اليسرى حتى ينتهي بالقرب من مدينة الكوت الحالية ، وبذلك يكون قد قطع مسافة ثلثمائة كيلومتر تقريباً في مجراه هذا . ويستدل مما أورده المؤرخون العرب بان مجرى القائم المذكور هو نفس المجرى الذي عرفه العرب بأسم « القاطول » في اقسامه العليا ، وهو القاطول الذي تؤيد لنا كتاباتهم واشعارهم ان الرشيد أعاد حفره وبنى عليه قصراً ليقيم فيه عندما يخرج للتنزه هناك وقد سمي باسم « نهر أبي الجند »[١] .

٤ - نهر الصنم - مجرى النهروان الشتوي

اما مدخل النهروان الأسفل (أي المدخل الشتوي) ، وهو المدخل الأخير من الجنوب ، فيتفرع من نهر دجلة في نقطة تقع على بعد ستة كيلومترات تقريباً من جنوبي مدخل مجرى القائم ومن أمام « حصن القادسية » مباشرة[٢] ، ويمتد مجرى هذا النهر مسافة حوالي أربعة عشر كيلومتراً يسير فيهـا محاذياً لمجرى دجلة أيضاً ثم يلتقي بمجرى القائم شرقي خان صعاوية وعرب رشيد على مسافة حوالي ثلاثة كيلومترات عنها . وعلى الرغم من ان مجرى دجلة الحالي قد اكتسح معظم آثار هذا المجرى إلا أنه لا تزال آثار معظم اقسامه بيّنة في جنوبي القادسية حيث يبلغ عرضه هناك حوالي ثلاثين متراً وارتفاع ضفتيه اكثر من اثنى عشر متراً ، ولما كان هذا المجرى هو مجري الفيضان فلا عجب اذا كان أوسع من المجرى الشمالي (مجرى القائم) .

ولا يزال يعرف الموضع الذي يتفرع منه هذا المجرى بالنسبة الى نهر دجلة

---

(١) حول نهر أبي « الجند » المذكور راجع البحث التالي في الفصل الرابع .

(٢) حول « حصن القادسية » المذكور راجع البحث التالي في الفصل الرابع .

بـ « الصنم » حيث لا تزال آثار صدر المجرى وضفافه العالية ماثلة للعيان لمسافة مائتي متر تقريباً وذلك في شمال غربي القادسية بالقرب من معمل الزجاج القديم . ويرجع منشأ هذه التسمية الى عثور الأهلين على صنم فوق الضفة الغربية للمجرى في هذا المكان ، وكان ذلك بطريق الصدفة وحين جرفت مياه السيول النصف الاعلى للصنم من مكانه الذي في أعلى ضفة النهر فحملته الى الوادي المجاور . ولعلّ الصنم المذكور كان قد نصب على فم المجرى فى نفس الوقت الذي انشيء فيه النهر جرياً على العادة المألوفة بانشاء مثل هذه النصب التذكارية على فوهات الجداول . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن المكان الذي يقع فيه الصنم المذكور يتفق تماماً مع الموضع الذي يقع فيه البرج القائم على فم المجرى الاعلى (مجرى القائم) .

ولقد ذكر فيليكس جونس،الذي مسح منطقة النهروان قبل مئة سنة تقريباً، أن الدكتور روس الذي زار هذه المنطقة فيسنة ١٨٣٤ عثر على النصف الاسفل من هذا الصنم فحمله معه وبقي في حوزته . وقد ذكر الدكتور روس ان الصنم مصنوع من الحجر الاسود على هيئة التماثيل المصرية القديمة مما يدل على انه يرجع الى عهد قديم جداً . وقد وصف الدكتور روس الموضع الذي عثر فيه على النصف الاسفل من الصنم فذكر انه وجد هناك اطلالا لبناء مستطيل من الآجر المفخور المصنوع صنعاً دقيقاً وقد جرف مجرى نهر دجلة نصف هذا البناء . اما الآن فلا يوجد أي أثر للبناء المذكور في هذا الموقع وذلك بنتيجة قلع الاهلين الآجر المتبقي منه .

ولا شك ان موقع مدخلي النهروان المذكورين (مدخلي القائم والصنم) كان موقعاً عسكرياً ستراتيجياً مهماً بالنسبة الى الظروف التي انشيء فيها مشروع النهروان، ونعني بذلك العداء الذي كان مستحكماً بين الرومان والفرس . ولما كان أمر المحافظة على هذين المدخلين وحراستهما من خطر غزو الرومان الذي كان

يهدد المملكة الفارسية من ذلك الجانب من أهم الامور التي كان على رجال الحكم اعارتها اهتمامهم فقد انشأوا حصناً منيعاً بالقرب من نهر دجله في داخل المثلث الذي يتكون في موضع التقاء مجرى القائم بمجرى الصنم لتحقيق حراسة المدخلين المذكورين ومنع وقوعها بيد الاعداء . ولا تزال آثار هذا الحصن التاريخي باقية حتى الآن وهي تقع بين مجريي القائم والصنم . أما الحصن فيتألف من سور ضخم مثمن الاطراف مدعم بدعامات ضخمة وهو يعد من أهم آثار منطقة سامراء[1] .

٥ ـ القاطول الاعلى الكسروي

ان ما تقدم يتصل بالمجرى الرئيسي للنهروان الذي يبدأ بمدخليه الشتوي والصيفي في جنوبي سامراء ، اما المجرى ذو المدخل المنفرد الذي يبدأ من شمالي سامراء فكان يعرف باسم القاطول الأعلى الكسروي نسبة الى كسرى أنوشروان الذي أمر بحفره لأرواء الاراضي الواقعة في جنوبي سامراء على ضفتي مجرى النهروان الرئيسي في القسم الأعلى منه ، وهي الاراضي المرتفعة بالنسبة الى مستوى صدر مجرى النهروان المذكور . وأهم ما في هذه الاراضي القسم الواقع بين مجرى النهروان الرئيسي الذي يتفرع من جنوبي سامراء وبين الضفة اليسرى من مجرى دجلة القديم الذي كان يسير آنذاك غربي مدينة بلد الحديثة فيجري غربي مجرى دجلة الحالي ثم يلتقي به شمالي مدينة الكاظمية الحالية[2]. وقد سمي هذا المجرى بالقاطول الاعلى لتميزه عن القاطول الاسفل ، أي نهر القائم الذي كان يسمى بالقاطول أيضاً في العهد العربي .

ويبدأ صدر القاطول الاعلى الكسروي في الدور (دور تكريت) فيسير

(١) راجع البحث الذي يلي في الفصل الرابع (المواد ١١و١٢و١٣)

(٢) راجع البحث التالي الخاص بمجرى دجلة القديم في المادة (١٣) من هذا الفصل

جنوباً على محاذاة الضفة اليسرى لنهر دجلة مسافة نحو ٦٥ كيلومتراً ثم يلتقي مجرى القائم ، أو القاطول الاسفل، في نقطة تقع على بعد ٣٢ كيلومتراً من فمه . وكان قد انشيء سد غاطس في نهاية القاطول الاعلى هذا لتحويل كل مياهه الصيفية الى الفروع التي تتشعب منه أمام السد (راجع الرسمين ٦ و ٧) [١] .
وكانت الجداول التي تتفرع من الضفة الغربية تعبر من فوق مجريي النهروان الرئيسي (مجريي القائم والصنم) على عبارات ضخمة (Aqueducts) ومن ثم تمتد نحو مجرى دجلة القديم (راجع اللوحة رقم ٢) . ومن جملة هذه الجداول الفرع الذي فتح من شمال السد الغاطس لحمل المياه الى « حصن القادسية » . وكان هذا الفرع يقطع الاراضي الواقعة بين القاطول الاعلى والقاطول الاسفل (مجرى القائم) ، وبعد ان يعبر من فوق نهر القائم على عبارة من بناء الآجر يفضي الى داخل الحصن (راجع الرسمين ٨ و١٣) [٢] .

المنشآت الرئيسية والمدن المهمة على النهروان والقاطول الكسروي

أن أهم المنشآت على النهروان هي النواظم والسدود المنشأة على مختلف المواقع من مجراه بغية حجز المياه ورفع مستواها لتحويلها الى الجداول الفرعية التي تتفرع من أمام تلك النواظم والسدود ، وأول بناء من هذا النوع ابتداء من الشمال السد الغاطس (Weir) الواقع في ذنائب القاطول الكسروي عند ملتقاه بمجرى النهروان الرئيسي (مجرى القائم) ، وهو السد الذي سماه المؤرخون العرب باسم « القناطر » ، وهو لا يزال محافظاً على هذه التسمية حتى الآن . وقد انشيء هذا السد من بناء ضخم يقوم على أساس من الآجر ومونة النورة والرماد ، فيمتد سطحه بتسريح منتظم فوق طبقة سميكة من خرسانة الجص

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بالقاطول الكسروي
(٢) راجع البحث التالي الخاص بحصن القادسية في الفصل الرابع

والنورة والحصى . ولا يزال قسم السد الذي يقع على محاذاة الجناح الايمن باقياً الى الآن ، وقد تعذر على الاهلين انتزاع الآجر الذي في أسفل طبقة الخرسانة لصعوبة قلع الخرسانة بالآلات اليدوية.وفيما يلي القناطر سد آخر على مجرى النهروان الرئيسي يقع في نقطة تبعد حوالي ٢٥ كيلومتراً من فمه . وكان يعرف هذا السد باسم « الشاذروان الاعلى » لتمييزه عن سد آخر يقع في جنوبه ، وكانت تتفرع من أمامه عدة جداول كبيرة أهمها المعروفة اليوم باسم « خشوم الخور » وهذه كانت تروي الاراضي الواقعة بين مجرى ديالى الحالي والضفـــة اليمنى للنهروان ، وهي المنطقة التي تقع فيها « خفاجي » و « بسمايا» و « المدائن » القديمة(راجع اللوحة رقم ٤) . هذا فيما يختص بالجهة الغربية ، اما فيما يختص بالجهة الشرقية فـكانت هناك عدة جداول تتفرع من أمام السد أيضاً لأرواء الاراضي الشرقية وأهمها الجدول الغربي الذي تسمى آثاره اليوم باسم « خيوط الاعوج »(١) .

ونأتي أخيراً الى أهم ماكان على مجرى النهروان من منشئات رئيسية ونعني بذلك السد القائم في القسم الاسفل من المجرى ، وهو السد الذي كان يسميه القدماء باسم « الشاذروان الاسفل » لتمييزه عن « الشاذروان الاعلى » الذي مر ذكره ، ويسميه الاهلون اليوم باسم « القنطرة » . ويقع هذا السد بين مدينة « عبرتا » وبين مدينة«اسكاف بني الجنيد » (المدينتين المهمتين على القسم الاسفل من مجرى النهروان)(٢) في نقطة تبعد زهاء ١٧٧ كيلومتراً عن فمه . ويمتاز هذا السد في كونه أضخم السدود التي على مجرى النهروان كما انه يمتاز في تصميمه الذي يشتمل على جدار ضخم يمتد في الجانب الغربي من السد وعلى هويس (ممر للسفن) والى جانب ذلك الجدار . ويستدل من آثار بناء هذا السد التي لا تزال باقية الى الآن انه اجريت ترميمات واضافات فيه في ادوار

---

(١) راجع البحث الذي يلي في الفصلين التاسع والعاشر .

(٢) راجع البحث عنهما في الفصل العاشر .

مختلفة لاختلاف نوع البناء ومادة البناء في مختلف اقسامه . ومما لا شك فيه أن القسم الاكبر من هذه الترميات والاضافات اجريت خلال العهد العربي . وكان يتفرع من أمام السد جداول واسعة عدة تمتد الى جانبي النهروان لارواء الاراضي السهلة الواقعة في منطقة اسكاف بني الجنيد ، ولا تزال آثار هذه الجداول وضفافها العالية ماثلة للعيان تؤلف تلولاً عالية تستوقف النظر من مسافة بعيدة ، وهي تقع في وسط أراضي الجزيرة الصحراوية ، كما ان بقايا النواظم التي كانت في فوهات هذه الجداول لا تزال تشاهد في مواضعها وهي مكوّنة من الآجر والنورة في الاساس ومن الآجر والجص في القسم الاعلى من البناء .

اما المنشآت التي كانت على نهر القاطول الكسروي فأهمها الناظم القاطعي الذي انشأه المتوكل هناك وهو يقع في نقطة تبعد نحو ثلاثين كيلومتراً عن فم النهر . وقد أنشيء هذا الناظم لحجز المياه ورفع منسوبها بغية تحويلها الى « نهر نيزك » الذي فتح من امام السد في الضفة الغربية ليروي المنطقة الواقعة بين القاطول الكسروي ونهر القائم[١] ، وهي المنطقة التي انشأ المتوكل فيها حير الحيوانات وبركته المشهورة التي وصفها البحتري وسيأتي البحث عن ذلك في الفصول الآتية .

وكان عدا السدود الرئيسية المذكورة جسوراً مهمة على مجرى النهروان تقع على الطرق الرئيسية ، فأهم هذه الجسور من الناحية الستراتيجية الجسر الذي انشيء في مدينة النهروان الواقعة على بعد زهاء ١٢٠ كيلومتراً من فم مجرى النهروان الذي في القائم وعلى بعد نحو عشرين كيلومتراً من شمالي شرقي مدينة بغداد ، وهو الجسر الذي كان يقع على طريق خراسان العام، وقد عرفت مدينة النهروان باسم مدينة جسر النهروان نسبة للجسر المذكور . وقد تردد ذكر مدينة

---

(١) راجع ماتقدم في صفحة ١٤١

جسر النهروان هذه فيما كتبه المؤرخون من العرب لمناسبة الحوادث المهمة التي وقعت فيها في مختلف العهود التاريخية من جملتها واقعة النهروان المشهورة التي اندحر بها الخوارج سنة ٣٨ هـ[١]. وكان في جنوب جسر النهروان المذكور جسراً آخر في مدينة عبرتا الواقعة على بعد ٣٨ كيلومتراً من مدينة النهروان جنوباً. وكانت مدينة عبرتا هذه مدينة رئيسية على عهد الفرس تقع على الطريق العام بين المدائن (الايوان)، التي جعلها الفرس عاصمتهم الشتوية، وبين بلاد فارس[٢]. أما في الناحية الشمالية فكانت جسور رئيسية على مجرى القائم ومجرى الصنم بالقرب من صدريهما على الطريق العام بين بغداد وسامراء[٣]. ويمكن مشاهدة آثار الجسر الذي على مجرى القائم وهو يقع على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من فمه شرقي برج القائم.

أما الجسور التي كانت على القاطول الكسروي فأهمها الجسر التاريخي المشهور المعروف اليوم باسم « قنطرة الرصاصي »، ويقع هذا الجسر على مسافة سبعة كيلومترات ونصف من فم مجرى القاطول المذكور، وكان مبنياً بالاحجار البازلتية السوداء، وقد استعمل الرصاص في بنائه مما حمل الناس على تسميته باسم « قنطرة الرصاصي » وتسمية المجرى الذي تقع القنطرة عليه باسم « مجرى الرصاصي[٤] ». وقد أشار ابن سرابيون الى جسرين آخرين على المجرى المذكور في جنوب قنطرة الرصاصي أحدهما من الحجارة عند الايتاخية والثاني من الزواريق عند المحمدية[٥].

اما المدن الرئيسية التي كانت على مجرى النهروان فان أحسن وصف تاريخي لها

---

(١) راجع البحث الذي يلي في الفصلين التاسع والعاشر.

(٢) حول مدينة عبرتا راجع البحث الذي يلي في الفصل العاشر.

(٣) حول الطريق بين بغداد وسامراء راجع البحث الذي يلي في الفصل التاسع.

(٤) حول هذا الجسر راجع البحث الذي يلي في الفصلين الثالث والثامن.

(٥) راجع ماتقدم في صفحة ١٣١

وللنهروان نفسه الوصف الذي دوّنه ابن سرابيون في أواخر القرن التاسع الميلادي فندرجه ادناه لأهميته، وقد بدأ به من فم القاطول الكسروي قال : ـ « ويحمل من دجلة من شرقيها القاطول الاعلى الكسروي أوله أسفل دور الحارث[1] بشيء يسير مماس لقصر المتوكل على الله المعروف بالجعفري[2] وعليه هناك قنطرة حجارة[3] ثم يمر الى الايتاخية وعليه هناك قنطرة كسروية ثم يمر الى المحمدية وعليه هناك جسر زواريق ثم يمر الى الاجمة قرية كبيرة ثم يمر الى الشاذروان ثم يمر الى المأمونية وهي قرية كبيرة ثم الى القناطر وهذه قرى عامرة وضياع متصلة ثم يمر الى قرية يقال لها صولى (ذكرت بعده صلوى) وباعقوبا ويسمى هناك تامرّا ثم يمر الى باجسرى ويجيء الى الجسر المعروف بجسر النهروان ثم يمر الى الشاذروان الأعلى ثم يمر الى جسر بوران ثم يمر الى عبرتا ثم الى برزاطية ثم الى الشاذروان الاسفل وهذه قرى وضياع جميلة ثم يمر الى اسكاف بني الجنيد وهي مدينة في جانبين والنهر يشقها ثم يمر بين قرى متصلة وضياع مادة الى أن يصب في دجلة أسفل ماذرايا بشيء يسير في الجانب الشرقي » . وسيأتي البحث عن كل من هذه المدن والمواقع في مجرى فصول الكتاب الآتية .

٧ ـ منشأ النهروان

حاولنا فيما تقدم أن نحيط على قدر الامكان بالمواضيع المتشعبة المتعلقة بوضع النهروان، ويمكننا الآن ابداء بعض الملحوظات الاجمالية عن منشأ النهروان . أما فيما يختص بتاريخ انشاء النهروان فيكاد يكون اجماع على انه انشيء على عهد الساسانيين بدليل ان البلاد اجتازت في هذا العهد خطوات واسعة في مضمار الرقي والعمران . ولعلّ أعظم رخاء شاهده العراق انما كان في عهد ملوك ساسان

(١) راجع البحث الذي تقدم عن الدور في صفحة ٥٨

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن القصر الجعفري في صفحة ١٣٣

(٣) هي « قنطرة الرصاصي » التي تقدم البحث عنها

حيث ازدهر عمران الري بصورة خاصة في هذا العهد فأعيد احياء معظم مشاريع الري القديمة المهملة وانشئت السدود الضخمة لاستغلال مرافق البلاد الى اقصى حدّ ممكن . وقد امتاز هذا الدور بما تمتع به من استقرار سياسي إذ قامت فيه سلطة موحّدة على انقاض النظام العشائري فوضعت الركن المتين لنهضة عمرانية جديدة شملت طول البلاد وعرضها ، ومما ساعد على نمو تلك النهضه تأثير العقيدة الزوروستيرية التي أصبحت ديانة المملكة في عهد الساسانيين ، وهي العقيدة التي جعلت تعاليمها الاهتمام بالزراعة واصلاح الارض وتربية الحيوانات فرضاً مقدساً . ويظن أن أكثر مشاريع الري القديمة كمشروع النهروان وغيره من المشاريع المهمة الاخرى كانت قد أسست في ذلك العهد . وقد كتب السير ويليم ويلكوكس في وصف أعمال الري في هذا العهد قال : « ولعل أعظم رخاء شاهدته دلتا العراق انما كان في أيام ملوك الفرس الساسانيين في أول العهد المسيحي ، حيث كان جدول النهروان الواسع الذي يبلغ عرضه أربعمائة قدم وعمقه خمسة عشر قدماً يروي كل المنطقة الواقعة شرقي نهر دجلة » .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن إنشاء النهروان كان مقروناً بعوامل عسكرية تستهدف وقاية البلاد من غزوات الرومان ، فيقول هؤلاء بان الفرس قاموا بانشاء هذا المشروع بعد أن شعروا بأن القطر العراقي الذي كان في حوزتهم أصبح مهدداً من جهة شرق دجلة ، حيث صار الرومان يسلكون طريق نصيبين أو سنجار أو أرمينية في غزواتهم للعراق ، فينزلون بسهولة عن طريق السهول الآشورية شرقي دجلة في المواسم الملائمة حتى باب طيسفون . وقد شعر الفرس بأن بقاء هذا السهل بالشكل الذي كان عليه مما يهدّد كيان دولتهم وانهيار امبراطوريتهم فقاموا بانشاء النهروان كمشروع دفاعي في الدرجة الاولى ، أما فوائده الزراعية فكانت في بادىء الأمر ثانوية ولكنها أصبحت الهدف بعد أن زال خطر الغزو على عهد العرب . وغير معلوم بالضبط في أي من عصور

عواهل الفرس انشيء مشروع النهروان ، على أن هناك من يعتقد بأنه إذا كان بدىء به على عهد العواهل الاول فانما لا شك فيه انه تم في زمن سابور الثاني ذي الاكتاف الذي تمتع عهد حكمه الطويل بفترة صلح طويلة مكّنته من انجاز هذه المشاريع دون ما اعتراض أو حائل .

أما تسمية النهروان فهناك ما يدل على انها قديمة للغاية وقد جاء ذكر هذا النهر في اسطوانة اكتشفت في خرائب « خفاجي » الواقعة شرقي نهر ديالى الحالي بين بعقوبة وبغداد ، وكان وروده فيها صريحاً وانه كان يخترق مقاطعة « اشنونا » التي تقع فيها مدينة « اشنونا » ، ويرجح ان خرائب تل اسمر الواقعة على بعد ٣٢ كيلومتراً من شمالي شرقي خفاجي من بقايا مدينة « اشنونا » . والظاهر ان هذه الاسطوانة كتبت على عهد شمسو ايلونا بن حمورابي وخليفته الذي ورد اسمه مقروناً باسم الموقع « دور شمسو ايلونا » المسمى « خفاجي » ، الآن ، وهي تعود الى ما قبل ١٩٠٠ ق . م . على الاقل . والارجح ان النهروان كان في ذلك الدور يقتصر على القسم الذي يمتد بموازاة نهر دجلة بين ديالى والكوت فقط وانه كان يستمد مياهه من نهر ديالى مباشرة أو من أحد فروع ديالى التي كانت تتفرع من جوار مضيق جبل حمرين .

وقد ذكر ياقوت ان للنهروان اسمين أحدهما فارسي والآخر سرياني فالفارسي جوروان والسرياني تامرا فعرّب الاسم الفارسي فقيل نهروان والعامة يقولون نهروان بكسر النون على خطأ .

ومما يلفت النظر ان كلمة « نهروان » مصطلح عليها للدلالة على النهر الكبير أو عمود النهر الرئيسي بصورة عامة ، إذ يلاحظ ان كلمة نهروان تطلق بصورة عامة على الانهر الكبيرة المندرسة من دون تمييز . ومثال ذلك ان الاهلين يطلقون هذه التسمية على نهري « روذان » و « البت » في منطقة العظيم وذلك على الرغم من انهما معروفان باسميهما هذين ، ذلك مما يدل على ان كلمة نهروان

قديمة للغاية ، ويستفاد من الكتابات القديمة بانها كانت بالاصل (ناران) ثم صارت (نهروان) وأخذت هذه الكلمة تستعمل بعد ذلك للدلالة على النهر الكبير بصورة عامة

٨ ـ السدان القديمان على النهرين «ديالى» و«العظيم»

ان من جملة الاعمال التي كان يتطلبها مشروع النهروان ضبط مياه النهرين «ديالى»و«العظيم»وتحويل مجريهما ليتسنى للنهروان اجتيازهما في طريقه الذي يمتد به من فمه عند القائم الى جوار الكوت. وقد عالج الاقدمون ذلك بانشاء سدين ضخمين من الاحجار على المجريين المذكورين لتحويل مياههما عن اتجاهيهما الاصليين. وقد انشيء هذان السدان في الموضع الذي يقطع فيه كل من النهرين سلسلة جبال حمرين ، فاقيم سد ديالى بالقرب من منصورية الجبل ، وسد العظيم في الموضع المعروف بـ « البند » . ولا يعلم تاريخ انشاء هذين السدين ، كما انه لا يعلم ما إذا كان مجري ديالى والعظيم وتحويل اتجاهيهما الاصليين من أجل النهروان الذي يستلزم سيره بين سامراء والكوت اجتيازهما أو من أجل هدف آخر بعيد الصلة بالنهروان، ولا يعلم ايضاً ما إذا كان مشروع سد هذين المجريين انجز في نفس الوقت الذي انشيء فيه مشروع النهروان، انما الذي نعلمه بصورة أكيدة هو انه لما انشيء مشروع النهروان كان مجريا النهرين (ديالى والعظيم) يسيران في غير اتجاهيهما الحاليين ، وهناك ما يدل على ان العرب بعد احتلالهم للعراق حافظوا على هذين السدين وقاموا بصيانتهما لاستغلال مشروع النهروان والاستفادة منه كما استفاد منه اسلافهم .

٩ ـ مشروع سد ديالى القديم

اما مجرى ديالى فقد حوّلت مياهه من أمام السد الذي انشيء في جبل حمرين الى منخفضات الروز الواقعة على محاذاة جدول الروز الحالي[1] ومنها الى بحيرة

(١) حول مجرى الروز هذا راجع البحث الذي يلي في الفصل العاشر (مادة ١) .

الشويجة التي تفضي الى نهر دجلة جنوب مدينة الكوت الحالية[1] . وقد انشيء السد باحجار رملية مقطوعة من الجبل الواقع الى جانبيه ولم يبق من بنائه إلا جزء من جناحه الايسر بالقرب من صدر جدول الروز الحالي ، ويبلغ عرض السد في اعلاه ما يزيد على المترين . ويستدل من الآثار الموجودة على أن هذا البناء كان قاطعاً نهر ديالى الى الجهة الثانية ، ويحتمل انه كان للسد أبواب لتنظيم المياه . ولعل بعض مياه فيضان ديالى كان يجري خلال الابواب المذكورة في مجرى ديالى الاصلي بالقدر الذى تسمح به ظروف الفيضان فينصب في الجانب الشرقي من النهروان قرب مدينة بعقوبة. والدليل على ذلك وجود اماكن من جهة الشمال يسمونها بيوت العباد أو بيوت العبيد ، ولعل العبيد أقرب الى الصحة ، وهذه منحوتة في الجبل نحتاً متقناً. ولا شك أن هذه الاماكن كانت قد اعدّت للنواطير والمأمورين المستخدمين بذلك السد ، ولا بد من انه كان بجوار هذه الامكنة أبنية غير ما ذكر إلا أن تخريبات ديالى على مرور العصور لم تبق لها أثر يستدل به .

وهنالك بعض الروايات تشير الى ان تاريخ انشاء السد على مجرى ديالى وتحويل مياه هذا النهر من مجراه الاصلي الى جهة الروز يرجع الى زمن قديم للغاية ، بدليل ان هيرودوتس ذكر بأن كورش الكبير الذي استولى على العراق في حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد قام بمشروع من هذا القبيل ، فانشأ سداً على مجرى ديالى وحوّل كل مياهه الى جداول احتفرها لسحب المياه بها الى المزارع الواسعة في الجنوب. واليك ما كتبه هيرودوتس في

---

(٢) راجع بحث المؤلف نفسه بعنوان «مشروعات الري الكبرى ـ خزان بحيرة الشويجة» وقد اقترح فيه مشروع يشتمل على اعادة انشاء سد ديالى من جديد وانشاء خزان في بحيرة الشويجة لخزن مياه فيضان ديالى فيها ثم تحويل هذه المياه الى نهر دجلة جنوبي مدينة الكوت الحالية عندما تشح مياه النهر . وقد طبع هذا الكتيب في مطبعة المعارف سنة ١٩٤٧

هذا الصدد قال : « واذ كان كورش زاحفاً على بابل وصل الى شواطي نهر جيندس (نهر ديالى) الذي يخرج من الجبال المتيانية ويمر ببلاد الدرنيين ويصب في نهر دجلة المار تجاه مدينة أوبيس ويصب في بحر اريترية وهو خليج العجم ، فأراد كورش أن يعبر النهر المذكور وكان العبور لا يمكن إلا بالزوارق فحمى أحد أحصنته البيض المعروفة بالخيل المقدسة وقفز فوق النهر وكان مجرى النهر شديداً فاختطفه وغرق فيه ، ورأى ذلك كورش فاستشاط غيظاً وآلى على نفسه أن يجعله جدولاً صغيراً يسهل على النساء أن يجتزن فيه دون أن يغمرهن أكثر من الركب ، فأوقف مسير جيشه عن بابل وقسمه الى شطرين ورسم بالحبال على كل من جانبي النهر مائة وثمانين ترعة وأقام لها حدوداً وأمر العسكر فأخذ يحفر حتى بلغ الغاية واشغل فيه جماً غفيراً من الرجال واقتضى هذا العمل مدة الصيف كلها » .

وخلاصة القول ان السد المذكور،سواء أكان قد تم انشاؤه في زمن الفرثيين أم في زمن الساسانيين أم قبل ذلك ، فان هناك أمراً لامجال للشك فيه وهو أن مشروع السد على نهر ديالى كان قد انشيء قبل مشروع النهروان الذي يمتد بين سامراء والكوت ، إذ لولاه لما أمكن هذا النهر أن يجتاز مجرى ديالى ويمتد جنوباً الى قرب مدينة الكوت الحالية .

ويستدل مما دونه المؤرخون العرب ان السد انهار في أواخر القرن الثالث الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي) ، الامر الذي اضطر ولاة الامور أن يقيموا بعد ذلك سداً آخر على مجرى ديالى بالقرب من مدينة جسر النهروان جنوباً بغية تحويل مياه ديالى من امام هذا السد الى مجرى النهروان الاسفل الذي يمتد بين نهر ديالى والكوت[1]. وبذا انقسم النهروان الى شطرين شطر يستمد ماءه من نهر ديالى ،

---

(١) حول تفاصيل انهيار السد راجع الفصل العاشر (النهروان في عهد انحطاطه) .

وهو القسم الذي يمتد بين ديالى والكوت ، وشطر يستمد مياهه من نهر دجلة في جوار سامراء ، وهو يقتصر على القسم الذي يمتد بين سامراء وديالى .

١٠ ـ مشروع سد العظيم القديم

ويمتاز سد العظيم عن سد ديالى بكونه من السدود المرتفعة ، وتعدّ بقاياه من أهم آثار مشاريع الري القديمة في العراق (أن لم يكن أهم ما لدينا) . ويتألف السد هذا من جدار ضخم مسرّح من الخلف على نحو الجدران الداعمة (Retaining Walls) لمقاومة ضغط المياه الذي يتجمع أمام السد . ويبلغ عرض الجدار في القاعدة ٣٦ قدماً ثم يتقلص تدريجياً حتى يصبح حوالي العشرين قدماً عند القمة . ويبلغ ارتفاع هذا الجدار من سطح المياه في النهر الى القمة أربعين قدماً تقريباً ، اما طوله بين الضفتين فيبلغ حوالي ٤٥٠ قدماً جرفت المياه ما يقرب من ٢٠٠ قدم منه في القسم المتوسط ، أي في وسط مجرى النهر ، وقد دعم هذا السد بجناح طويل في كل من الجانبين يمتد الى مسافة عدة أمتار . أما المادة التي انشيء بها فهي من نفس الحجر الرملي الذي بني فيه سد ديالى وهو موجود في جبل حمرين في موضع السد ، وقد قطعت الاحجار بأطوال تتراوح بين ١٦ بوصة وثلاث أقدام وبعرض قدم ونصف الى قدمين وبسمك ١٦ بوصة . ويستدل من بقايا المونة التي استعملت بين الاحجار انها تتألف من خرسانة مزيجة من الجص والنورة والحصى الناعم وقد انتج هذا المزيج خرسانة قوية للغاية .

وقد حوّلت مياه النهر بعد انشاء هذا السد الضخم الى جدولين واسعين يتفرع أحدهما من الضفة اليمنى للنهر وتعرف آثاره اليوم باسم « نهر البت »[١] ، وهو يمتد بموازاة نهر العظيم حتى ينتهي الى الضفة اليسرى للنهروان ، وتتفرع

(١) البت كلمة فارسية معناها واحد أي النهر المنفرد .

منه عدة فروع من ضفته اليمنى كانت تروي الاراضي الواسعة المعروفة الآن بالسيحة والعيث والتي تمتد حتى بحيرة الشارع من جهة الغرب، وطبيعة الاراضي في هذه المنطقة تدل على ان مياه نهر العظيم الزائدة كانت تحول في موسم الفيضان الى بحيرة الشارع ، وذلك عن طريق نهر البت ووادي عسيلة الذي يصب في بحيرة الشارع عند حدها الجنوبي الشرقي[١] . والجدول الثاني يتفرع من أمام السد أيضاً على الضفة اليسرى ويسمى الآن باسم « نهر روذان » [٢] ، وهذا يمتد لمسافة طويلة على محاذاة مجرى العظيم ، ومن أهم فروعه النهر الذي يمتد الى الشرق مخترقاً أرض الغرفة الشاسعة حتى ينتهي بالقرب من مزارع الخالص الحالية. وأهم آثار عمران الغرفة القديم الاطلال المعروفة باسم «العطوانيات»، وهذه تحتل مساحة واسعة من الاراضي كلها تلول من بقايا أبنية ضخمة من الآجر تدل على انها اطلال مدينة مهمة . وتقع هذه الآثار وسط الغرفة شرقي طريق بغداد كركوك العام مباشرة وهي تحاذي وادياً واسعاً « يسمى وادي الابيتر » من

(١) تقع بحيرة الشارع في منطقة سامراء ما بين النهرين دجلة والعظيم وشكلها مستطيل تمتد بموازاة مجرى العظيم من الشمال الى الجنوب الى مسافة ٢٥ كيلومتر تقريباً . أما عرضها فيبلغ معدله خمسة كيلومترات تقريباً وبذا تبلغ مساحتها حوالي ١٢٠ كيلومتراً مربعاً. وتنصب المياه في هذه البحيرة في موسم الامطار من الاودية التي تنحدر من سفوح جبل حمرين والاراضي المرتفعة المجاورة من أطراف البحيرة الثلاثة اي من الشمال والغرب والشرق . اما الحد الجنوبي فهو منخفض وينتهي الى واد طبيعي يعرف باسم وادي السدة ، ويتجه هذا الوادي نحو دجلة فيحمل المياه الفائضة من البحيرة ليصبها في النهر في نقطة تقع أمام مدينة بلد الحالية الواقعة على الجهة الغربية منه .

ويلاحظ ان كل خرائطنا للعراق قد أسمت البحيرة باسم « بحيرة شاري » على حين أن الاسم الحقيقي للبحيرة هو « بحيرة الشارع » ولعل الخطأ حصل في نقل اسم البحيرة من الخرائط الانكليزية الى الخرائط العربية لا سيما وانه لا يوجد حرف (ع) في اللغة الانكليزية .

(٢) كلمة روذان اصطلاح فارسي أيضاً وهي جمع روذ ومعنى الروذ نهر، ذلك ما يدل على ان نهر روذان كان مؤلفاً من فروع رئيسية عديدة .

ضفته اليسرى . ويغلب على الظن أن وادي الابيتر هذا الذي يسير على محاذاة الضفة اليسرى لنهر العظيم هو نهر روذان نفسه وقد اجتاحته السيول فتوسع واصبح عقيقاً للسيول التي تنحدر نحو نهر العظيم من جهته الشرقية . وتقدر مساحة الأراضي التي كان يرويها الجدولان (البت والروذان) بحوالي مليون مشارة من الأراضي .

ويستدل من خرائب المدن والقرى الواقعة على جدولي البت والروذان وفروعها ان المنطقة التي كانت تمر بها هذه الانهر ، وهي المنطقة الواقعة على ضفتي نهر العظيم بين جبل حمرين ودجلة كانت كثيفة بسكانها ومزارعها وبساتينها ، وكانت أكثر بقاع العراق انتاجاً بفضل السد القائم على نهر العظيم .

ويؤيد لنا التاريخ أن منطقة العظيم هذه كانت من أوسع طساسيج السواد على عهدي الفرس والعرب، فكانت تتكون من طسوجين يعرفان بـ «الراذانين» كان أحدهما في غربي مجرى العظيم والآخر في شرقيه . وكان يعرف الأول باسم « الراذان الاعلى » وهو القسم الذي كان يروى من نهر البت ، أما الثاني فكان يسمى «الراذان الاسفل» وهو القسم الذي كان يروى من نهرالروذان[1]. ويظهر أن تسمية « راذان» ترجع الى عهد واغل في القدم ، إذ كان الآثوريون يسمون نهر العظيم « راذان » وكذا أتى أسمه أيضاً في تواريخ الكلدان أو الآثوريين

---

(١) ان التقسيمات الزراعية التي كان يعمل بهـا في ذلك الزمن تتألف من الكورة أو الاستان (والكورة والاستان معنى واحد) وهي اكبر وحدة زراعية في القطر ، فتنقسم الكورة الى رساتيق (جمع رستاق) وينقسم الرستاق الى طساسيج (جمع طسوج) وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى . والكورة اسم فارسي بحت وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان ، وهي الصقع الذي يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها . ويعني بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن فهو بمنزلة السواد وهو اخص من الكورة أو الاستان . أما الطسوج فهو لفظة فارسية أيضاً وهو اخص وأقل من الرستاق وقد قسم سواد العراق على ستين طسوجاً اضيف كل طسوج الى اسم (راجع مقدمة معجم ياقوت الحموي) .

النصارى والبلد الذي في الجهة اليسرى منه كان يدعى أيضاً « راذان »[١]

وقد ذكر ابن خرداذبة ان طسوجي الراذانين يقسمان الى ستة عشر رستاقاً تبلغ بيادرها ثلثمائة واثنين وستين بيدراً وهذه تشتمل على أربعة آلاف وثمانمائة كر من الحنطة واربعة آلاف وثمانمائة كر من الشعير هذا عدا مائة الف وعشرين الف درهم من الورق .

اما الموضع الذي كان الجدولان (البت والروذان) يتفرعان منه فان الجدول الايمن (نهر البت) كان يتفرع في نقطة تقع على بعد ٢٠٠ متر تقريباً من أمام السد ، وعلى الارجح انه كان يسحب المياه دون ناظم في الصدر، حيث لا يوجد أي أثر لناظم في موقع صدره . وكان الجدول الثاني يتفرع من عند السد وفي صدره ناظم ضخم لا تزال بقاياه تؤلف جزءاً من بناء السد نفسه .

والناظم الواقع على صدر نهر الروذان مبني في الجناح الايسر من السد ويتألف من أربع دعامات ضخمة بارتفاع ١٤ قدماً وسمك ١٥ قدماً وطول ٣٥ قدماً، وهذه الدعامات تكون ثلاث فتحات عرض الواحدة منها سبعة أقدام وأربع بوصات. ويختلف بناء هذا الناظم عن بناء السد في مادة بنائه حيث انشيء بالآجر المفخور ومونة النورة ، وقد سدت احدى فتحاته ، وهي الفتحة الأخيرة من الجانب الايسر، ببناء من الحجر الرملي الذي بني به السد ، ويوجد صف من الاحجار بني فوق الناظم على الطريقة التي انشيء بها السد نفسه مما يدل على ان الناظم كان جزء من السد وقد بني في نفس الوقت الذي بني فيه السد[٢] (راجع رسم رقم ٥ ـ سد العظيم القديم في جبل حمرين) .

---

(١) راجع تاريخ كلدو وآثور تأليف ادى شير ، الجزء الاول ، ص ٢

(٢) يظن البعض ان دعامات هــذا الناظم من بقايا البناء الذي أقامه سليمان باشا المعروف باسم « كجوك سليمان باشا » (والي بغداد بين سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨١١) وذلك عندما حاول اعادة انشاء السد . ومن جملة الذين كانوا يحملون هذه الفكرة الدكتور روس الذي زار سد العظيم في سنة ١٨٣٤ وكتب عنه في جورنال ـــ

ويلاحظ ان عوامل التعرية (Soil Erosion) قد لعبت دورهـا في المنطقة التي يتفرع منها نهرا البت والروذان ، ويتجلى تأثير العوامل الطبيعية هذه في المنطقة التي يتفرع منهـا نهر روذان في الجهة اليسرى ، إذ مزقت أحشاء الأرض هناك بحيث لم تبق أي أثر لمجرى هذا النهر في صدره . وهكذا فلا نشاهد هناك اليوم سوى سلسلة من الخنادق العميقة والأودية الشاسعة تغزوها السيول في كل عام فتزيد في فعالية التعرية والتخريب .

ويظن أن سد العظيم كان يؤمن ـ فضلاً عن رفع مناسيب مياه نهر العظيم لتحويلها الى الجدولين المار ذكرهما ـ خزن بعض المياه أمام السد لعمق حوالي مترين من مستوى قمة السد البالغ ٩٨ متراً فوق سطح البحر . وحيث ان الكمية التي يستوعبها عمق هذين المترين عبارة عن سبعة ملايين متر مكعب فقط ، فلم تكن هـذه الكمية من الكفاية بحيث يتسنى معها تحقيق ارواء المزارع الواسعة في أوقات انحباس الامطار أثناء الموسم الشتوي وأيام شحة المياه في موسم الصيهود . وهذا ما يؤيد لنا ان جدولي « الروذان » و « البت » كانا يتموّنان من مصدر آخر غير نهر العظيم هو من دون شك الزاب الصغير ، وذلك بواسطة قناتي العباسي والفيل المتصلتين بوادي زغيتون الذي يمتد بين الزاب الصغير والعظيم وينتهي في العظيم شمالي موقع السد بقليل . أما في موسم الفيضان فكانت تحوّل مياه الزاب الصغير بعد أن تختلط بمياه العظيم وتجري الى بحيرة الشارع عن طريق نهر البت الآنف الذكر[1] .

= الجمعية الجغرافية الملكية لسنة ١٨٤١ (ص ١٢١ ـ ١٣٦) ، غير ان هذه الفكرة بعيدة عن الواقع كل البعد لأن الناظم مثبت في بناية السد من كل الاطراف مما يجعله جزءاً من بناء السد كما ذكرنا اعلاه . اما اذا كان سليمان باشا قام بعمل ما على سد العظيم فلا يمكن ان يكون عمله هذا غير ترميمات سطحية قام بها أثناء محاولته لاعادة انشاء السد .

(١) راجع بحث المؤلف نفسه بعنوان « مشروعات الري الكبرى ـــ خزان بحيرة الشارع » وقد اقترح فيه مشروع يشتمل على اعادة انشاء سد العظيم لاحياء

ومن المرجح ان انهيار سد العظيم كان تدريجياً وانه لم يتم نهائياً حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (حوالي أواخر القرن السادس الهجري) وذلك بنتيجة تصدع حصل فيه قبل الانهيار النهائي بمدة . ويعتقد البعض أن السد خرّب عمداً خلال الحروب والغزوات التي انتابت البلاد في العهد العباسي الأخير لتخريب النهروان الذي كان يعتبر من أهم الحصون الدفاعية في ذلك الزمن ولا سيما وانه كان أهم مشروع يموّن منطقة دجلة الشرقية بأسرها بمياه الري[1] .

١١ ـ مشروع سد نمرود القديم

ولا بد من التطرق في هذا الصدد الى البحث عن السد التاريخي المشهور المعروف بـ « سد نمرود » ، وهو السد الذي انشيء على نهر دجلة في شمالي بلد لتحويل مجرى دجلة الرئيسي من عقيقه الأصلي، الذي كان يسير في اتجاه مجرى دجلة الحالي بين بلد وبغداد، الى الاراضي الصلبة الواقعة في الجهة الغربية. فيعتقد السير ويليم ويلكوكس ان مياه دجلة كانت في الماضي تقلب فوق طبقة حجرية صلبة وتدخل الدلتا بمنسوب عال ، إلا انه حصل ائتكال في هذه الارض الصلبة بتأثير المياه منذ العصور التاريخية الغابرة كان من نتائجه أن أقام رجل عظيم سداً ترابياً عبر المجرى وبذلك حوّل المياه الى الأرض الصلبة في الشاطيء الايمن ، وقد عرف هذا السد بأسم « سد نمرود » . ودليل ويلكوكس على ذلك أن هناك، في هذا القسم من دجلة، طبقة حجرية صلبة عمقها عشرة امتار تقع تحت الرواسب السطحية وتغطي طبقة اخرى من الصلصال فتنحدر هذه الطبقة

= منطقة العظيم من جديد وانشاء خزان في بحيرة الشارع لخزن مياه فيضان النهرين العظيم والزاب الصغير فيها ثم تحويل هذه المياه الى نهر دجلة جنوبي مدينة سامراء عندما تشح مياه النهر . وقد طبع هذا الكتيب في مطبعة المعارف سنة ١٩٤٧ .

(١) حول تفاصيل انهيار سد العظيم راجع البحث الذي يلي في الفصل العاشر مادة « انهيار سد العظيم ونتائجه » .

الصلبة نحو الجنوب الشرقي ثم تختفي تحت قاع النهر شرقي بلد . ويرى السير ويليم أنه بعد تحويل مياه النهر الى جهة الغرب بقي المجرى في تلك الجهة مدة تربو على ثلاثة آلاف سنة وذلك بفضل السد الذي انشيء هناك حتى انهار السد فرجعت مياه نهر دجلة الى المجرى الشرقي الواطيء الأمر الذي أدى الى هبوط منسوب الماء في نهر دجلة في ذلك المكان الى عشرة امتار ، وكانت نتيجة ذلك ان جف النهران العظيمان ـ النهروان ودجيل ـ فتحولت الأراضي الواقعة على ضفتي نهر دجلة في القسم الاعلى من مجراه القديم الى صحراء قاحلة ، ويرى ويلكوكس انه يحتمل بأن سبب انهيار السد يرجع الى فيضان دجلة أو أن الاثتكال في قعر النهر وصل الى السد فقضى عليه[1] . ويمكننا ان نلخص آراء السير ويليم ويلكوكس عن سد نمرود فيما يلي : ـ

١ ـ ان السد كان سداً ترابياً .

٢ ـ ان السد كان قد انشيء قبل اكثر من ٣٥٠٠ عام على مجرى دجلة الأصلي وهو المجرى الذي كان يسير في اتجاه المجرى الحالي بين المدينتين بلد وبغداد وبعد أن حصل اثتكال في هذا المجرى حفر مجرى جديد في الأراضي المرتفعة على الجانب الغربي وحولت مياه النهر اليه وقد بقي السد قائماً مدة تربو على ٣٠٠٠ سنة

---

(١) قال السير ويليم ويلكوكس : « هناك على بعد بضعة كيلومترات فوق النقطة التي يدخل فيها نهر دجلة دلتاه أقيم في الوادي سد ترابي جسيم يحول النهر فوق الأرض الصلبة لكيما يجري بمنسوب عال فيروي الأراضي الواقعة على ضفتيه . وقد اخذت من طرف السد الأمامي الصدور الثلاثة لجدول النهروان الكبير على الضفة اليسرى وجدول دجيل على الضفة اليمنى . ويعزى الى نمرود الفضل في انشاء السد وتحويل مجرى النهر . وقد بقي هذا السد قائماً مدة تربو على ٣٠٠٠ سنة حين جرفته المياه في عهد آخر الخلفاء العباسيين الضعاف (راجع كتاب ويلكوكس « بين عدن والاردن » الترجمة العربية ص ٤٦ و ٨٣ وتقريره عن ري العراق الترجمة العربية أيضاً ص ٨ و ٥٩) .

٣ ـ ان النهروان بمداخله الثلاثة كان يتفرع من نهر دجلة من أمام السد في الجانب الشرقي وان نهري دجيل والاسحاقي كانا يتفرعان من أمام السد أيضاً في الجانب الغربي وان هذه الانهر انشئت في نفس الوقت الذي انشيء فيه السد .

ومع أننا نتفق مع السير وليم ويلكوكس بأن السد كان سداً ترابياً إلا أنه لا يسعنا أن نتفق وأياه فيما ذهب اليه حول حفر المجرى الجديد في الجهة الغربية من مجرى دجلة الأصلي وانهيار السد ومنشأ النهروان ودجيل نظراً للادلة التاريخية والبراهين الأخرى التي بين أيدينا والتي تدل على خلاف نظرياته في هذه الامور . أما ما يختص بتحويل مجرى دجلة فالذي نراه هو ان مجرى دجلة كان في القسم الذي يمتد بين المدينتين بلد وبغداد يتألف في الأصل من فرعين رئيسيين ، فرع شرقي يسير باتجاه مجرى دجلة الحالي وهو أشبه بالمصرف منه بالنهر، وفرع غربي وهو المجرى الرئيسي للنهر ينعطف من قرب القادسية فيجري غرباً بموازاة مجرى الفرع الشرقي تاركاً قصبة بلد الحالية في جانبه الشرقي ومدينة سميكة الحالية في جانبه الغربي حتى اذا ما قطع مسافة حوالي مئة كيلومتر التقى بالفرع الشرقي في مكان غير بعيد من شمال الكاظمية

ويظهر ان الفرع الشرقي سدّ من صدره بعد أن حصل الأئتكال في قعره وكاد يسحب كل مياه النهر تاركاً الفرع الغربي (مجرى دجلة الرئيسي) من دون ماء ، وقد بقي هذا السد قائماً مدة طويلة حتى جاءت ظروف ملائمة بنتيجة الاضطراب والتدهور اللذين سادا في البلاد فعاد مجرى النهر الرئيسي الى الفرع الشرقي الواطيء سالكاً طريق نهر القورج،وهو النهر الذي حفره كسرى انو شروان قرب سد نمرود ليحل محل مجرى القائم بغية تأمين ايصال المياه الى أراضي النهروان السفلى في موسم الصيهود ، وسيأتي البحث عن النهر المذكور في الفصل الذي يلي (راجع الفصل الثالث « مادة نهر القورج » واللوحتين ٢ و٣). وهكذا صار الفرع الشرقي الذي كان يسير باتجاه مجرى دجلة

الحالي يسحب مياه النهر كلها فأصبح هو المجرى الرئيسي لنهر دجلة تاركاً المجرى الأصلي في الجهة الغربية بين كثبان الرمال يحيط به الجدب من كل صوب ، وقد ساعده على ذلك انخفاض قعره من جهة وارتفاع مستوى المجرى الغربي لكثرة الترسبات التي تراكمت فيه من الجهة الثانية . وهناك دلائل تاريخية موثوقة على ان تحوّل المجرى حصل في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (أواخر القرن السادس الهجري)[١] ، وبعد أن تم التحوّل بصورة نهائية صار الوادي الذي كان يجري فيه نهر دجلة القديم من جهة الغرب يعرف باسم « الشطيطة » ، ولا يزال هذا الوادي يسمى بـ « الشطيطة » حتى الآن[٢] .

والدور الذي لعبه مجرى دجلة بالنسبة الى الفرعين الشرقي والغربي انما يذكرنا بالدور الذي لعبه مجرى الفرات بالنسبة الى فرعي الهندية والحلة ، إذ كان مجرى الهندية في بادىء الامر مصرفاً لنهر الفرات ثم أصبح هو المجرى الرئيسي للنهر في القرون الوسطى ، وكان كذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي للمرة الثانية ، وهو يكوّن المجرى الرئيسي لنهر الفرات في الوقت الحاضر[٣] .

واذا قام الاقدمون بسد فرع دجلة الشرقي سداً تاماً وتحويل كل مياه النهر الى الفرع الغربي ، فذلك لانه لم تكن لديهم الوسائل الحديثة التي تسهل عملية انشاء بناء مع أبواب تفتح في موسم الفيضان وتغلق في موسم الصيهود على نمط قناطر الهندية الحديثة ، لذلك كان لا بد من سد المجرى كله وتحويل مياهه الى

(١) كنا قد ذهبنا في كتابنا « وادي الفرات » الجزء الثاني (ص ٢١٠ و ص ٢٥١) الى ان تحول مجرى دجلة حصل في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، الا أن التتبعات والدراسات العملية الاخيرة جعلتنا ننتهي الى النتائج المبينة اعلاه (راجع البحث التالي الخاص بتحول مجرى دجلة في الفصل الحادي عشر) .

(٢) راجع البحث التالي الخاص بمجرى دجلة القديم في هذا الفصل

(٣) حول تطورات مجرى الفرات المذكور راجع الجزء الثاني من كتابنا « وادي الفرات » (الفصول ٥ ـ ٩) .

الفرع الغربي بدلاً من انشاء سد من بناء يتخلله أبواب حديدية لتوزيع المياه على الفرعين الغربي والشرقي بحسب الحاجة .

ويرى البعض ان السد المذكور لم ينشأ لغرض رفع مناسيب المياه في النهر فحسب وانما كان قد انشيء لخزن كمية من المياه في موسم الفيضان في الجهـة الامامية من السد على نمط خزان اسوان أو خزان جبل الاولياء في مصر فتكونت بنتيجة ذلك بحيرة داخل وادي النهر بطول ١٢ ميلاً وعرض يتراوح بين الميل الواحد والميل والنصف، وكانت هذه البحيرة تمتد شمالاً الى قرب مدينة سامراء الحالية . إلا ان ذلك بعيد الاحتمال لسببين ، أولهما ان الاراضي على ضفتي النهر وان كانت مرتفعة الى حد ما غير انها لا تشكل ارتفاعاً كافياً لاحاطة وادي النهر من جهتيه بحدود مرتفعة تساعد على خزن المياه بكميات كافية ، ثم لو كان هناك خزان من هذا القبيل لـكان بقي له بعض الأثر على الاخص قرب مداخل النهروان المديدة ، وفضلاً عن ذلك ان المؤرخين القدماء لم يشيروا الى مثل هذا الخزان في هذه المنطقة ، كل ذلك يدل على ان الغرض من انشاء السد كان يقتصر على تحويل مياه نهر دجلة الى الفرع الغربي كما مر بيانه .

وقد يجوز لنا أن نستدل مما تقدم ان ما ذهب اليه السير ويليم ويلـكوكس من ان الاقدمين قاموا بانشاء سد نمرود على المجرى الشرقي الذي كان على حسب ظنه المجرى الرئيسي بغية تحويل مجرى دجلة الى نهر جديد احتفروه في الجهـة الغربية لايخلو من الوهم، إذ لو كانوا حفروا مثل هذا المجرى الواسع الذي ينبغي أن يكون بحجم يستوعب كل مياه فيضان دجلة لمسافة تربو على المئة كيلومتر لما اغفلوا ذكره أو اهملوا نقل اخباره .

ولا بد من الاشارة في هذا الصدد الى ان سد نمرود فقد علائمه الأصلية كسد بمرور الزمن حيث أصبح جزء من الاراضي المرتفعة الواقعة على شاطيء النهر ، لا سيما بعد أن انشئت على المجرى الشرقي القديم قرى ومزارع وجداول

أدت الى محو معالم ذلك المجرى واندراس عقيقه تماماً. لذلك فان من الاصح أن يقال إن مجرى دجلة تحول من عقيقه الغربي العالي الى المجرى الشرقي الواقع في الاراضي الواطئة بدلاً من ذكر انهيار سد نمرود القديم، إذ لم يبق هناك سد لينهار، وكل ماحدث هو ان مجرى دجلة تحول من عقيقه الغربي الى جهة الشرق حيث يسير مجرى دجلة الحالي، وكان ذلك من جنوب موقع سد نمرود القديم على اثر انبثاق صدر نهر القورج الذي كان يتفرع من نهر دجلة في ذلك الموضع[١] وعلى أثر انهيار سد المظيم الذي ساعد على ذلك التحول[٢].

ويستدل من تدقيق المناسيب على أن مشروع سد نمرود كان يحقق رفع منسوب مياه النهر في موسم الصيهود الى حوالي تسعة أمتار فوق منسوب النهر الصيفي الحالي، بدليل ان منسوب قعر مجرى القائم في الصدر، وهو المجرى الذي كان يستعمل في موسم الصيهود في ذلك العهد، يبلغ حوالي ٦٠ر٥٠ متراً فوق معدل مستوى سطح البحر، على حين أن معدل منسوب المياه الصيفي الحالي في نهر دجلة يبلغ زهاء ٥٠ر٥٠ متراً أمام برج القائم. كذلك ان منسوب قعر صدر المجرى الاسفل الذي يتفرع عند الصنم أمام القادسية يعلو عن منسوب مياه نهر دجلة الصيفي الحالي في هذا المكان بما يقرب من عشرة أمتار أيضاً.

اما ماذهب اليه السير ويليم ويلكوكس من أن مشروع النهروان بمداخله الثلاثة انشيء في نفس الوقت الذي انشيء فيه سد نمرود أي قبل اكثر من ٣٥٠٠ سنة على اعتبار ان سد نمرود انشيء لغرض تأمين ايصال المياه اليه، بعيد عن الواقع للاسباب التي مر ذكرها في بحثنا عن منشأ النهروان. اما مشروع نهر دجيل الذي يرى انه انشيء في نفس الوقت أيضاً فهناك ما يثبت لنا انه

---

(١) راجع البحث التالي في الفصلين الثالث والحادي عشر

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن انهيار سد المظيم في صفحة ١٦٧ والبحث الذي يلي في الفصل الحادي عشر.

يعود الى دور متأخر أي الى ما بعد انشاء النهروان[1] .

ومما يدل على تردد السير ويليم ويلكوكس وشكوكه فيما ذهب اليه حول تاريخ سد نمرود وتطوره ان كتاباته في هذا الصدد جاءت غامضة ومتناقضة ، فبعد أن أيد في كتابه « اعادة احياء مشاريع الري القديمة على نهر دجلة » المطبوع في سنة ١٩٠٣ ما ذهب اليه فيليكس جونس من أن سد نمرود جرف بفيضان دجلة العظيم الذي وقع في سنة ١٦٢٩ الميلادية ، عاد فقال في تقريره المرفوع الى الحكومة العثمانية سنة ١٩١١ ما يلي : « وفي ايام الاضطرابات التي حدثت بعد الخراب الذي جرى على يد هولاكو وتيمورلنك ، حل الدمار في طول البلاد وعرضها ولا ندري فيما اذا كانت سد نمرود قد جرفت بفيضان دجلة أو ان الائتكال الذي كان يحصل في قاع مجرى دجلة الجديد وصل الى السدة فقضى عليها » . ثم ذكر في مقاله « مستقبل العراق » المنشور في مجلة الشرق الادنى سنة ١٩١٦ أن « سد نمرود بقي قائماً مدة تربو على ٣٠٠٠ سنة ، حتى جرفته المياه في عهد آخر الخلفاء العباسيين الضعاف » . وفضلاً عن ذلك ان السير ويليم ويلكوكس رفع مقترحات عديدة حول اعادة احياء مشروع سد نمرود القديم مما يدل على انه لم يكن حاسماً في آرائه ولا واثقاً من نفسه فيما يختص بموضوع السد المذكور ، إذ يبدأ فيقول ان محل العاشق خير موقع لتحويل مجرى دجلة منه ، فيضع تصميماً لانشاء سدة ترابية في ذلك المكان طولها حوالي سبعة كيلومترات وعرضها في القمة عشرة أمتار وتساريحها ١ في ٢ من الامام و ١ في ٤ من الخلف ، على أن يحوّل نهر دجلة من أمام السدة المذكورة ليسير في الجهة الشرقية في اتجاه النهروان . ومما يلفت النظر ان السير ويليم ويلكوكس لم يذكر شيئاً عن الاتجاه الذي كان ينوي

---

(١) حول مشروع نهر دجيل راجع البحث التالي الخاص بنهر دجيل في الفصلين الثالث والحادي عشر .

تحويل المجرى فيه بعد أن يتصل بالنهروان ، فهل كان يروم تمديد المجرى الجديد في اتجاه النهروان الى قرب الكوت حيث ينتهي مشروع النهروان أو كان ينوي ارجاعه الى مجرى دجلة الرئيسي مكانما من شمال بغداد ، واذا كان يروم اتباع الطريقة الثانية أين يكون المكان الذي سيلتقي فيه المجرى الجديد بمجرى دجلة ، فكل ذلك غير موضح . وبعد أن يرفع السير ويليم ويلكوكس هذا الاقتراح ويدون تصميمه[1] يعود فيقترح هذه المرة انشاء السد الترابي في جنوب سامراء قرب القادسية ، ولكنه لم يوضح كيفية تحويل المجرى كما انه لم يشر الى الجهة التي يحول اليها النهر . وبعد كل هذا يعود فيقترح انشاء سد غاطس واطيء على مجرى دجلة بالقرب من القادسية فيرفع به منسوب الماء الصيفي الى ٥ر٢٥ متراً فوق سطح البحر ، أما في الشتاء فيقلب الماء من فوق السد[2] . وأخيراً ينتهي الى الاقتراح الذي يقضي بانشاء قناطر في المكان الاخير نفسه فيرفع بها منسوب الماء الى ٥٠ر٥٤ متراً ليعيد بذلك احياء نهري دجيل والاسحاقي على الضفة الغربية من دجلة[3] . وفي كلتا الحالتين الاخيرتين يقتصر المشروع على رفع منسوب الماء في النهر دون تحويل المجرى الى جهة جديدة[4] .

١٢ — سور المعربين وسد نمرود

ومما يدل على ان الاقدمين كانوا يعلقون على مشروع سد نمرود أهمية كبرى أنهم أقاموا في جواره تحصينات عسكرية ضخمة لصد هجمات الاعداء والحيلولة

---

(١) راجع خارطة رقم (٧٠) من مجموعة الخرائط المرفقة مع تقرير السير ويليم ويلكوكس عن ري العراق

(٢) راجع خارطة (٤١) من خرائط ويلكوكس المرفقة مع تقريره عن ري العراق

(٣) راجع خارطة (٧١) من خرائط ويلكوكس المرفقة مع تقريره عن ري العراق

(٤) راجع تقرير ويلكوكس عن ري العراق (الترجمة العربية) ص ٥٩ — ٦٠

دون وقوع هذا الموضع الستراتيجي الحيوي بايدي العدو . ومازالت هذه التحصينات ماثلة للعيان ، فهي تتألف من جدار ضخم من اللبن مدعم بدعامات كبيرة . ومما يلفت النظر أن اللبن المستعمل في البناء يبلغ من الحجم بحيث يضاهي أكبر أنواع الآجر البابلي القديم ، وليس في هذه المنطقة مايساوي حجمه غير اللبن المستعمل في بناء حصن القادسية الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من موضع سد نمرود وأبنية الحصون الفارسية القديمة . أما الجدار فيبدأ من الضفة اليمنى من نهر دجلة في نقطة تقع في جوار موضع سد نمرود من جهة الغرب ، فيمتد غرباً مخترقاً الأراضي السهلة الواقعة على الجانب الغربي من دجلة ، وبعد أن يسير مسافة حوالي عشرة كيلومترات في هـــذا الاتجاه ينتهي الى حدود الأراضي الصحراوية المرتفعة . ويعرف هذا الجدار اليوم باسم « عرقوب المطبّق » ويمكن المرء أن يتتبع آثاره بين « إمام الخضر » وحدود الصحراء المرتفعة بكل سهولة نظراً لضخامته وارتفاعه . وتشاهد في نهاية الجدار آثار بناء مربع يبلغ طول ضلعه زهاء ثلاثين متراً ، وفي كل من الاركان الاربعة لهذا البناء برج ضخم ينظر منه الى مسافات بعيدة من جميع أطراف الصحراء المجاورة ، كما تشاهد آثار خندق عميق يسير الى محاذاة الجدار شمالاً ، وقد انشيء هذا الخندق وفق الطريقة التي كان يتبعها الاقدمون في انشاء تحصيناتهم العسكرية . وكان الخندق المذكور يستمد مياهه من نهر دجلة من أمام سد نمرود (راجع رسم رقم ٢ أ) .

ومما لا شك فيه ان للجدار المذكور صلة مباشرة بالسد الذي كان قد أقيم على مجرى دجلة في هذا الموضع، أي موضع سد نمرود، على ان الكثير من الكتاب والمحققين الآثاريين قد توهموا فظنوا ان هـــذا الجدار كان يمتد في الصحراء الواقعة بين نهر دجلة والفرات ، فيبدأ من ضفة دجلة اليمنى وينتهى الى ضفة الفرات اليسرى وانه السور التاريخي المشهور المعروف باسم « سور الميديين » ، وهو السور الذي أشار اليه زينفون في كتابه عن حملة العشرة آلاف المشهورة، ونعني بذلك الحملة التي نظمها كورش الصغير في اليونان في سنة ٤٠١ قبل الميلاد

ووجهها ضد أخيه ارتاكسركس للاستيلاء على عرش المملكة الفارسية في بابل. و«سور الميديين» هو الاسم الذي اطلقه المؤرخون والباحثون على التحصينات التي كان قد أقامها البابليون لاستخدامها في الدفاع عن مملكتهم وصد عادية الميديين عنهم

وقد وصف المستر جيزني رئيس البعثة البريطانية التي قامت بمسح نهري دجلة والفرات بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٣٧ الجدار في قسمه الواقع قرب نهر دجلة فقال ان ارتفاعه يتراوح من ٣٥ الى ٤٠ قدماً وان هناك أبراجاً كثيرة على جهته الشمالية تقع على بعد مسافات متقاربة ، ثم ذكر ان هناك آثاراً لخندق عرضه ٢٧ متراً تقريباً بنيت اطرافه بالحصى والنورة يقع في الجهة الشمالية من الجدار ويسمى باسم «الجالي» . وقد ذهب المستر جيزني الى ان هذا الجدار يمتد الى نهر الفرات مستنداً بذلك الى كتابات المستر فيتز جيمس (Fitz James) والدكتور روص (Dr. Ross) والملازم لنج (Lt. Lynch) الذين سبقوه في ابداء هذا الرأي المبني على الحدس دون ان يتتبعوا آثار الجدار وسط الجزيرة . ويتضح مما تقدم ان ماذهب اليه هذا الفريق من أن السور يمتد الى نهر الفرات لم يكن إلا استنتاجاً وهمياً مستنداً الى آثار الجدار القديم بالقرب من دجلة من جهة وكتابات الاغريق التي نوهت بوقوع سد الميديين بالقرب من نهر الفرات من الجهة الاخرى .

وقد خالف بعض الخبراء الرأي المذكور فرأى هؤلاء ان الجدار الذي تقدم وصفه جدار مستقل يتصل بمشروع سد نمرود ولا علاقة له بسور الميديين الذي ينبغي التحري عنه في مكان آخر . وقد اطلق هذ الفريق على الجدار اسم «سور سيميراميس» لتمييزه عن سور الميديين الذي كان يقع في الجنوب[1] ، وكان السير

(١) راجع الجزء الثاني من كتابنا «وادي الفرات» فقد أبدينا فيه الرأي القائل بوقوع سور الميديين في الجنوب (ص ١٧ ــ ٢٧) وقد أيدت نتائج التنقيبات الاثرية الأخيرة ذلك اذ ثبتت موضع مدينة اوبيس القديمة التي كان سور الميديين ينتهي عندها جنوبي مدينة بغداد (راجع مجلة « سومر » عدد كانون الثاني ١٩٤٧ ، القسم الانكليزي ، ص ٤ ــ ٦

وليم ويلكوكس من مؤيدي الرأي الاخير فكتب قائلاً : « ويشاهد اليوم على الجانب الأيسر من نهر دجلة في هذا المكان (أي مكان سد نمرود) حصن مهيب (ويقصد بذلك حصن القادسية)(١) وعلى الجانب الآخر سور سيميراميس الذي يسمى في بعض الخرائط خطأ سور الميديين وكانت تصون هذه المباني جناحي سد نمرود » . وكان يرى ويلكوكس ان سور الميديين كان يمتد بين الفرات ودجلة فيبدأ من قرب صدر نهر الصقلاوية الحالي فيسير نحو عقرقوف ثم ينتهي الى دجلة جنوبي بغداد ، وكان هذا السور يحمي البابليين من غارات الآشوريين كما كان يحميهم من عدوان الميديين في العهد الذي سبق العصر الفارسي (٢)

١٣ ـ مجرى دجلة القديم

قلنا فيما تقدم ان مجرى نهر دجلة تم تحويله الى الجهة الغربية بعد ان اقيم سد نمرود على المجرى القديم للنهر ، وقد يكون من المفيد ان نصف المجرى الغربي المذكور ونبحث في المدن التي ازدهرت على ضفافه في العهد العباسي. وقد تتبعنا آثار هذا المجرى من أوله قرب سامراء الى نهايته بجوار الطارمية وثبتنا مواضع المدن المهمة التى كانت عليه ، وان معظم هذه المدن مازالت محافظة على اسمائها الاصلية رغم التحريف البسيط الذي طرأ على القليل منها . ويجد القارىء في اللوحة رقم ٦ خارطة حقيقية تبين اتجاه هذا المجرى كما كان عليه في العهد العباسي يوم اتخذ العباسيون موضع سامراء عاصمة لامبراطوريتهم ومواضع المدن المهمة التي كانت على ضفاف ذلك المجرى في ذلك الزمن .

«١» حول حصن القادسيــة المذكور راجع البحث الخاص بسور القادسية في الفصل الرابع التالي .

«٢» راجع كتاب « بين عدن والاردن » للسير وليم ويلكوكس ، الترجمة العربية ، ص ٧٩

ويتضح من الخارطة المذكورة ان معالم مجرى دجلة الغربي القديم لا تزال واضحة وتسمى في معظم اقسام المجرى « الشطيطة » ، وهو الاسم الذي يطلق عادة على معالم المجرى المهجور الذي يتركه النهر بعد تحوله عنه ، ونظراً لانخفاض الوادي الذي كان يسير فيه النهر بالنسبة الى مستوى الاراضي المجاورة التي كانت تكوّن ضفافه ، نجد ان مياه النزيز تتسرب اليوم الى بعض اقسام « الشطيطة » المذكورة في موسم الفيضان حين يرتفع منسوب مياه نهر دجلة الحالي الذي يجري بالقرب منها من جهة الشرق ، كما ان بعض الثغرات التي تحصل في الاسداد الغربية من دجلة الحالي تسيل الى المواضع المنخفضة من « الشطيطة ». ويقع اوطأ هذه المواضع جنوباً بالقرب من « الطارمية »(١) ، فلا تزال تتجمع فيه المياه في موسم الامطار فتتسرب أولاً الى المنخفض المعروف باسم « كرّة الزهيري » ثم الى المنخفض الثاني الذي يليه والمسمى « كرة الطارمية » . وكان منخفض الطارمية قبل وقت غير بعيد يكوّن بحيرة واسعة تتسرب اليها المياه من الضفة الغربية لمجرى دجلة الحالي من موضع الوادي المعروف اليوم باسم « وادي الرفيع » ، وهو الوادي الذي لا تزال آثاره ظاهرة حتى الآن . وكذلك كانت تنصب في هذا المنخفض بعض مياه نهر دجيل الزائدة في العهد الاخير من ذلك النهر . وكانت المياه تتجمع في بحيرة الطارمية الى عمق حوالي خمسة امتار في « كرّة الطارمية » (بين منسوب ٣٦ متراً ومنسوب ٣١ متراً فوق سطح البحر) وعمق حوالي ثلاثة امتار في « كرّة الزهيري » (بين منسوب ٣٦ متراً و ٣٣ متراً فوق سطح البحر) . وكانت مساحة الأراضي التي تغمر بمياه الفيضان في البحيرة حوالي سبعين كيلومتراً مربعاً بمنسوب ٣٧ متراً فوق سطح البحر . والى قبل

---

(١) ان اصطلاح « طارمية » مشتق من الـكلمتين « طغار » و « مائة » ومعناها ان الأرض في هذه المنطقة كانت تنتج حاصلا يساوي مئة طغار مقابل كل طغار واحد من البذر الذي يبذر في تلك الأرض .

وقت غير بعيد غمر منخفض الطارمية ثلاث مرات ، وكان ذلك في فيضانات سني ١٩١٩و١٩٢٣و١٩٢٦، وكانت المساحة المغمورة في هذه الفيضانات ٧٨ كيلومتراً مربعاً . ولما زار فيلكس جونس هذه المنطقة في ربيع سنة ١٨٥٠ (بين ٢٠و٢٥ مارت من تلك السنة) كانت « كرّة الطارمية » مملوءة بالماء فأرتوى هو وقافلته منها ، اما « كرّة الزهيري » فكانت يابسة آنذاك .

واذا ما تتبعنا آثار مجرى دجلة القديم مابين سامراء وبغداد نجد انه كان ينحرف الى الغرب من امام سد نمرود القديم في نقطة تقع شرقي « تل مسعود »[١] بقليل فيسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي موازياً نهر دجيل الحالي ، الذي يمتد الى غربيه نحو الجنوب الشرقي ايضاً ، تاركاً « تل جبارات »[٢] على ضفته الشرقية، وبعد ان يقطع مسافة حوالي تسعة كيلومترات في هذا الاتجاه يصل الى مدينة « العلث » الواقعة على ضفته الشرقية، ثم يميل الى الشرق فيشكل نصف دائرة تاركاً عندها قريتي « الحظيرة » و « بلد » على ضفته اليسرى ومدينة « حربى » مقابل الحظيرة على ضفته اليمنى ، ويسمى المجرى هنا باسم « نصة الشطيطة » في الوقت الحاضر[٣] . وبعد ان ينهي المجرى دورته في جنوبي بلد يسير على محاذاة سكة حديد (بغداد ـ سامراء) شرقاً ، تاركاً قبر « امام الشيخ سعدي » ومحطة بلد الى جانبه الغربي و « تل عابر » الى جانبه الشرقي حتى يصل الى « تل الصخر » و « عرقوب الحسينية »، فيترك الأول الى جانبه الأيسر والثاني الى جانبه الأيمن. وعلى مسافة قليلة من شرقي تل الصخر يلتقي المجرى بمجرى العظيم القديم ، وهو المجرى الذي لا تزال آثاره ماثلة للعيان ، فيسير بين مجرى دجلة الشرقي الحالي

---

(١) حول « تل مسعود » المذكور راجع ماتقدم في صفحة ٩٤ حاشية ٣

(٢) ان « تل جبارات » المذكور تل واسع يرجح انه موضع احدى المدن التي ازدهرت في العهد العباسي على طريق البريد العام مابين بغداد وسامراء

(٣) حول مدينة الحظيرة وبلد وحربى راجع البحث التالي الخاص بطسوجي « بزرجسابور » و « مسكن » في هذا الفصل

ومجرى دجلة الغربي القديم، فيبدأ من شرقي « إمام السيد محمد » وينتهي عند ملتقاه بمجرى دجلة القديم قرب « عرقوب الحسينية » ماراً في طريقه بالتل المسمى « تل الذهب » الذي يتركه الى جانبه الايسر . وقد دلت تدقيقاتنا في هذه المنطقة على ان الفيضانات العالية في مجرى دجلة الحالي كانت ولا تزال تؤدي الى تسرّب مياه دجلة الى مجرى العظيم القديم ومنـــه الى مجرى دجلة الغربي القديم (الشطيطة) ، فتدخل فيه من شرقي « إمام السيد محمد » وتتجه الى جهة مجرى دجـــلة القديم فتسير فيه حتى تصل الى قرب بساتين سميكة الحالية (راجع اللوحتين ٣ و ٦) . ويسمى الجريان القديمان (دجلة والعظيم) في هذا المـكان « شط السجلة » في الوقت الحاضر .

وبعد التقاء دجلة والعظيم قرب « عرقوب الحسينية » يسير مجرى دجلة القديم في عدة تعرجات وتشعبات فيترك « تلول الحير » الى جانبه الايسر ، وهي التلول التي يرجح ان قرية « باجمشا » كانت فيها ، ويترك محطة سميكة الحالية وقرية « مسكن » القديمة الى جانبه الايمن ، ثم يسير في الوادي المعروف بـ « العوار الصغير » ومن ثم في الوادي الذي يليه جنوباً والمعروف بـ « العوار الـكبير » ، وبعد ذلك يصل الى مدينتي « عكبرا » و « اوانا » ، فيترك الاولى على جانبه الشرقي والثانية على جانبه الغربي[١] ، وبعد ان يجتاز المجرى مدينـــة « عكبرا » يسير الى الجنوب تاركاً منخفضي الزهيري والطارمية الى جانبه الغربي وقرية « بصرى » الواقعة في « تل البصيرة » الحالي الى جانبه الشرقي ، وبعد ان يسير في هذا الاتجاه حوالي عشرين كيلومتراً يصل الى مجرى دجلة الحالي بالقرب من الطارمية على مسافة قليلة من شرقي « خان المشاهدة » ، وهنا يقطعه مجرى دجلة الحالي عند الراشدية . ويسير المجرى بعد ذلك شرقي مجرى دجلة الحالي

---

(١) حول « باجمشا » و « ومسكن » و « عكبرا » و « اوانا » راجع البحث التالي الخاص بطسوجي « بزرجسابور » و « مسكن » في هذا الفصل

تاركاً موضع الداودية الى جانبه الغربي وقرية «البردان» الواقعة في « تل بدران» الحالي الى جانبه الشرقي، ويتصل اخيراً بمجرى دجلة الحالي بالقرب من «التاجي» الحالية التي تبعد حوالي عشرين كيلومتراً من شمال مدينة بغـداد (راجع اللوحة رقم ٦)[١] .

وكان نهر دجيل يسير موازياً مجرى دجلة من جهة الغرب فتمتد ما بين بلد وبغداد ، وكانت تتشعب من ضفتيه فروع كثيرة فتمتد الفروع الغربية الى جهة سهل الجزيرة الواقعة ما بين دجلة والفرات لارواء الاراضي الزراعية هناك ، اما الفروع الشرقية فتمتد الى جهة مجرى دجلة فتروي الاراضي الزراعية الواقعة ما بين نهر دجيل ومجرى دجلة [٢].

وقد ثبت عندنا ان نهر دجلة تحول الى المجرى الشرقي الحالي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (آخر القرن السادس الهجري) [٣] تاركاً المجرى الغربي من دون ماء ، الأمر الذي ادى الى انقطاع المياه عن المدن والقرى والمزارع الواقعة على ضفافه، وعلى أثر ذلك فتح المستنصر فروعاً خاصة من الضفة اليسرى لنهر دجيل ومدها على محاذاة ضفة مجرى دجلة القديم او في وسطه في بعض المواضع لايصال المياه الى تلك المدن ، وأهم هذه الفروع الفرع الذي كان ينتهي الى قريتي الحظيرة وبلد والذي سمي « نهر المستنصر » ، وهو لا يزال محافظاً على اسمه القديم[٤] .

---

(١) حول « بصرى » و « البردان » راجع البحث التالي الخاص بطسوجي « بزرجسابور» و « مسكن » في هذا الفصل .

(٢) حول نهر دجيل راجع البحث التالي الخاص بـ « طسوج مسكن » في هذا الفصل والبحث في الفصلين الثالث والحادي عشر .

(٣) راجع ما تقدم في صفحة ١٧٠ والبحث الذي يلي الخاص بمشروع الفورج في الفصل الثالث والبحث الخاص بتحول مجرى دجلة في الفصل الحادي عشر .

(٤) راجع البحث التالي الخاص بنهر دجيل القديم في الفصل الثالث والبحث الخاص بدجيل المستنصر في الفصل الحادي عشر .

١٤ ـ طسوجا « بزرجسابور » و« مسكن »

وكان قد ازدهر على ضفاف مجرى دجلة القديم طسوجان ، الشرقي (طسوج بزرجسابور) الذي يشمل الاراضي والقرى الواقعة على الجانب الايسر من النهر، والغربي(طسوج مسكن) الذي يشمل الاراضي والقرى الواقعة على الجانب الأيمن من النهر . وقد ازدهرت مدن وقرى مهمة كثيرة على ضفاف النهر داخل هذين الطسوجين أهمها « العلث » و « بلد » و « الحظيرة » و « باحمشا » و« عكبرا » و « بصرى » من ضمن « طسوج بزرجسابور » في الجانب الشرقي،و «حربى» و « اوانا » و « مسكن » و « دجيل » و « المنارية » من ضمن « طسوج مسكن » في الجانب الغربي .

وكان يشمل « طسوج بزرجسابور » المنطقة الواقعة شرقي النهر برمتها ومن ضمنها عقيق فرع دجلة الشرقي الذي أصبح أرضاً زراعية بعد انشاء سد نمرود وتحويل مجرى النهر الى الفرع الغربي ، فيمتـد أكثر من سبعين كيلومتراً في الطول ومعدل عشرة كيلومترات في العرض ، أي ما يبلغ مساحته حوالي ربع مليون دونم (مشارة) ، وكان معظم أراضي هذا الطسوج يروى من القاطول الأعلى الكسروي ، أما جبايته فكانت في أيام المعتصم ألفين وخمسمائة كر من الحنطة وألفين ومائتي كر من الشعير[1] وثلثمائة ألف درهم من الورق[2] . ومما كتبه المسعودي (المتوفي سنة ٣٤٥هـ) في وصف حد السواد الأعلى قال: « وقد حد كثير من الناس السواد وهو العراق فقالوا حده مما يلي المغرب وأعلى دجلة

---

(١) الكر مكيال قديم كان يستعمل في العراق قديماً وهو أربعون اردباً أو ٩٦٠ صاعاً ، ولما كان الصاع مساوياً حوالي ستة كيلوات فيكون وزن الكر ٥٧٦٠ كيلوغراماً ، أي حوالي خمسة أطنان ونصف ، وبهذا يكون وزن الألف كر حوالي ٥٥٠٠ طن.

(٢) حول طسوج بزرجسابور راجع الفصل التاسع (مادة ٢) .

من ناحية آثور وهي الموصل القريتان المعروفة إحداهما بالعلث من الجانب الشرقي من دجلة وهي من طسوج بزرجسابور والاخرى المعروفة بحربى وهي بازائها في الجانب الغربي من طسوج مسكن ومن جهة المشرق الجزيرة المتصلة بالبحر الفارسي الخ ... »[١] وقريب من هذا ما قاله ابن رستة في هذا الموضوع[٢].

أما المدن والقرى المهمة التي كانت على مجرى دجلة ضمن «طسوج بزرجسابور» فأولها من الشمال مدينة « العلث » ، وهي المدينة التي ما زالت خرائبها الواسعة تشاهد على مسافة حوالي سبعة كيلومترات من شمالي غربي مدينة بلد الحالية ، وقد حافظت على اسمها القديم حتى اليوم فهي لا تزال تسمى أطلالها بالعلث، كما أنه لا يزال يسمى سكنة هذه المنطقة « علثاويين » . وتمتد خرائب العلث هذه على طول الضفة اليسرى لمجرى دجلة القديم « الشطيطة » ، وهو المجرى الذي يسير فيه نهر بلد الحالي الذي يتفرع من ضفة نهر دجيل اليسرى وينتهي الى بساتين بلد الحديثة (٣) .

ويوجد شرقي خرائب العلث المذكورة، على بعد حوالي ثلثمائة متر منها تقريباً، تل مدور الشكل يسمى « تل صنكر » يرجح أنه جزء من خرائب العلث ، كما أن هناك نهراً مهجوراً يسمى « نهر العلث » يتفرع من نهر دجيل فيسير موازياً نهر بلد شمالاً فيمر من قرب « تل جبارات » ثم ينتهي الى منطقة سراجي الواقعة قرب «قبة الشيخ جادر» القائمة فوق « تل ام صايح »، ولا شك في أن هذا الفرع أنشىء لأرواء منطقة العلث بعد أن تحول مجرى دجلة عنها (راجع اللوحة رقم ٢) (٤) . ومما يدل على استمرار ازدهار مدينة العلث بعد تحول

---

(١) راجع كتاب « التنبيه والاشراف » ص ٣٨ .

(٢) راجع كتاب « الأعلاق النفيسة » ص ١٠٤ .

(٣) حول نهر دجيل راجع البحث التالي الخاص بطسوج مسكن في هذا الفصل والبحث في الفصلين الثالث والحادي عشر .

(٤) حول تحول مجرى دجلة ، راجع ما تقدم في صفحة ١٧٠ والبحث التالي الخاص بمشروع القورج في الفصل الثالث والبحث الخاص بتحول مجرى دجلة في الفصل الحادي عشر .

مجرى دجلة عنها أن المستنصر كان يقصدها بين حين وآخر للاتصال بعلمائها ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي في كتابه (مرآة الزمان) أن المستنصر « كان يمضي الى العلث قرية من دجيل بينها و بين بغداد مسيرة يومين حتى يزور اسحاق العلثي الحنبلي »

وذكر ياقوت في معجمه أن العلث « قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء موقوفة على العلويين وهي أول العراق في شرقي دجلة وفيها يقول أحمد بن جعفر جحظة :

وحانة بالعلث وسط السوق نزلتهـــا وصارمي رفيقي »

وقريب من هذا ما كتبه ابن عبدالحق في المراصد قال : « والعلث قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء وموقوفة على العـلويين كانت في شرقي دجلة وهي الآن (سنة ٧٣٩) من عمل دجيل على الشطيطة . »

وكان الى جانب مدينة العلث دير يعرف باسم « دير العلث » وهو الذي امتدحه الشابشتي فقال عنه فيما قاله : « وهذا الدير راكب دجلة وهو من أحسن الديارات موقعاً وأنزهها موضعاً ، يقصد من كل بلد ، ويطرقه كل أحد ولا يكاد يخلو من منحدر ومتعمد ، ومن دخله لم يتجاوزه الى غيره لطيبه ونزهته ووجود جميع ما يحتاج اليه بالعلث وبه . » ويقال أن « دير العذارى » المشهور كان في دير العلث المتقدم الذكر ، فجاء في « ممالك الابصار للعمري(المتوفي سنة ٧٤٩هـ) أن دير العذارى « بين سر من رأى وبغداد بجانب العلث على دجلة ، في موضع حسن . فيه رواهب عذارى .وكانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومنتزهات . لا يعـدم من دخله أن يرى من رواهبه جواري حسانـ الوجوه والقدود والألحاظ والالفاظ . قال الخالدي : ولقد اجتزت به فرأيته حسناً ، ورأيت في الحانات التي حوله خلقاً يشربون على الملاهي . وكان ذلك اليوم عيداً له . ورأيت في جنينات لرواهبه جماعة يلقطن زهر العصفر ، ولا يماثل حمرة خدودهن . ثم أن دجلة أهلكته بعدودها ، حتى لم يبق منه أثر . ولجحظة فيه أخبار وأشعار

لأنه كان معانه ومأواه ، واليه ينجذب به هواه . وفيه يقول ابن المعتز :

أيا جيرة الوادي على المشرع العذب
سقاك حيـاً حي الثرى ميّت الجدب
وحسبك يا دير العـذارى قليل ما
يحنّ بما تحويه من طيبة قلبي
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكي الهوى
إليك وإن طال الوقوف على صحبي »(١)

هذا فيما يتعلق بمدينة العلث ، أما القصبة التي كانت تليها في الجنوب ضمن «طسوج بزرجسابور» فهي قرية « الحظيرة»، وهذه تقع على الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم أيضاً ، وإن مكانها الأصلي لا يزال يعرف باسم « الحظيرة » فيقع جنوبي بساتين بلد الحالية عند التل المعروف باسم « تل أبي كنزيز » (راجع اللوحة رقم ٢) . وهناك أنهر قديمة مهجورة تتفرع من نهر بلد جنوب شرقي بساتين بلد الحالية كانت تروي المنطقة التي تقع فيها «الحظيرة »وهذه الأنهر لا تزال محافظة على أسمائها الاصلية وهي تسمى « أنهر الحظيرة » . وقد جاء في معجم ياقوت ان «الحظيرة» قرية كبيرة من اعمال بغداد من جهة تكريت من ناحية دجيل ينسج فيها الثياب الكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد ، كما جاء في المراصد انها « قرية كبيرة من اعمال بغداد من دجيل قرب حربى ينسب اليها الثياب القطن الخام التي تحمل الى البلاد » .

ويلاحظ ان لي سترانج عين موضع «الحظيرة» على الجانب الايمن لمجرى دجلة القديم كما انه عين موضع بلد في ذلك الجانب أيضاً على حين انهما يقعان على الجانب الايسر من المجرى المذكور ، ولعله توصل الى ذلك مستنداً الى قول

---

(١) راجع كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمري ، الجزء الأول ، طبعة دار الكتب المصرية ، ص ٢٥٨ - ٢٦١ .

ابن عبد الحق من ان الخطيرة بالقرب من حربى الواقعة على الجانب الايمن لمجرى دجلة القديم وان بلد بالقرب من الخطيرة وحربى . ويغلب على الظن ان بلد كانت في ذلك الوقت ضاحية من ضواحي الخطيرة حيث لا تزال بساتينها تحاذي ضفة مجرى الشطيطة اليسرى في شمال اطلال الخطيرة مباشرة ، وقد ذكرها ياقوت في معجمه فقال «وبلد أيضاً بليدة من نواحي دجيل قرب الخطيرة وحربى من اعمال بغداد » . وقريب من هذا ما ذكره ابن عبد الحق في المراصد قائلاً ان بلد « قرية معروفة من قرى دجيل قرب الخطيرة وحربى » . وهناك مكان آخر في شمالي الموصل يعرف بأسم بلد أيضاً ذكره ياقوت في المشترك قال : « بلد مدينة قديمة فوق الموصل على دجلة بينها سبعة فراسخ ويقال لها بلط أيضاً ينسب اليهـا أبو منصور محمد وأبو عبد الله أحمد ابنا الحسن بن سهل البلدي يعرفان بأبني الصباح» ، إلا أنه ذكر في معجمه عن بلد الموصل ما نصه : «وقال عبد الكريم بن طاووس بها قبر أبي جعفر محمد بن علي الهادي باتفاق » . ولما كان القبر المذكور في بلد دجيل فيعتقد ان ذلك كان حاشية ملحقة بالاصل ثم دخل الى المتن لأن عبد الكريم بن طاووس من الذين لم يدركوا ياقوتاً الحموي .

وكان يلي الخطيرة من الجنوب مدينتا « باحمشا » و «عكبرا »، فتقع الاولى على بعد أربعة فراسخ (١٨ كيلومتراً) من الخطيرة والثانية على مسافة ثلاثة فراسخ (١٥ كيلومتر) من باحمشا . أما باحمشا فقد ذكر ابن خرداذبة انها تقع على بعد أثنى عشر فرسخاً (حوالي ٧٠ كيلومتراً) من شمالي بغداد ، وذلك يتفق وموضع « تلول الحير » الواقعة على الضفة اليمنى من مجرى دجلة القديم « الشطيطة » ، ويوجد في الوقت الحاضر نهر قديم باسم « نهر ابي حمشة » ينتهي عند « تلول الحير » المذكورة . ومن الادلة التي تؤيد ان مدينة « باحمشا » كانت في موضع « تلول الحير » ان هذه التلول تقع على بعد أربعة عشر كيلومتراً من شمالي اطلال « عكبرا » وهذا يتفق تماماً مع المسافة التي أشار اليها ابن خرداذبة

الذي قال ان المسافة بين عكبرا وباحمشا تبلغ ثلاثة فراسخ أي حوالي أربعة عشر كيلومتراً . وقد اطلق ياقوت وابن عبد الحق على هذه المدينة اسم « باحمشا » فذكرا انها قرية بين « أوانا » و « الحظيرة » وعلى دجلة القديمة.

وكانت عكبرا من أهم مدن «طسوج برزجسابور» فما زالت أطلالها تعرف باسمها الاصلي « عكبرا » وهي تمتد على محاذاة الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم « الشطيطة » مسافة حوالي خمسة كيلومترات (راجع اللوحة رقم ٣) . وقد ذكر ياقوت ان عكبرا بلدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، إلا أن ابن عبد الحق صحح ذلك فقال ان « عكبرا كانت من الجانب الشرقي على شاطيء دجلة فلما استحالت الدجلة الى جهة الشرق صارت دجلة تحتها تسمى الشطيطة واوانا تقابلها من غربي الشطيطة وخربت وانتقل أهلها إلى أوانا وغيرها وصار ما في شرقيها الى دجلة من عمل دجيل ويسمى الآن (سنة ٧٣٩ هـ) المستنصري لان الامام المستنصر استخرج له نهراً يسقيه من دجيل » . وكانت عكبرا مجمعاً للخلفاء ومأوى لأهل الأنس والقصف فكان يقصدها الناس من بغداد وقد اصبحت بعد انتقال العاصمة الى سامراء من المدن الرئيسية على طريق البريد العام بين بغداد وسامراء . وجاء ذكر عكبرا فيما انشده البحتري من قصيدة :

ولما نزلنا عكبرا ولم يكن   نبيذ ولا كانت حلالاً لنا الخمر
دعونا لها بشرا وربّ عظيمةٍ   دعونا لها بشرا فاصرخنا بشر

وقد أشار ابن عبد الحق في المراصد الى نهر متصل بعكبرا اسمه « نهر زاور » كما أشار الى قرية باسم « قرية زاور » أيضاً كانت تقع عند ذلك النهر .

وكانت عكبرا تدعى في عهد الفرس « بوزورك شابور » واسمها بالسريانية عكبرا ومعناها الفأر ، فقال حمزة الاصبهاني « بزرجسابور معرّب عن وزرك شافور وهي المسماة بالسريانية عكبرا »[1].

---

(١) راجع معجم ياقوت الحموي مادة « بزرجسابور »

ومن القرى المهمة التي كانت على ضفة نهر دجلة الشرقية ما بين عكبرا وبغداد « بصرى » و « البردان » و « بزوغي » . اما قرية « بصرى » فقد حافظت على اسمها القديم وهي تقع في التل المسمى « تل البصيرة » الكائن على بعد زهاء خمسة كيلومترات من جنوبي شرقي عكبرا على الضفة اليسرى من مجرى دجلة القديم « الشطيطة » . وقد ذكر ياقوت في معجمه ان قرية « بصرى » من قرى بغداد قرب عكبرا واياها عنى ابن الحجاج بقوله :ـ

ولعمر الشباب ما كان عني	أول الراحلين من احبابي
ان تولى الصبي عني فاني	قد تعزيت بعده بالتصابي
أيظن الشباب اني مخل	بعده بالسماع أو بالشراب
لش لي حانتي اوانا وبصرى	للدنان التي أرى والخوابي
ان تلك الظروف أمست خدوراً	لنبات الكروم والاعناب

واليها ينسب ابو الحسن محمد بن محمد بن احمد بن خلف البصري الشاعر قرأ الكلام على المرتضى الموسوي .

وقريب من هذا قول ابن عبدالحق مؤيداً ان « بصرى من قرى بغداد قرب عكبرا ذكرها ابن الحجاج في شعره مع اوانا » .

وكانت « البردان » مدينة عامرة على الجانب الشرقي من مجرى دجلة وهي تقع عند مصب نهر الخالص القديم في دجلة في الجهة الجنوبية منه[1] ، فذكر ابن خرداذبة انها تقع على طريق البريد العام بين بغداد وسامراء على بعد أربعة فراسخ (حوالي ١٨ كيلومتراً) من شمالي بغداد ، إلا أن أبا الفداء ذكر انها تبعد خمسة فراسخ عن بغداد ، اما ياقوت فقال ان المسافة بينها وبين بغداد سبعة فراسخ ، ولعل قول ابن خرداذبة أصح من تقدير ابي الفداء وياقوت لانه

---

(١) حول نهر الخالص القديم راجع البحث الخاص بأنهر مدينة بغداد الشرقية في الفصل التاسع التالي .

يرجع الى ما قبل عصر ياقوت وأبي الفداء بعدة قرون ولا سيما وان قدامة الذي كان معاصراً لابن خرداذبة يؤيد تقدير ابن خرداذبة ، وفضلاً عن ذلك ان ابن عبدالحق يصحح ياقوت قائلا ان الموضع الذي أشار اليه ياقوت غير معروف. أما موضع البردان فاننا نميل الى الاعتقاد انه كان في مكان التل المسمى « ايشان بدران »، وهو التل الواقع على مسافة ثلاثة كيلومترات ونصف جنوبي شرقي ناحية الداودية الحالية ، ولعل البردان حرّفت فأصبحت بدران بعد ان تناقلتها الألسن خلال الألف سنة الاخيرة . وأوضح دليل على ذلك ان « ايشان بدران » هذا يقع على نفس المسافة التي ذكرها ابن خرداذبة بالنسبة الى مدينة بغداد، اذ يبعد ١٨ كيلومتراً من شمالي مدينة بغداد . ويلاحظ أن الطريق القديم بين بغداد و« البردان » كان يسير في نفس الاتجاه الذي يسير فيه الطريق العام الحالي بين مدينة بغداد والجديدة، ومع ان موضع « البردان » مازال شرقي مجرى دجلة، كما كان عليه الحال قديماً ، إلا ان هناك مايدل على ان مدينة « البردان » كانت تقع على ضفة النهر تماماً ، على حين ان « ايشان بدران » الحالي يقع على مسافة حوالي ستة كيلومترات من ضفة النهر . ونستخلص من ذلك ان نهر دجلة كان يجري في هذه المنطقة في غير مجراه الحالي (راجع اللوحة رقم ٦) .

وكانت هناك محلة في مدينة بغداد الشرقية تسمى « قنطرة البردان » لانها كانت تقع على الطريق المؤدية الى « البردان » ، كما أن هناك موضعاً في هذه المحلة كان يسمى « باب البردان » للسبب نفسه . وقد ذكر ياقوت في هذا الصدد أن « قنطرة البردان » محلة ببغداد بناها رجل يقال له السري بن الحطم صاحب الحطمية قرية قرب بغداد وقد نسب الى هذه المحلة جماعة وافرة من المحدثين منهم الحكم بن موسى القنطري والعباس بن الحسين القنطري وغيرهما من المنسوبين الى هذه المحلة . وقال الحموي أن البردان من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها قرب صريفين وهي من نواحي دجيل والبردة بالفارسية الرقيق المجلوب في أول

اخراجه من بلاد الكفر ولعل هذه القرية كانت منزل الرقيق فسميت بذلك ، إلا أن ابن عبدالحق صحح قول ياقوت هذا فيما يختص بموقع البردان مؤيداً بأنها قرية فوق بغداد من نواحي الخالص ، مضيفاً الى ذلك ان قول ياقوت من انها من نواحي دجيل على سبعة فراسخ من بغداد قرب صريفين فان ذلك غير معروف، اما الواقع فيؤيد الرأي الاخير .

أما قرية « بزوغي » فموضعها غير معلوم ، إلا أن ياقوت ذكر بأنها قرب « المزرفة » وإنها تقع على مسافة فرسخين من بغداد ، وقد ذكرها ابن سرابيون أيضاً فعين موضعها على نهر دجلة قرب « البردان » و « المزرفة » . ونستخلص من ذلك أنها كانت ما بين بغداد و « البردان » مقابل « المزرفة » الواقعة على الجهة الغربية للنهر[1].

وكان طريق البريد العام بين بغداد وسامراء يسير على الجانب الشرقي من مجرى دجلة القديم ضمن « طسوج بزرجسابور » ماراً بـ « البردان » الواقعة على مسافة أربعة فراسخ من بغداد شمالاً ، وبعكبرا الكائنة على بعد خمسة فراسخ من « البردان » ، و بـ « باحمشا » الواقعة على مسافة ثلاثة فراسخ من « عكبرا » ، و بـ « الحظيرة » التي تبعد ثلاثة فراسخ عن « باحمشا » ، و بـ « العلث » الكائنة على مسافة حوالي فرسخ ونصف فرسخ عن « الحظيرة » ، و بـ « القادسية » الواقعة على بعد زهاء فرسخين ونصف فرسخ من «العلث»، وأخيراً ينتهي الى سر من رأى بعد مسافة ثلاثة فراسخ من القادسية . وبذلك يكون مجموع مسافة الطريق بين بغداد وسامراء حوالي ٢٢ فرسخاً . ويظهر مما كتبه اليعقوبي أن العمران كان متصلاً بين بغداد وسامراء على الطريق المذكور فقال ما نصه : « ولم تخرب بغداد ولا نقصت أسواقها لأنهم لم يجدوا

---

(١) حول « المزرفة » راجع البحث التالي الخاص بـ « طسوج مسكن » في هذا الفصل.

فيها عوضاً ولأنه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى في البر والبحر أعني في دجلة وفي جانبي دجلة » .

بحثنا فيما تقدم عن «طسوج بزرجسابور» ومدنه المهمة التي كانت على الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم بين سامراء وبغداد ، وننتقل الآن الى البحث عن « طسوج مسكن » ومدنه ، وهو الطسوج الذي كان على الضفة المقابلة من النهر ، فيبدأ من جوار مدينة « حربى » شمالاً وينتهي الى قرب التاجي جنوباً . ومما يدل على أهمية هذا الطسوج أن جبايته في ايام المعتصم (٢١٨ـ ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢ م) بلغت ثلاثة آلاف كر حنطة والف كر شعير و ٢٥٠,٠٠٠ درهم . وكانت اراضي هذا الطسوج تسقى من الانهر المتفرعة من الجانب الغربي لنهر دجلة بجوار العلث وكان من جملة هذه الانهر نهردجيل الذي يعد أهمها من حيث سعته وطول امتداده .

أما المدن والقرى المهمة التي كانت ضمن الطسوج المذكور فأولها من الشمال مدينة « حربى[1] » ، وهي المدينة التي ما زالت خرائبها الواسعة تشاهد على مسافة حوالي خمسة كيلومترات من غربي مدينة بلد الحالية ، وقد حافظت على اسمها القديم حتى اليوم فهي لا تزال تسمى اطلالها « خرائب حربى » . وتمتد اطلال المدينة هذه على طول الضفة اليمنى لمجرى دجلة القديم (الشطيطة الآن) محاذية الضفة اليسرى لمجرى دجيل (راجع اللوحة رقم ٢) [2] . وقد ذكر ياقوت في معجمه (مادة حربى) أن « حربى بليدة في أقصى دجيل بين بغداد

---

(١) جاء ذكر حربى في كتاب « مفصل جغرافية العراق » للعلامة العميد طه الهاشمي (ص ٥٢٣) باضافة أداة التعريف (الحربي) عليها ، الا أننا لم نعثر عليها بهذه الصيغة في الكتب العربية القديمة .

(٢) لاحظنا أن دائرة الآثار العراقية ذكرت في نشرتها عن جسر حربى أن أطلال مدينة حربى تقع على الضفة اليسرى من الشطيطة ، وقد ثبت عندنا خلاف ذلك .

وتكريت مقابل الحظيرة تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل الى سائر البلاد وقد نسب اليها قوم من أهل العلم والنباهة » . ويظهر أن مدينة حربى كانت قديمة وكانت معروفة بنفس الاسم في صدر الاسلام ، لأن الطبري أشار الى أن شبيباً عندما خرج على الحجاج عبر نهر دجلة بالقرب من حربى .

وكانت تلي حربى من الجنوب قصبة « اوانا » التي كانت تعد من أهم مدن « طسوج مسكن » ، أما اطلالها فتقع في اراضي الزهيري الحالية (مقاطعة ٢ رقم ٩ الدجيل ابو صخير) بالقرب من تل « كف الامام علي » جنوباً عند الموضع المسمى تل « شنيث » أو تل « الصخر » ، ولا يزال يسمى موضع خرائبها « تلول وانه » ، كما أنه لا يزال يسمى سكان هذه المنطقة « وانيين » وان معظم هؤلاء الوانيين قد استوطنوا الكاظمية في الوقت الحاضر . وكانت « اوانا » على الضفة الغربية من مجرى دجلة مقابل « عكبرا » الواقعة على الجانب الشرقي، ولا يزال موضعها على الضفة الغربية من ذلك المجرى مقابل اطلال « عكبرا » . ويسمى المجرى في هذا الموضع اليوم « شطيطة الزهيري » نسبة الى اراضي الزهيري التي يقع فيها . ويظهر أن الاراضي المجاورة الى خرائب « اوانا » كانت تعرف باسم « اوانا » ، إذ كانت تقع فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، والدليل على ذلك أن ابن عبدالحق يقول ان قرية « صريفون » الواقعة شمالي « اوانا » كانت تتصل بضياع « اوانا » . لذلك نميل الى الاعتقاد ان منطقة « اوانا » كانت تمتد على حافة النهر الغربية من قرب « كرة الزهيري » حتى نهاية التلول التي تمتد على حافة الشطيطة في شمالي « تل كف الامام علي » ومن ضمن ذلك « تل كف الامام علي » نفسه ، اما من جهة الغرب فكانت تمتد الى حد نهر دجيل . ومما يؤيد ذلك ان هنالك موضعاً بالقرب من دجيل لا يزال يسمى « وانه » ، ويقع هذا الموضع على بعد حوالي ٣٠٠ متر من شمالي مخفر المعوّج بين الطريق العام وسكة حديد بغداد — سامراء ، وفي هذا الموضع آثار سور قديم وبقايا بناء من الآجر .

ويلاحظ أن لي سترانج ثبت موقع « اوانا » في الجهة الشرقية من الشطيطة على حين أن موقعها الحالي من الشطيطة لا يترك أي شك في كونها على الجانب الغربي ، وقد أيد المؤرخون العرب ذلك في كتاباتهم . قال ابن عبدالحق في مادة « اوانا » ما نصه : « اوانا بليدة من دجيل كثيرة البساتين والشجر بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من فوقها تحاذي عكبرا كان بينهما الدجلة واستحالت عنها . » ثم ذكر في مادة « الجويث » : « والبردان من الجانب الشرقي و اوانا من الغربي . » وأيد ذلك مرة اخرى في مادة « عكبرا » فقال : « كانت عكبرا من الجانب الشرقي على شاطىء دجلة فلما استحالت الدجلة الى جهة الشرق صارت دجلة تحتها تسمى الشطيطة و اوانا تقابلها من غربي الشطيطة . » كما أنه أيد ذلك أيضاً في مادة « صريفون » فقال انها « بقرب دجلة القديمة التي تسمى الشطيطة فوق اوانا تتصل بضياعها وعكبرا تقابل اوانا من جانب الشطيطة الآخر ونهر دجيل بعيد عنها . » وكان الطبري ، الذي دوّن تاريخه قبل ابن عبدالحق بأكثر من اربعة قرون ، قد أيد ذلك عرضاً ، فقال في أخبار قحطبة بن شبيب سنة ١٣٢هـ . « لما كان قحطبة يريد الكوفة دون أن يكون مسيره عن طريق جلولاء التي كان ابن هبيرة مخندقاً فيها قال لأصحابه هل تعلمون طريقاً يخرجنا الى الكوفة لا نمر بابن هبيرة فقال له أحدهم نعم أنا أدلك فعبر به تامرا من روستقباذ ولزم الجادة حتى نزل بزرج سابور وأتى عكبرا فعبر دجلة الى اوانا . »

وقد ذكر فيليكس جونس الذي زار هذه المنطقة في سنة ١٨٥٠ م . أن قبر « كف الامام علي » كان قد اتخذه قطاع الطرق مكمناً يختفون عنده ، وقد حفروا بئراً في وسط الشطيطة المحاذية له للارتواء منها . وفي زمن الوالي علي باشا أسس مخفر للشرطة في «وانه» لحماية القوافل من التعرض لها في هذا المكان، وفتح فرعاً من نهر دجيل لايصال المياه الى هذا المخفر من النهر المذكور ، إلا أن قلة المياه في النهر المذكور حالت دون امكان استمرار المخفر في هذا المكان طويلاً.

ونرجح أن مكان هذا الخفر كان في موضع مخفر المموّج المهجور (راجع اللوحة رقم ٦) . وقد ذكرت مس بيل التي زارت هذه المنطقة في سنة ١٩١١ م . في كتابها «امورات الى امورات» أن هناك على «تل وانه» قبر الامام محمد علي وقد وصفت القبر وقبته المثمنة العقادة وقد صورت القبة المذكورة في كتابها المذكور ، ولعل القبة التي وصفتها هي « قبة كف الامام علي » وقد تخربت الآن.

ومن أهم المواقع التاريخية في « طسوج مسكن » مدينتـا « دجيل » و « مسكن » اللتان كانتا تقعان على نهر دجيل ، فبجوار هاتين المدينتين وقعت المعارك التاريخية المشهورة بين مصعب بن الزبير وعبدالملك بن مروان حوالي سنة ٧٢هـ ، وفي هذه المعارك قتل مصعب وعيسى ابنه وابراهيم بن الاشتر ، وعلى الأرجح انهم دفنوا في هذه المنطقة نفسها . ومن بين المعارك التي دون المؤرخون العرب تفاصيلها « وقعة يوم دجيل » وهي الوقعة التي قتل فيها عيسى بن مصعب وابراهيم بن الاشتر ، ويظهر أن سبب تسمية هذه الوقعة « وقعة دجيل » يرجع الى احتمال وقوعها بالقرب من مدينة « دجيل » .

ولا بد من أن نشير في هذا الصدد نقطة تأريخية مهمة تتصل بالارتباك الواقع في تعيين تاريخ انشاء نهر دجيل ، وهو النهر الذي كان يبدأ من ضفة نهر دجلة اليمنى من شمالي العلث ، فيسير الى الجنوب الشرقي في اتجاه مجرى نهر دجيل الحالي مخترقاً « طسوج مسكن » حتى ينتهي الى جوار مدينة بغداد . فقد اعتبر المؤرخون كافة أن نهر دجيل يرجع الى عهد المستنصر (القرن السابع الهجري) مستندين بذلك الى الكتابة المنقوشة على جبهتي الجسر الذي أنشأه المستنصر على نهر دجيل قرب مدينة « حربى » وهي الكتابة التي تشير الى أن الجسر المذكور انشىء في عهد المستنصر سنة ٦٣٠هـ (١٢٣١م) ، وقد أيدت دائرة الآثار العراقية هذه النظرية مستندة الى المرجع نفسه[1] . إلا ان

(١) راجع نشرة دائرة الآثار العراقية عن جسر حربى المطبوعة في مطبعة الحكومة سنة ١٩٣٥ (ص ٦) .

قد ثبت عندنا من الدلائل التأريخية ومن آثار الأنهر القديمة نفسها ان مشروع نهر دجيل يرجع الى صدر الاسلام إن لم يكن الى ما قبل ذلك ، أما المستنصر فقد اقتصر عمله على تحويل صدر نهر دجيل الى الشمال وفتح فروع جديدة من جانبه الأيسر لأرواء المنطقة التي انقطعت عنها المياه بعد تحول مجرى دجلة الى جهة الشرق ، وهي المنطقة التي كانت تقع فيها مدن « بلد » و«الحظيرة» و « العلث »و« عكبرا » وغيرها ، وقد وسع المستنصر نهر دجيل بحيث اقتضى إنشاء جسر عبور عليه فأقام ذلك الجسر بالقرب من مدينة « حربى » وذلك نظراً لأهمية موقع هذه المدينة آنذاك .

ومما يؤيد أن نهر دجيل كان موجوداً قبل عهد المستنصر أنه علاوة على ثبوت وجوده في عهد عبد الملك بن مروان أن هناك دلائل مثبتة في كتابات المؤرخين العرب على أنه كان موجوداً في العهد العباسي ايضاً . فذكر الطبري أن المعتضد أمر بكريه « والاستقصاء عليه وقلع صخر في فوهته كان يمنع الماء فجبي لذلك من ارباب الضياع والاقطاعات اربعة آلاف دينار وكسر فيما ذكر وأنفق عليه وولى ذلك كاتب زيرك وخادم من خدم المعتضد . » وكان ذلك في شهر رجب من سنة ٢٨٣هـ[1]. وقد أيد الطبري ايضاً أن فم نهر دجيل كان يقع جنوبي سامراء فقال في ذكر حوادث سنة ٢٥٢هـ . « ان سعيد بن صالح تسلم المستعين من ابن طولون في القاطول بعد ما صار به ابن طولون اليها ثم اختلف في امرها فقال بعضهم قتله سعيد بالقاطول... وقد قال بعضهم بل ادخله سعيد وابن طولون سامراء ثم صار به سعيد الى منزل له فعذبه حتى مات . وقيل بل ركب معه في زورق ومعه عدة حتى حاذى به فم دجيل وشد في رجله حجراً وألقاه في الماء[2]. » وقد ورد ذكر نهر دجيل في اخبار سنة ١٣٢هـ . وهي السنة الاولى من حكم العباسيين ، فقال الطبري ان قحطبة امر اصحابه

---

(١) الطبري (٣ : ٢١٥٣) .

(٢) الطبري (٣ : ١٦٧١) .

أن يعبروا دجلة فعبروا وساروا بين دجلة ودجيل ومن ثم ذهبوا الى الانبار[1]. »

أما مدينة « دجيل » فكانت على نهر دجيل والأرجح انها كانت في موضع قرية سميكة الحالية ، وهي القرية التي سميت مؤخراً « الدجيل » ايضاً . وكان بالقرب من مدينة « دجيل » دير يسمى « دير الجاثليق » ، وقد ورد ذكر هذا الدير في حوادث مصعب بن الزبير وعبدالملك بن مروان ، فذكر ياقوت ان « دير الجاثليق دير قديم البناء رحب الفناء من طسوج مسكن قرب بغداد في غربي دجلة في عرض حربى وهو في رأس الحد بين السواد وأرض تكريت ... وعنده كانت الحرب بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير وكان الجيشان على شاطىء دجلة وإلى ذلك الموضع في العرض وعنده قتل مصعب بن الزبير... » فقال عبدالله بن قيس الرقيات وهو يرثي مصعباً :

لقد أورث المصرين خزياً وذلة ... قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما قاتلت في الله بكر بن وائل ... ولا صدقت عند اللقاء تميم

وأنشد محمد ابن ابي امية في دير الجاثليق قوله :

تذكرت دير الجاثليق وفتية ... بهم تم لي فيه السرور واسعفا
بهم طابت الدنيا وأدركني المنى ... وسالمني صرف الزمان واتحفا
ألا رب يوم قد نعمت بظله ... ابادر من لذات عيشي ما صفا

أما موضع « دير الجاثليق » فنميل الى الاعتقاد انه كان في موضع التل الاثري المسمى « تل الدير » ، وهو التل الواقع على بعد حوالي ستة كيلومترات من جنوب غربي قرية سميكة « الدجيل » الحالية (راجع اللوحة ٦) . وتتكون اطلال هذا الدير من بناء مربع من الآجر والجص تتوسطه ساحة تعلو سطح الارض المجاورة حوالي ثلاثة امتار ، ويعلو البناء الساحة على طول

---

(١) الطبري (٣ : ١٢) . راجع البحث التالي الخاص بنهر دجيل في الفصلين الثالث والحادي عشر .

الاضلاع الاربع من المتر الواحد الى المترين . أما مساحة البناء ومعها الساحة فتبلغ حوالي خمسة آلاف متر مربع[١]. ومما أورده البلاذري بصدد موضع « دير الجاثليق » قوله : « وانشدني محمد بن الاعرابي الراوية في بيعة عبدالملك لرجل من بلقين :

بدير الجاثليق على دجيل   عقدنا بيعة الملك الهمام
عقدنا بيعة لا إثم فيها   سيحوي نفعها اهل الشام[٢] ».

---

(١) يسمي الأهلون هذا الدير « دير زبارج » نسبة الى نهر زبارج الذي يتفرع من ضفة نهر دجيل اليمنى وينتهي الى قرب الدير المذكور ، وذلك لتمييزه عن دير آخر يقع على مسافة ١٩ كيلومتراً جنوباً ويسمى « تل الدير » أيضاً ، وقد أطلق الأهلون على الأخير اسم « دير الهور » لتمييزه عن الدير الشمالي . ومع أن أطلال هذا الدير تتكون من بناء مربع تتوسطه ساحة منبسطة على نمط بناء دير « زبارج » الا أنه أوسع وأعلى من « دير زبارج » اذ يبلغ طول ضلعه حوالي ١٥٠ متراً . ويرتفع البناء عن الأرض المجاورة زهاء ثمانية امتار ، كما أن الساحة التي تتوسط البناء تعلو سطح الأرض المجاورة حوالي خمسة امتار . وتوجد آثار بناء وسط الساحة يحتمل أنها اطلال مقبرة الدير . ونميل الى الاعتقاد بأن « دير الهور » هذا مكان « دير اشموني » الذي ذكره ياقوت فقال فيه ما نصه : « واشموني امرأة بني الدير على اسمها ودفنت فيه وهو بقطربل وكان من متنزهات بغداد وفيه يقول الثرواني :

اشرب على قرع النواقيس   في دير اشموني بتغليس

و عيد اشموني ببغداد معروف وهو في اليوم الثالث من تشرين الأول » .

واليك ما أورده الشابشتي بصدده في كتابه « الديارات » قال : « واشموني امرأة بني الدير على اسمها ودفنت فيه وهو بقطربل غربي دجلة . وعيده اليوم الثالث من تشرين الأول وهو من الأيام العظيمة ببغداد ، يجتمع أهلها اليه كاجتماعهم الى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من التطرب واللعب الا خرج اليه ... » . (راجع مقال الأستاذ كوركيس عواد « اشموني ـ كنائسها ودياراتها في بلاد الشرق » المنشور في مجلة المشرق عدد تشرين الثاني ١٩٤٦ ص ٥١٦ — ٥٢٤) . ولما كانت منطقة قطربل تقع بجوار « دير الهور » المذكور فيمكن أن يقال أن وصف ياقوت والشابشتي ينطبق عليه .

(٢) « أنساب الأشراف » الجزء الخامس (طبعة القدس) ص ٣٥٥ .

أما قرية «مسكن» فلا تزال اطلالها محافظة على اسمها القديم حتى اليوم وتبلغ مساحتها حوالي نصف مليون متر مربع فتسمى «خرائب مسكين» ، وهي كائنة على الضفة الغربية من نهر دجيل الحالي (راجع اللوحة رقم ٦) ، ويبعد موضعها حوالي ثلاثة كيلومترات من جنوبي قرية سميكة (الدجيل الحالية) . ولعل قبة « إمام منصور » الواقعة بالقرب من « تل مسكين » الى جهة الغرب تضم قبر مصعب بن الزبير الذي قيل أنه دفن هناك . ويقع قبر ابراهيم بن الاشتر على مسافة حوالي ستة كيلومترات من جنوبي « تل مسكين » و « إمام منصور » ، ولا تزال تسمى قبته « قبة السيد ابراهيم » وقد نقش على حجر فوق باب القبة ما يلي :

« هذا قبر المرحوم السيد ابراهيم ابن مالك الاجدر النخعي رسول علمدار الله صلى الله عليه وسلم ١٠٨٩ » .

ويقول العارفون من أهل سميكة أن قبر مصعب في نفس قبة السيد ابراهيم المذكورة وليس هناك ما يثبت ذلك أو ينفيه .

وقد ذكر ياقوت أن مسكن « موضع قريب من اوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق به كانت الوقعة بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢هـ فقتل مصعب وقبره هناك معروف. » أما ابن عبدالحق فقد قال ما نصه : « مسكن اسم للطسوج الذي منه اوانا من اعمال دجيل والموضع الذي به قبر مصعب على جانب دجيل به الآن قرية ودير الجاثليق قريب منه » .

ويحسن بنا أن ننقل هنا ما أورده البلاذري بصدد الوقعة التي كانت بين مصعب وعبدالملك في كتاب « أنساب الاشراف » قال : « فلما صح عند مصعب بن الزبير وصول عبدالملك يريده بعث الى ابن الاشتر الذي كان آنذاك في الموصل فأقدمه عليه فجعله على مقدمته وسار حتى أتى دما وهي من عمل الانبار ثم قطع منها حتى نزل بقرب اوانا وهناك دجيل ودير الجاثليق وباجيرا فعسكره وموضع

وقعته بين هذه المواضع » ، الى أن قال : « قالوا وبويع عبدالملك بدير الجاثليق ودفنت جثة مصعب هنـاك فقبره معروف بمسكن بقرب اوانا ويعرف موضع عسكره ووقعته بخربة مصعب وبصحراء مصعب وزعموا أنهـا لا تنبت شيئاً . وبعث عبدالملك برأس مصعب الى الكوفة أو حمله معه ثم بعث به الى عبدالعزيز بمصر فلما رآه وقد حذى السيف انفه قال رحمك الله أما والله لقد كنت من أحسنهم خلقـاً واشـدهم بأساً وأسخـاهم نفساً ثم رد رأسه الى الشـام فنصب بدمشق[1] . » وقد أشار البلاذري عند نقله اخبار عبدالملك ومصعب الى قرية تسمى « الاخنونية » وهي بين « مسكن » و « تكريت » ، فقال ما نصه : « فسار عبدالملك حتى نزل الاخنونية وهي بين مسكن وتكريت ونزل مصعب دير الجاثليق وهو بمسكن وبين العسكرين ثلاثة فراسخ ويقال فرسخان وخندق مصعب خندقاً على عسكره وعسكره اليوم يعرف بخربة مصعب[2] . » وذكر ياقوت أن « الاخنونية موضع من اعمال بغداد قيل هي حربى » ، وقد ذكرها ابن عبدالحق باسم الاخنونة وقال انها موضع من اعمال بغداد قيل هو حربى .

ومن القرى التي حافظت اطلالها على اسمائها حتى اليوم في منطقة دجيل عدا « مسكن » و « دجيل » ، « المنـارية » و « جمـد » ، و « جويث » ، و « الاجمة » . أما « المنارية » فقد ذكرها ابن الاثير في حوادث سنة ٥٢٦هـ وعدها من قرى دجيل[3] ، وهي تقع في التـلول المسماة اليوم « تلول مناري » الـكائنة على مسافة كيلومترين ونصف كيلومتر من جنوب غربي قرية سميكة الحالية وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من غربي « تل مسكين » (قرية مسكن) ، كما انها تقع شرقي « تل الدير » (دير الجاثليق) تماماً على مسافة ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر منه . وهناك نهر يسمى « نهر المناري » يتفرع من الضفة

---

(١) الجزء الخامس من كتاب « أنساب الأشراف » ص ٣٥٠ — ٣٥١
(٢) » » » » » ص ٣٣٧ — ٣٣٨
(٣) راجع الجزء العاشر ص ٤٧٧ .

اليمنى من نهر دجيل الحالي في نقطة تقع على مسافة حوالي الكيلومتر الواحد من شمالي ناحية سميكة الحالية فيمتدفي الاتجاه الجنوبي الغربي نحو « تلول المناري »، ثم يواصل سيره تاركاً « تلول المناري » على يمينه فيمتد الى ناحية الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات .

أما قرية « جمد » فقد ذكرها ياقوت قائلاً انها « قرية كبيرة كثيرة البساتين والشجر والمياه من اعمال بغداد من ناحية دجيل قرب اوانا ينسب اليها ابو عبدالله محمد بن احمد بن عبدالله الجمدي مات سنة ٥٨٤ . » كما ذكرها ابن عبدالحق في المراصد فقال انها « قرية كبيرة بدجيل من اعمال بغداد . » وموضع هذه القرية على النهر المسمى اليوم « نهر جمد » وهو النهر الذي يتفرع من الضفة الشرقية لنهر دجيل بجوار قرية سميكة الحالية فيسير شرقاً بين مجرى دجلة القديم ونهر دجيل .

وكانت قرية « جويث » من القرى المهمة في هذه المنطقة ، وهي لاتزال محافظة على اسمها القديم حتى اليوم فتسمى اراضيها الواقعة شرقي « تل مسكين » (قرية مسكن) ما بين الضفة الغربية لمجرى دجلة القديم ومجرى دجيل « اراضي جويث ». وقد ذكر ياقوت قرية جويث أيضاً فقال انها « موضع بين بغداد واوانا قرب البردان » ، إلا ان ابن عبد الحق نوه بخطأ هذا الوصف فتساءل كيف يمكن ان تكون الجويث قرب البردان في حين ان « البردان » تقع في الجانب الشرقي من دجلة و« اوانا » غربيها . ومما انشده جحظة في الجويث قوله :ـ

أيام نحوى حيث كنت لعاشق كفاً منيرة
ما بين حانات الجويث الى المطيرة فالحظيرة

اما « الاجمه » فلم يذكرها أحد غير ابن سرابيون وقد عدّها من المدن والقرى التي كانت على ضفتي نهر دجلة فعيّن موضعها بين « القادسية » و « العلث » إذ قال ان نهر دجلة يمر الى « القادسية » و « الاجمة » و « العلث » الخ ... ثم ذكرها في مكان آخر عند وصفه مجرى النهروان ومدنه فعيّن موضعها على ضفة

نهر القاطول الاعلى السكسروي مابين قرية « المحمدية » و « الشاذروان »[١].
اما موضع «الاجمة » بالنسبة الى الآثار الحالية فيتعذر تعيينه بصورة مضبوطة على ان هناك نهراً قديماً يسمى نهر «الجمة» يتفرع من الضفة الشرقية لنهر دجيل في نقطة تقع جنوبي بساتين سميكة الحالية مباشرة ، ولا بد ان قرية «الاجمة» كانت في موضع ما على هذا النهر ، ويلاحظ ان مجرى دجلة القديم الذي يسير الى جانب النهر المذكور يسمى اليوم « شطيطة الجمة » نسبة الى « الاجمة ».

ومن قرى دجيل التي جاء ذكرها في معجم ياقوت والتي يتعذر تعيين مواضعها قرية « روبا » التي ذكر ياقوت انها من قرى دجيل بغداد ونسب اليها ابا حامد طيب الروبائي الحربي ، وقرية « جبابين » التي قال انها « من قرى دجيل من اعمال بغداد وينسب اليها أحمد بن أبي غالب الجبائي » ، و « دور بني اوقر » التي ذكر انها « من مدن دجيل تقع على بعد خمسة فراسخ من بغداد وكان الوزير عون الدين يحيي بن هبيرة بنى فيها جامعاً ومنارة »[٢] .

وكان يحادد « طسوج مسكن » من الجنوب « طسوج قطربل » الذي يمتد جنوباً على محاذاة الضفة الغربية من دجلة حتى يتصل بمدينة بغداد الغربية . ومن أهم القرى التي كانت ضمن الطسوج المذكور « المزرفة » الواقعة على الجانب الغربي من مجرى دجلة ، وهي القرية التي مازالت محافظة على اسمها القديم حتى اليوم ، فتسمى المنطقة التي تقع فيها القرية « اراضي المزرفة » ، وهذه تقع على مسافة ٢٥ كيلومتراً من شمالي بغداد عن طريق النهر وعلى مسافة حوالي ستة كيلومترات من شمالي شرقي محطة التاجي الحالية . وقد ذكر ياقوت « قرية المزرفة » وقال عنها انها « قرية كبيرة فوق بغداد على دجلة بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ (١٥ كيلومتراً) واليها ينسب الرمان المزرفي كان فيها قديماً فاما اليوم

---

(١) راجع ماتقدم في صفحة ١٥٦
(٢) راجع ماتقدم في صفحة ٥٩

فليس فيها بستان البتة ولا رمان ولا غيره وهي قريبة من قطربل ... ينسب اليها أبو الهيثم خالد بن ابي يزيد وقيل انه يزيد المزرفي » . ويلاحظ ان لي سترانج عين موقع المزرفة في الجهة الشرقية من دجلة على حين أن موقعها الحالي من نهر دجلة لايترك أي شك في أنها كانت على الجهة الغربية ولا سيما بعد أن أيد ياقوت وقوعها في «طسوج قطربل» ، وهو الطسوج الذي كان يقع في الجانب الغربي .

١٥ ـ ملاحظات اجمالية :

يتضح مما تقدم أن النهروان بلغ ذروة ازدهاره في العهد الساساني وفي أوائل العهد العباسي ، فكان يتألف صدره الرئيسي من مدخلين ـ المدخل الصيفي عند القائم (مجرى القائم) ـ والمدخل الشتوي عند الصنم أمام القادسية (مجرى الصنم) ـ وبعد أن يلتقي المجريان يكونان نهراً واسعاً يمتد الى قرب الكوت قاطعاً مسافة ثلثمائة كيلومتر تقريباً . وكان علاوة على مجرى النهروان الرئيسي مجرى القاطول الأعلى الكسروي الذي يبدأ عند الدور ويلتقي بمجرى النهروان بالقرب من مجرى العظيم فيروي أراضي « طسوج بزرجسابور » الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة الذي كان يسير آنذاك في مجراه الغربي . وكان السدان على نهري ديالى والعظيم في جبل حمرين يحولان مياه هذين النهرين من مجريبهما الاصليين فيفسحان للنهروان مجال السير في طريقه الى الكوت فيجري في هذه المسافة الطويلة دون حائل أو عائق، كما كان سد نمرود يحول مياه دجلة الى المجرى الغربي المرتفع فيرفع مناسيب مياه النهر امام القائم والدور ويضمن بذلك دخول المياه الى النهروان والقاطول الاعلى المكسروي بمناسيب عالية في موسم الصيهود . هذا مايتعلق بالجانب الشرقي من دجلة ، أما مايتعلق بالجهة الغربية فكان نهر دجيل يتفرع من ضفة دجلة الغربية في نقطة تقع على مسافة قليلة من شمالي موضع سد نمرود فيمتد هو وفروعه في الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات الى أن يصل قرب مدينة بغداد فيروي أراضي طسوجي «مسكن» و « قطربل » .

وهكذا كان معظم أراضي الدلتا الزراعية الخصبة يروى سيحاً من النهرين ، النهروان ودجيل ، وقد استمرت هذه الحالة في العهد العباسي الزاهر حتى انهار سد ديالى حوالي أواخر القرن الثالث الهجري ، ثم عقبه سد العظيم فانهار حوالي القرن السادس الهجري ، وأخيراً وقعت الضربه القاضية بتحول مجرى دجلة حوالي أواخر القرن السادس الهجري من مجراه الغربي الذي يسير بين القادسية وبغـــداد الى المجرى الشرقي الحالي فكانت بها نهاية حياة النهروان الذي بقي مقبوراً حتى يومنا هذا .

الفصل الثالث

القاطول الكسروي ومشروع القورج

١ - القاطول الاعلى الكسروي

بحثنا فيما تقدم عن مشروع النهروان في مختلف أدواره فذكرنا ان المشروع كان في أول أمره يشتمل على المجرى الذي كان يستمد مياهه من دجلة جنوبي سامراء ، وهو المجرى الذي كان له هناك مدخلان، أحدهما للمياه الصيفية يتفرع عند القائم وآخر للمياه الشتوية يتفرع عند الصنم. أما الدور الذي يلي ذلك فهو الدور الذي أضيفت فيه اعمال جديدة لا تقل أهمية عن اعمال المشروع الاصلي على الرغم من أن هذه الاعمال تنحصر في منطقة محدودة ، ونعني بذلك المجرى الجديد الذي حفره كسرى أنو شروان الملقب بالعادل (٥٣١ - ٥٧٩ م) ، وهو المجرى الذي يطلقون عليه اليوم اسم « الرصاصي » ، وقد سماه العرب « القاطول الأعلى الكسروي » لتمييزه عن القاطول الاسفل (مجرى القائم) الذي يتفرع من جنوبي سامراء . ويتفرع القاطول الاعلى هذا عند الدور (دور تكريت) الواقعة على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من شمالي سامراء بطريق النهر فيسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي مسافة ٩٥ كيلومتراً تقريباً حتى يلتقي بمجرى القائم . أما اتجاهه فهو يسير على محاذاة الضفة اليسرى لنهر دجلة مسافة ٢٢ كيلومتراً تقريباً ثم يأخذ في الابتعاد عن نهر دجلة حتى اذا ما سار مسافة ثمانية كيلومترات أخرى وصار عند الكيلومتر (٣٠) أصبح مقابل مدينة سامراء الحالية وعلى بعد حوالي ثمانية كيلومترات منها ، ويستمر المجرى في الابتعاد عن نهر دجلة حتى اذا ما سار خمسة كيلومترات أخرى وصار عند الكيلومتر (٣٥) اصبح أمام صدر

مجرى القائم وعلى بعد حوالي ١٤ كيلومتراً منه ، ثم يسير بعد ذلك موازياً مجرى القائم ثم يقترب منه تدريجياً حتى اذا ما ابتعد مسافة ٦٥ كيلومتراً عن الصدر التقى بمجرى القائم في نقطة تقع على بعد حوالي سبعة كيلومترات من غربي نهر العظيم (راجع اللوحة رقم ٢) .

ويقطع القاطول المذكور عند الكيلومتر (٥٠٠/٥٢) من مجراه الوادي المعروف بوادي السدة ، وهو الوادي الذي يبدأ من الحد الجنوبي من بحيرة الشارع فيسحب فضلة مياه هذه البحيرة لصبها في دجلة[1] ، وقد سماه المؤرخون العرب « وادي الراجع » . وكان هذا الوادي قبل انشاء القاطول الاعلى يصب في ضفة القاطول الاسفل اليسرى (نهر القائم) ثم صار ينصب في القاطول الاعلى الكسروي بعد انشائه .

وعلى مسافة سبعة كيلومترات ونصف من فم مجرى القاطول المذكور تشاهد آثار قنطرة عبور قديمة لعلها انشئت في نفس الوقت الذي حفر فيه المجرى ، أي في زمن كسرى أنو شروان ، وكانت هذه القنطرة مبنية بالاحجار البازالتية السوداء المعروفة بالاحجار النارية التي نقلت ولا شك من أماكن جبلية بعيدة ، وقد استعمل الرصاص في البناء الأمر الذي أدى الى تسميته باسم قنطرة الرصاصي وتسمية المجرى الذي تقع عليه القنطرة باسم مجرى الرصاصي . وهناك تلان مرتفعان على رقبتي القنطرة يعرفان باسم تلي قنطرة الرصاصي يرجح ان الغرض من انشائهما هناك كان للدلالة على وجود جسر العبور في هذا المكان فيستعين بهما عابروا الطريق ليقصدوا موضع الجسر من مسافات بعيدة ، وهناك تعليل آخر لانشاء هذين التلين على رقبتي الجسر وهو انهما كانا يقومان مقام النصب التذكاري على رأس الجسر حسب العادة التي كانت متبعة عند انشاء مثل هذه المباني على الجداول .

---

(١) حول بحيرة الشارع راجع البحث الذي تقدم في صفحة ١٦٣ حاشية ١

ولا بد من الملاحظة ان القسم الظاهر من صدر هذا المجرى يقع قرب المتوكلية على بعد خمسة كيلو مترات تقريباً من جنوبي الصدر الاصلي الذي يتفرع من الدور، اما الصدر الاصلي فقد جرفته المياه بنتيجة تقدم مجرى دجلة الى الداخل ولم يبق إلا قسم قليل منه يقع تحت الدور مباشرة وهذا القسم يمتد مسافة حوالي ١٫٦٠٠ كيلومتراً على محاذاة حافة نهر دجلة (راجع اللوحتين ١ و٢) .

ويبـدأ قعر مجرى صدر القاطول الاعلى المذكور بمنسوب ٧٨٫٧٠ متراً فوق معدل مستوى سطح البحر ، ولما كان معدل منسوب الميـاه في نهر دجلة أمامه في الدور يبلغ في الوقت الحاضر حوالي ٧٥٫٥٠ متراً في موسم الفيضان[1] وزهاء ٧٠٫٥٠ متراً في موسم الصيهود فان قعر صدر هذا القاطول يكون أعلى من معدل منسوب فيضان النهر الحالي في موقع هذا الصدر بأكثر من ثلاثة امتار ، وأعلى من منسوب المياه الحالي في موسم الصيهود في ذلك المكان من النهر بأكثر من ثمانية امتار ، الأمر الذي يدل على أن منسوب الميـاه في نهر دجلة كان في زمن إنشاء مجرى القاطول أعلى مما هو الآن بحوالي ثمانية أمتار في موسم الصيهود وهذا يتفق الى حد كبير مع مناسيب نهر دجلة بالنسبة الى صدر القاطول الاسفل في القائم .

أما أبعـــاد مجرى هذا القـاطول فان عرض قعره يتراوح في مسافة الخمسة والعشرين كيلومتراً الاولى منه ، وهي المسافة التي يخترق فيها المرتفعات الحجرية الصلبة الواقعة في القسم الأعلى من المجرى ، بين العشرين والخمسة وعشرين متراً على حين أن عمقه هناك يبلغ ١٠ الى ١٢ متراً على وجه التقريب . أما بعد ذلك فيدخل المجرى الاراضي السهلة وهنا يتوسع عرضه حتى يصل الى مئة متر على

(١) ان المنسوب المذكور هو المعدل في الفيضانات الاعتيادية أما في الحالات التي تحدث فيها فيضانات خارقة وغير اعتيادية فقد يصل المنسوب في هذا المكان الى حد ٧٨ متراً فوق معدل مستوى سطح البحر .

حين أن عمقه يقل فيهبط الى حد المترين أو الثلاثة أمتار . ويزداد المجرى توسعاً بعد أن يتكون المجرى الموحد من القاطولين الاعلى والاسفل فيصل العرض الى حد ١٢٠ أو ١٣٠ متراً كحد أعظم .

٢ ـ أهداف القاطول الأعلى الكسروي :

أما الغـــاية التي أنشيء هذا القاطول لتحقيقها فهي إسقاء الاراضي السهلة الواقعة على ضفتيه ، وأهمها تلك القائمة على ضفته اليمنى والتي تقع بين القاطول الاعلى والقاطول الاسفل (نهر القائم)، وهي الاراضي التي تقع ضمن المثلث المتكون من ملتقى القاطولين ، ثم إسقاء الاراضي الواسعة بين القاطول الاسفل (نهر القائم) ومجرى دجلة الغربي القديم ، وهي أراضي « طسوج بزرجسابور » التي تمتد على طول الضفة اليسرى لمجرى دجلة القديم بين بلد وبغداد ومن ضمنها بساتين بلد الحالية ومجرى دجلة الحالي الذي كان أرضاً زراعية آنذاك[1] .

وكانت الجداول التي تروي هذه الاراضي تعبر من فوق مجرى النهروان الذي يتفرع من جنوبي سامراء على عبارات ضخمة(Aqueducts) ببناء الآجر، ومن جملة هذه العبارات تلك التي كانت تعبر عليهـا مياه القاطول الأعلى الكسروي فوق مجرى النهروان الصيفي (مجرى القائم) الى ثكنة القادسية ، وهي العبـّارة الواقعة أمام القادسية في المـكان المعروف بـ « فكة القادسية » الذي يبعد حوالي اربعة كيلومترات شرقي صدر القائم ، ثم العبارة التي في دائر الحوي الواقعة على مسافة حوالي ثمانية كيلومترات شرقي فـكة القادسية . ولما كان مجرى النهروان الشتوي الذي يتفرع عند الصنم يمتد موازياً لمجرى القائم بحيث يعترض الجدول الذي يعبر فوق مجرى القائم في دائر الحوي فقد انشئت عبارة اخرى على مجرى الصنم ليتسنى مرور الجدول المذكور الى السهل الواقع شرقي

---

(١) حول مجرى دجلة الغربي القديم راجع ما تقدم في صفحة ١٧٧ ، أما حول « طسوج بزرجسابور » فراجع ما تقدم في صفحة ١٨٢ .

مجرى دجلة القديم . وهذه العبارة هي التي وصفها فيليكس جونس في بحثه عن النهروان وذلك عندما قام بمسح هذه المنطقة في سنة ١٨٤٦ ، وقد رسم فيليكس جونس هـذه العبارة كما شاهدها وهي مكونة من خمس دعامات ضخمة وست فتحات واسعة . وضخامة هـذه العبارة تعطينا فكرة عن سعة المجرى الشتوي للنهروان ، ومدى قابلية استيعابه للمياه في موسم الفيضان . ومما ذكره فيليكس جونس أن العبارة المذكورة تقع غربي خان المزرقجي ، الذي يسمى الآن خان صعاوية الذي يقع على مسافة حوالي كيلومترين شرقي دائر الحوي ، وأن مجرى دجلة كان قد جرف قسما كبيراً من بنائها . أما الآن فلم يبق من آثار هذه العبارة شيء يذكر ، فقد تقدم مجرى دجلة الى الداخل بحيث جرف كل البنـاء وبذلك محى معالم مجرى النهر الذي كانت عليه العبارة في هذا المكان . ولا تزال آثار الجداول التي كانت تتفرع من القاطول الأعلى الكسروي وتنتهي الى الضفة اليسرى لمجرى دجلة الغربي القـديم تعرف باسم « النهروانات » وقد أصبحت الآن على الضفة اليمنى لمجرى دجلة الحالي .

ومما يؤسف له أن الاهلين قلعوا المادة التي بنيت بها هذه المنشئات واستعملوا آجرها في بناياتهم ، الأمر الذي يجعل دراسة التصاميم الاصلية لهذه المنشئات من الصعوبة بمكان .

٣ ـ طسوج بزرجسابور والسر الغاطس في ذنائب القاطول الكسروي

وكانت المنطقة الواقعة شرقي مجرى دجلة القديم ، وهي التي انشيء القاطول الكسروي لتأمين إروائها ، تعرف باسم « طسوج بزرجسابور[1] » ، ومما يؤيد أنها كانت كثيفة بسكانها ومزارعها ما نشاهده اليوم من بقايا المدن والقرى المنتشرة في أرجائهـا وآثار الجداول القديمة المنبثة في كل بقعة من

---

(١) حول « طسوج بزرجسابور » راجع ما تقدم في صفحة ١٨٢

اراضيهـــا ، فهناك تلول أثرية لا تحصى ، هي اطلال المدن والقرى التي ازدهرت هناك في هذا العهد ، كما أن هناك آثار جداول قديمة تمتـــد في كل ناحية يستدل منهـا على أن المنطقة كانت عامرة بالبساتين الكثيفة والحقول والمزارع الكثيرة . وتدل المنشئات التي على مجرى القاطول الأعلى الكسروي أن المياه التي كان يسحبها هذا القاطول من نهر دجلة في موسم الصيهود كانت تحوّل برمتهـا الى الجداول التي تروي منطقة بزرجسابور المذكورة بحيث لم يبق منها ما يسيل الى مجرى النهروان في الجنوب ، أي المجرى الذي يتكون من اتحاد مجرى القاطول الأعلى مع القاطول الاسفل (مجرى القائم) . ولتأمين تحويل كل المياه الى الجداول المذكورة أنشىء على مجرى القاطول الأعلى،عند منتهاه قرب الملتقى بمجرى القاطول الاسفل، سد غاطس ضخم (Weir) على نمط تصميم سد ديالى الثابت الذي أنشىء مؤخراً على نهر ديالى في مضيق جبل حمرين لحجز ميـــاه ديالى الصيفية أمامه وتحويلها الى الجداول الزراعية . وهذا السد، الذي لايزال الجناح الغربي منه ماثلاً للعيان حتى الآن ،كان يحجز المياه هناك في موسم الصيهود فيحوّلها برمتها الى الجداول المتفرعة من أمام السد فتعبر من فوق مجرى القاطول الاسفل (نهر القائم) وتمتد الى منطقة بزرجسابور في الجانب الشرقي من مجرى دجلة الغربي القديم هذا في موسم الصيهود ، أما في موسم الفيضان فكانت المياه الزائدة تنصب من فوق السد فتجري في مجرى النهروان الرئيسي الذي يتكون من اتحاد القاطول الأعلى بالقاطول الاسفل (مجرى القائم) فتنحدر مياه القاطولين الى الجنوب .

ويقوم هذا السد على قاعدة مبنية بالنورة والآجر الضخم الذي تبلغ أبعاده (٤٠ × ٣٥ × ١٢) سنتمتراً،فيرتفع عن منسوب قعرالنهر عند القمة مترين ونصف متر تقريباً ثم يمتد على أرضية مسرحة من الخرسانة تنحدر بتسريح ١ الى ١٢ . ويبلغ طول هذه القاعدة التي تمتد باتجاه ضفة النهر ٢٥ متراً تقريباً ، أما طول

السد على عرض مجرى القاطول فيبلغ حوالي ١٣٠ متراً . وقد رسمنا تصميم السد مستندين الى المعلومات التي حصلنا عليها من بقايا البناء (راجع رسم رقم ٦ ـ تصميم السد الغاطس على مجرى القاطول الكسروي) .

والفرع الرئيسي الذي كان يستمد المياه من أمام هذا السد هو النهر الذي كان يتفرع من أمام السد مباشرة فيعبر هذا الفرع فوق مجرى النهروان الرئيسي (القاطول الاسفل) على عبّـارة ضخمة ذات فتحة كبيرة واحدة (Aqueduct)ثم يتفرع الى فرعين ، الفرع الشرقي والفرع الغربي (راجع رسم رقم ٧ — مخطط يبين التقسيمات التي في ملتقى القاطول الأعلى الكسروي بمجرى القائم) ، فيجري الفرع الاول في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو عكبرا الواقعة على الجانب الشرقي من مجرى دجلة القديم فيروي الاراضي الواقعة بين مجرى دجلة القديم ومجرى دجلة الحالي . ويمكن تتبع آثار هـذا الفرع في الجانب الغربي من مجرى دجلة الحالي حيث يسميه الاهلون هناك« نهر عكاب »، ومن جملة فروعه الرئيسية الانهر القديمة التي يسميها الناس « خيوط الجمة » و « عرقوب المعرض » و « خيوط الاجدع » . أما الفرع الثاني ، أي الفرع الغربي ، فيسير في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو التل المعروف بـ « تل الذهب » . ويمكن تتبع آثار هـذا الفرع أيضاً في الجانب الغربي من مجرى دجلة الحالي فيسميه الاهلون هناك « عركوب عكيل » . ولهذا الفرع عدة تشعبات تتشعب من الجانبين أيضاً فتروي المنطقة التي يخترقها . وتشاهد آثار بناء في صدر الجدول الرئيسي الذي يتفرع من امام السد وذلك بعد ان يعبر القاطول الاسفل ، يستدل منها على انه كان ناظم رئيسي في هذا المكان تنظم به كمية المياه التي تدخل الى الجدول .

وقد لاحظ فيليكس جونس هذه المنشئات أثناء مسحه منطقة النهروان فلم يستطع التوصل الى معرفة الغاية التي انشئت من اجلها، وكل ما خطر له من رأي هو انها

أقيمت على القاطولين في موقع اتحادهما للحد من قوة تيار المياه أمام قنطرة العبور المنشأة على مجرى النهروان بعد اتحاد القاطولين ، وهي القنطرة التي تقع أمام مصب « نهرالبت » (١) في النهروان والتي كانت تؤمن العبور على مجرى النهروان في ذلك المكان ، حيث تقع آثار أبنية كثيرة تدل على أن هذه المنطقة التي يتحد فيها القاطولان كانت كثيفة بسكانها مزدحمة بقراها وبناياتها على جانبي النهر . أما الآن فلا يوجد أي أثر لهذه القنطرة لأن الاهين اقتلعوا آجرها الى اعمق نقطة من اسسها ثم زرعوا مكانها بحيث لم يبق أي أثر للبناء . إلا ان الذين نصبوا مضخه على مصب نهر البت لارواء الاراضي التي تقع القنطرة فيها يؤيدون بأنه كان أثر لبناء جسر في هذا المكان .

٤ ـ القاطول الاعلى الكسروي والقاطول الاسفل (مجرى القائم)

يتضح مما تقدم ان مشروع النهروان كان يقسم في أول أمره الى قسمين : قسم القاطول الاسفل (مجرى القائم) وهو نهر مستقل يتفرع من جنوبي سامراء فيحمل المياه الى مجرى النهروان في الجنوب ، وقسم القاطول الاعلى الكسروي ، وهو نهر مستقل أيضاً يتفرع عند الدورفيروي منطقة برزجسابور الواقعة على الجانب الشرقي من مجرى دجلة الغربي القديم بما فيها الاراضي الكائنة بين القاطولين الاعلى والاسفل ، وذلك بفضل السد الغاطس المنشأ في نهاية القاطول الاعلى عند ملتقاه بالقاطول الاسفل ، وهو السد الذي كان يحجز المياه الصيفية التي تجري في القاطول الاعلى كلها فيحولها الى الجداول التي تمتد الى تلك المنطقة . هذا في موسم الصيهود ، أما في موسم الفيضان فتتجمع مياه القاطول الاسفل مع مياه القاطول الاعلى التي تنصب من فوق السد الغاطس الذي في ذنائبه فتسيل مياه القاطولين في مجرى النهروان الموحد الذي يمتد الى قرب الكوت .

---

(١) ان نهر « البت » المذكور هو الذي يتفرع من امام سد العظيم في الجانب الغربي

٥ ـ مشروع نهر القورج

وقد حدث بعد انشاء القاطول الاعلى الكسروي حادث لم يكن في الحسبان ذلك ان مجرى القاطول الاعلى صار يسحب اكثر مياه دجلة في موسم الصيهود مما أدى الى هبوط منسوب مياه دجلة الصيفي امام صدر القاطول الاسفل (نهر القائم) بحيث أصبح تموين هـذا الصدر بالمياه الكافية في موسم الصيهود متعذراً . واذا ما لاحظنا ان القاطول الاسفل كان يتفرع من نهر دجلة من دون سد حاجز على مجرى دجلة لرفع مناسيب المياه هناك وتحويلها الى صدره اتضح لنا ان رفع مستوى المياه في نهر دجلة لتحويلها الى صدر نهر القائم أصبح متوقفاً على تزييد مياه دجلة نفسها . ويروي لنا ياقوت في معجمه ان أهل الجنوب القاطنين بجوار بغداد الشرقية وفي جنوبيها راحوا يتظلمون لدى كسرى من جراء انقطاع المياه عنهم بعد انشاء القاطول الاعلى الذي صار يسحب معظم مياه نهر دجلة عند شحتها فيه ، فحملوه على ترك مجرى القائم وفتح جدول جديد من جنوبي صدر نهر القائم لأيصال المياه الى تلك النواحي الجنوبية ، وصار يعرف هذا الجدول في زمن العرب باسم « القورج » ، وإليك ما كتبه ياقوت في هذا الصدد ، قال : « ... إن كسرى لما حفر القاطول (القاطول الأعلى) أضر ذلك بأهل الاسافل وانقطع عنهم الماء حتى افتقروا وذهبت أموالهم فخرج أهل تلك النواحي الى كسرى يتظلمون إليه مما حلّ بهم فوافوه وقد خرج متنزهاً فقالوا أيها الملك إنا جئنا نتظلم فقال ممن قالوا منك فثنى رجله ونزل عن دابته وجلس على الارض فأتاه بعض من معه بشيء يجلس عليه فأبى وقال لا أجلس إلا على الارض إذ أتاني قوم يتظلمون مني ثم قال ما مظلمتكم قالوا حفرت قاطولك فخرب بلادنا وانقطع عنا الماء ففسدت مزارعنا وذهب معاشنا فقال إني آمر بسده ليعود إليكم ماؤكم قالوا لا نجشمك أيها الملك هذا فيفسد عليك اختيارك ولكن مُر أن يعمل لنا مجرى من دون القاطول فعمل لهم مجرى بناحية القورج

يجري فيه الماء فعمرت بلادهم وحسنت أحوالهم وأما اليوم (٦٢٦هـ .) فهو بلاء على أهل بغداد فانهم يجتهدون في سده وإحكامه بغاية جهدهم وإذا زاد الماء فأفرط بثقه وتعدى الى دورهم وبلدهم نخربه . » وقد جاء فيما ذكره ابن عبدالحق في مراصد الاطلاع (٧٣٩هـ .) ما يؤيد ذلك فقال « إن القورج نهر بين القاطول وبغداد منه يكون غرق بغداد كل وقت تغرق يجتهدون في سده وإحكامه بغاية جهدهم وإذا زادت دجلة بثقة فأغرق ما حول بغداد كله »

٦ - آثار مجرى القورج

وقد نتساءل الآن أين قد يكون مجرى القورج الذي أنشأه كسرى ، وهو النهر الذي كان يستمد المياه من دجلة في نقطة تقع بين القاطول وبغداد ؟ ثم أصبح مصدر خطر على مدينة بغداد من الغرق ؟... لقد حاولنا كثيراً تتبع آثار هذا النهر للوقوف على مجرى صدره بالضبط إلا أن التخريبات التي خلفها نهر دجلة بعد تحوله من مجراه الغربي القديم الى المجرى الشرقي الحالي لم يبق لنا أي مجال للوقوف على آثار مجرى هذا الصدر ، ولا سيما إذا ما لاحظنا بأن مجرى القورج كان العامل الاساسي في تحول نهر دجلة من المجرى الغربي القديم الى المجرى الشرقي الحالي ، وأن نهر دجلة تحول من نفس المكان الذي يتفرع منه صدر القورج واحتل القسم الأعلى من مجراه . يضاف الى ذلك أن المضخات التي نصبت على ضفتي مجرى دجلة الحالي والجداول الكثيرة التي أنشئت هناك لنقل المياه الى المزارع والأنهر الكثيرة التي أنشئت في ذنائب جدول الخالص، وكذلك الانهر التي أنشئت في منطقة نهر دجيل بعد تحول مجرى دجلة الى الشرق، كل هذه جعلت من الصعب تعيين الموقع الذي كان يتفرع منه نهر القورج بالضبط . ومع ذلك ، فإن هناك بعض الآثار التي تدل على أن صدر نهر القورج كان يقع في مكان غير بعيد من مدينة « العلث » وهو نفس الموقع الذي تحول منه نهر دجلة عندما غيّر مجراه واتجه نحو الشرق باتجاه مجراه الحالي ، وسيأتي

البحث عن ذلك فيما يلي ؛ لذلك لا يمكننـــا أن نتتبع غير آثار بعض أقسام هذا النهر البعيدة عن الصدر . إذ يستدل من هذه الآثار المتبقية على أن مجرى القورج كان يسير موازياً مجرى النهروان تماماً على بعد حوالي كيلومتر ونصف أو كيلومترين منه جنوباً ، فتوجد ابتداء من الشمال قطعة يبلغ طولها حوالي الكيلومترين لا تزال آثار المجرى فيها واضحة ، وهـذه تبعد عن مجرى العظيم الحالي حوالي اثني عشر كيلومتراً شرقاً ، وهي تقع على الضفة اليسرى لمجرى دجلة الحالي على بعد زهاء خمسة كيلومترات من جنوب غربي قلعة الناي[1] ثم يختفي المجرى لمسافة حوالي ثمانية كيلومترات حيث يتقدم نهر دجلة الحالي الى الداخل فيمحي معالمه . وقد ساعدت السيول، ولا سيما سيل «وادي جلب علي» الواقع في هذه المنطقة، على محو آثار المجرى في هذا القسم ، إلا أن المجرى يعود فيظهر في شمال غربي دلتاوة (الخالص الحالية) في نقطة تقع في الحد الجنوبي لهور الدغارة[2] فيسير في جنوبي النهروان الأصلي وعلى موازاته مسافة حوالي خمسة كيلومترات حتى تعترضه بساتين «عليبات» في ضواحي الخالص فيختفي مرة أخرى وسط هذه البساتين مسافة حوالي ثلاثة كيلومترات[3] ثم يعود فيظهر بعد أن يجتاز مزارع الخالص . ويبلغ عرض مجرى القورج في القسم الظاهر الواقع جنوبي « هور الدغارة » ٦٠ الى ٧٠ متراً ويتفرع من ضفته اليمنى من

---

(١) قلعة الناي قلعة قديمة في وسط أراضي الفرفة شرقي العظيم وهي مسورة بسور مربع طول كل ضلع من أضلاعه زهاء ٥٥ متراً وقد بني السور بلبن حجمه (٤٥ × ٤٥ × ١٥ سنتيمتراً) . وهناك اجماع على أن القلعة تعود الى العهد الفارسي (راجع اللوحة رقم ٣) .

(٢) يؤلف هور الدغارة هذا منخفضاً واسعاً تغمره مياه دجلة الحالي في مواسم الفيضانات وقد تكون بنتيجة تقدم مجرى دجلة الى الشرق وبذلك محى معالم كلا المجرين النهروان والقورج في هذا القسم (راجع اللوحة رقم ٣) .

(٣) ويختفي هنا النهروان الاصلي الذي يسير موازياً مجرى القورج من الشمال حيث تخترق جداول الخالص وبساتين دلتاوة مجراه أيضاً .

شمالي بساتين جيزاني الجول مباشرة نهر واسع يسمى « خيوط النهروان » فيسير هذا النهر على محاذاة حدود بساتين « جيزاني الجول » الشمالية مسافة عدة كيلومترات ولا شك في أن النهر المذكور كان أحد الفروع التي تتشعب من نهر القورج لأرواء أراضي « طسوج بزرجسابور » التي كانت تقع شرقي مجرى دجلة الغربي القديم . ويظهر أنه كان سد من البناء على مجرى القورج في المكان الذي يتفرع منه هذا النهر لحجز المياه وتحويلها الى النهر المذكور ، إذ تؤيد الروايات المتواترة وجود آثار بناء قديم في هذا المكان من المجرى . ويخترق مجرى القورج في هذا القسم الظاهر منه طريق بغداد — كركوك العام ، ويوجد بعض الخرائب على ضفته اليمنى في المكان الذي يخترقه الطريق المذكور يقال لها « خان النهروان » ، وهي خرائب أحد الخانات القديمة التي كانت تنزلها القوافل في طريقها بين كركوك وبغداد (راجع اللوحة رقم ٣) .

ويلاحظ أن نهر دجلة بعد أن احتل القسم الأعلى من مجرى القورج وسار في عقيق القورج مسافة حوالي خمسين كيلومتراً عرج من قرب « هور الدغارة » الى الجهة الجنوبية الغربية تاركاً نهر القورج في شرقيه. وكانت نتيجة ذلك أن نهر القورج صار بعدئذ يستمد المياه من نهر دجلة بالقرب من « هور الدغارة » ، أي أن صدره تحول الى مسافة حوالي خمسين كيلومتراً جنوباً (راجع اللوحة رقم ٣) .

وإذا ما واصلنا تتبع آثار مجرى القورج نجد أنه بعد أن يجتاز بساتين « عليبات » و « دلتاوة » يندمج بنهر الخالص (نهر التحويلة الحالي) الى مسافة حوالي ستة كيلومترات ثم يفترق عن نهر التحويلة المذكور فيتركه الى غربيه ويستمر في سيره في الاتجاه الجنوبي الشرقي موازياً مجرى النهروان الأصلي الذي يسير الى شماليه على مسافة حوالي كيلومتر ونصف كيلومتر منه (وهي المسافة التي بقي مجرى القورج محافظاً عليها على طول مجراه بينه وبين النهروان) حتى يلتقي به شرقي مجرى ديالي الحالي في جنوبي قرية « بهرز » بحوالي ثلاثة كيلومترات. ويبلغ

طول مجرى القورج في القسم الذي يمتد من النقطة التي يترك فيها نهر الخالص (التحويلة) الى أن يتصل بمجرى النهروان حوالي ١٦ كيلومتراً . ويلاحظ أن آثاره في هذا القسم أكثر وضوحاً منه في أي قسم آخر من مجراه ، ويطلق الاهلون على هذا القسم اسم « نهر الـكاطون » (نهر القاطون) ، ولا شك أن اسمه الأصلي كان « القاطول » ثم حرّفت اللام راءً فصار « القاطون » . وهناك بعض الغزل من الشعر العامي عن هذا (القاطون) تناقلته الألسنة بالتواتر فمن جملة ما قيل في هذا الصدد البيتان التاليان : —

على« الـكاطون » (القاطون) وِرْدَنْ زوج ِحيّلْ
امضمّر والبطون حيـــل
ليش يـا ابـو شويبـــه د تتـحيّـــل
د ضم الشيب واردس بالشبـاب

والقاطول الذي كان يؤلف مجرى القورج نهر قديم ذو ضفاف عالية يفوق مجرى النهروان في سعته مما يدل على انه توسع كثيراً في عهـده الأخير بحيث أصبح مصدر خطر شديد على مدينة بغداد الشرقية من الغرق منه،الأمر الذي حمل الرشيد على تركه والرجوع الى نهر القائم ، وسيأتي البحث عن ذلك . ويكفي للمرء ان يتتبع الآثار الحالية للفروع التي كانت تتشعب من ضفة نهر القورج (نهر القاطون) اليمنى في قسمه الظاهر الاخير قبل ان يتصل بمجرى النهروان الاصلي ليقف على جسامة المشروع ، فان كلاً من هذه الفروع يضاهي مجرى النهروان نفسه في سعته ، ومن جملة هذه الفروع التي لا تزال آثارها ماثلة للعيان ، على الرغم من ان الجداول الحديثة المتفرعة من نهر الخالص اخترقتها أو سارت في وسطها ، النهر القديم المسمى « نهر دجيلة » ، وهو النهر الذي يسير في وسطه مجرى المرادية الحديث ، والنهر القديم المسمى « نهر أبي دحيل » وهو النهر الذي يسير في وسطه نهر الخضرية الحالي ، والنهر القديم

المسمى « خيط رميل » ، وتتجه هذه الفروع كلها نحو المنطقة الواقعة على ضفة نهر دجلة اليسرى شمالي مدينة بغداد الشرقية .

أما طول مجرى القورج من صدره حتى ملتقاه بمجرى النهروان الاصلي في جنوبي بهرز فيبلغ حوالي ثمانين كيلومتراً يسير في هـــذه المسافة كلها موازياً النهروان الاصلي من ناحية الجنوب . ولا بد لنا من أن نذكّر القارىء في هذا الصدد بما تقدم ذكره عن أن مجرى النهرين ، العظيم وديالى ، كانا مسدودين عند جبل حمرين في هذا الدور ، الأمر الذي ساعد على امتداد مجرى القورج بموازاة مجرى النهروان الاصلي من الجنوب من دون أن يعترضه أي عارض في طريقه .

وهكذا فقد صارت مهمة مجرى القورج ارواء الأراضي الواقعة على ضفتي النهروان ما بين العظيم والـكوت في الموسم الصيفي بعد ان كان مجرى القائم يقوم بهذه المهمة .

٧ - موقع صدر نهر القورج - سد العلث

اما الموضع الذي كان يبدأ منه مجرى القورج بالنسبة الى مجرى دجلة الغربي القديم (الشطيطة الحالي) فالذي استخلصناه من تحققاتنا انه كان يتفرع من امام مدينة العلث في نقطة تقع على بعد حوالي سبعة كيلومترات من جنوب شرقي القادسية أو زهاء عشرة كيلومترات من شمال غربي بلد (راجع اللوحة رقم ٢) ، ثم يسير في اتجاه مجرى دجلة الحالي ، وهو المجرى الذي كان يسير فيه نهر دجلة الاصلي قبل انشاء سد نمرود ثم تحوّل بعدئذ الى أرض زراعية سهلة على أثر تحول مجرى دجلة الى جهة الغرب[1] ، حتى يتصل بالقسم الظاهر من مجراه في جنوبي « قلعة الناي » (راجع اللوحة رقم ٣) . وليتسنى حجز مياه دجلة الصيفية ورفع مناسيبها في موسم الصيهود لتحويلها الى صدر القورج

(١) حول موضوع سد نمرود وتحول مجرى دجلة راجع ما تقدم في صفحة ٦٧ .

انشيء سد حجري على نهر دجلة عند «العلث». وقد أشار مؤرخوا القرن الرابع الهجري الى بقايا سد العلث هذا، وكان قد توقف استعماله آنذاك بنتيجة رجوع الرشيد الى استعمال مجرى القائم بدلاً من مجرى القورج الذي أصبح مصدر خطر على مدينة بغداد نفسها كما سنرى في البحث الذي يلي[1]. واليك ما كتبه علي بن محمد الشابشتي (٣٨٨ هـ) في هذا الصدد، قال: «والعلث قرية على شاطيء دجلة، في الجانب الشرقي منها، وبين يديها من دجلة موضع صعب، ضيق المجاز، كبير الحجارة، سديد الجرية، تجتاز فيه السفن بمشقة. وهذه المواضع تسمى الأبواب واذا وافت السفن الى العلث أرست بها فلا يتهيأ لها الجواز إلا بهاد من أهلها يكترونه، فيمسك السكان ويتخلل بهم تلك المواضع، فلا يخطها حتى يتخلص منها»[2].

اما موقع سد العلث فمن المرجح انه كان قرب مدينة العلث ولعل مدينة العلث نفسها نشأت بعد فتح نهر القورج وانشاء السد على نهر دجلة في ذلك المكان. ولم نعثر على آثار السد في مجرى دجلة القديم (الشطيطة) لتراكم الاتربة والترسبات فيه وحفر نهر بلد في وسطه، وهو النهر الذي حفره المستنصر لارواء بساتين بلد والحظيرة، فكان هذا الفرع يستمد مياهه من ضفة نهر دجيل اليسرى في نقطة تقع بالقرب من «إمام الخضر» الحالي فيسير قسم غير قليل من مجراه وسط عقيق دجلة القديم (الشطيطة) قبل ان يصل الى بساتين بلد[3].

٨ ـ خطر نهر القورج على مدينة بغداد الشرقية من الغرق

ولا شك ان مجرى القورج ـ بحكم وقوعه في أراضي منخفضة وبوجود سد

---

(١) راجع البحث الذي يلي في الفصل الرابع مادة ـ٢ـ مشروع الرشيد.

(٢) حول قرية العلث راجع ما تقدم في صفحة ١٨٣

(٣) راجع البحث التالي الخاص بنهر دجيل القديم في هذا الفصل.

العلث تحت صدره ـ كان يسحب معظم ما يتبقى من مياه دجلة في موسم الصيهود فينقلها الى مجرى النهروان لأرواء الأراضي الواسعة التي تمتد بين العظيم والكوت . أما في موسم الفيضان فكانت كل المداخل التي تتفرع من دجلة وهي مداخل القاطول الأعلى الكسروي والقاطول الاسفل (مجرى القائم) والقورج نفسه تصب مياهها الزائدة في مجرى النهروان مما جعل المنطقة التي تقع فيها مدينة بغداد الشرقية مهددة بالغرق من فروع القورج ومن فروع النهروان التي تمتد الى تلك المنطقة . وكان مجرى القورج اكثر خطراً لوقوعه في منطقة واطئة تتسلط عليها مياه الفيضان من ارتفاع كبير . وهذا هو السبب الذي أدى أخيراً الى تحول نهر دجلة في القسم الاعلى من مجرى القورج ، إلا ان ذلك لم يزل الخطر عن مدينة بغداد لأن مجرى القورج صار بعد ذلك يسحب المياه من نهر دجلة من جنوبي الصدر القديم كما سبق بيانه[١].

٩ ـ فروع نهر القورج

أما الفروع التي كانت تخرج من مجرى القورج فان أول فرع من الشمال هو الفرع الذي كان يتشعب من ضفته اليمنى من نقطة تقع على مسافة تسعة كيلومترات تقريباً من جنوبي مجرى العظيم ويمتد هذا الفرع في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو «عكبرا» الواقعة على الجانب الشرقي من مجرى دجلة القديم . ويمكن تتبع آثار هذا الفرع في الجانب الغربي من مجرى دجلة الحالي فهو يبدأ بالنهر القديم المسمى « خيط المنثر القديم » (الخيط الكبير والخيط الصغير) ثم يتصل بالنهرين القديمين المعروفين باسمي « خيط أبي جراد » و « خيوط الجبورة » ، وهناك فرع آخر يتفرع من القورج على مسافة بضعة كيلومترات جنوباً يمكن تتبع آثاره في الجانب الغربي من مجرى دجلة الحالي أيضاً وهو يعرف بأسم « خيط أحمد المنصور » حيث تقع هناك تلول الدمر . وكان يمتد هذا الفرع جنوباً باتجاه « السعدية » الواقعة شرقي مجرى دجلة الحالي فيتصل بالنهر القديم المسمى

---

(١) راجع ما تقدم في صفحة ٢١٥

« خيط چلوب » وهو النهر الذي يخترق بساتين السعدية ويمتد جنوباً باتجاه المنصوريه (راجع اللوحة رقم ٣).اما منطقة الخالص الحالية، بما فيها «السندية» و « الجديدة » و « الجيزاني » و « قصيرين » و « هبهب » و « اللقانية » والبساتين الواقعة في هذه المنطقة ، فكانت تروى من الفروع التي تتشعب من مجرى القورج ، وهذه كانت تمتد حتى الضفة اليسرى لنهر دجلة القديم قرب « بصرى » و « عكبرى » . ويمكن تتبع آثار هـــذه الفروع على جانبي مجرى دجلة الحالي حيث تؤلف هناك شبكة واسعة من المجاري القديمة .وكانت آثار هذه الانهر القديمة اكثر وضوحاً عندما رسم فيليكس جونس خرائط المسح لهذه المنطقة قبل مئة سنة تقريباً . اما الآن فقد ازالت المضخات التي نصبت على جانبي مجرى دجلة الحالي خلال ربع القرن الأخير معالم معظم هذه الآثار ولا سيما بعد ان استعمل الزراع الجداول القديمة نفسها بعد اعادة حفرها لنقل مياه مضخاتهم بها الى مزارعهم . هذا وهناك فروع رئيسية كانت تتفرع من جنوب الخالص لا تزال آثارها جلية واضحة كـ « نهر الجاث» و « نهر أبي رميل » وغيرهما من الفروع التي صارت تستعمل الآن لأرواء المزارع في تلك المنطقة . وكانت هذه الفروع تخترق أراضي « المرادية » و «الخضرية» الحالية وتمتد نحو « هور الراشدية » الواقع على الضفة اليسرى من نهر دجلة[1]

وكان أعظم فروع «مجرى القورج » الفرع الخارج من الموضع الذي يعبر فيه نهر القورج مجرى ديالى الحالي ، فيسير هــذا الفرع موازياً مجرى ديالى الحالي حتى قرب محطة القطار في كاسلزبو سنت ، وقد اكتسح مجرى ديالى المذكور معظم آثار هذا الفرع وكانت تتشعب من هذا الفرع عدة تشعبات أهمها الانهر المعروفة اليوم بأنهر «خشم كوذري » و «الأبتر » و «الفتحة » التي تنتهي عند «تلول مريم» .ومما لا شك فيه هو أن معظم هذه الفروع كانت قبل إنشاء مجرى

(١) راجع ما تقدم في صفحة ٢١٦ .

القورج تتفرع من مجرى النهروان الاصلي الذي يمتد موازياً مجرى القورج من الشمال ثم بعد أن أنشيء نهر القورج صارت تتشعب منه .

وفي ضوء ما تقدم لا عجب إذا أصبح مجرى القورج في الأدوار الاخيرة مصدر خطر على مدينة بغداد الشرقية من الغرق ، ويكفينا أن نلاحظ سعة « نهر خشم كودري » وضفافه الشامخة ، وهو النهر الذي لم يكن إلا شعبة من فروع مجرى القورج ، لتكوين فكرة عن مدى عظمة هـذا المشروع وكذا الفروع الاخرى التي لا تقل عن « نهر خشم كودري » حجماً وسعة .

١٠ ـ نهر دجيل القديم

كان يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة مقابل صدر القورج عدة أنهر رئيسية تبدأ من أمام « سد العلث » وتسير هي وتشعباتها غرباً لأرواء الاراضي الواقعة غربي مجرى دجلة (الشطيطة الحالية) . ولا تزال آثار معظم هذه الانهر وضفافها المرتفعة ماثلة للعيان بالقرب من « جربى » فتؤلف هناك سلسلة تلول عالية (راجع اللوحة رقم ٢) . وكان نهر دجيل أكبر هذه الانهر وأولها من الشمال فيتفرع في نقطة تقع جنوبي « تل مسعود » مباشرة فيتبع أثر النهر القديم المسمى « عرقوب النهروان » مسافة حوالي خمسة كيلومترات حتى يصل الى موضع « إمام الخضر » الحالي فينقسم عند موضع الامام المذكور الى فرعين ، يسير أحدهما في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو قرية « سميكة » الحالية ، وهو الفرع المعروف اليوم باسم « نهر الدجيـل » ، ويسير الآخر في الاتجـاه الجنوبي الغربي متبعاً أثر النهر القديم المسمى اليوم « عرقوب الفرحاتية » ، وهو الفرع الذي كان يمتد وسط الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات فيمـتد جنوباً حتى يصل الى جوار نهر الكصاوي الذي يتفرع من نهر الصقلاوية الحالي . وكان الفرع الاول يمتـد جنوباً على موازاة ضفة دجلة الغربية حتى يصل الى قرب مدينة بغداد الغربية ، في حين أن الفرع الثاني كان يسير غربي الفرع الاول

وينتهي عند نهر الكصاوي مقابل ذنائب الفرع الاول . ويطلق الاهلون اليوم على القسم الأعلى من الفرع الثاني اسم « عرقوب الفرحاتية » وعلى القسم الباقي اسم « الاسحاقي »، كما أن البعض يسمي هذا الفرع « چالي صرير » ، أما تسميته « الاسحاقي » فترجع الى عهد المعتصم ، لأن المعتصم لما أنشأ نهر الاسحاقي جعله ينتهي في هذا الفرع فيصب مياهه فيه(١) .

والأرجح أن نهر دجيل أنشىء بعد إقامة « سد العلث » على نهر دجلة وإنشاء نهر القورج امامه على عهد كسرى انوشروان ففتح صدره من الضفة اليمنى لنهر دجلة مقابل صدر القورج، وبذلك صار يستفيد من وجود سد العلث الذي كان يرفع مناسيب مياه دجلة هناك أسوة بصدر القورج الواقع في الجهة الشرقية من دجلة والذي كان يستفيد من السد أيضاً . وبعد أن تم إنشاء نهر دجيل فتحت فروع من جهتيه لأرواء الاراضي الواقعة على الضفة الغربية من دجلة ما بين « إمام الخضر »وبغداد ، وهي الاراضي التي كانت تروى قبل ذلك من الانهر التي كانت تتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة جنوبي صدر دجيل(٢) .

وكان « نهر دجيل » من أهم الأنهر الرئيسية في صدر الاسلام ، وقد ازدهرت على ضفافه مدن عديدة وقرى مهمة كـ « دجيل » و « مسكن » و « حربى » وغيرها ، إلا أن بعد تحول مجرى دجلة الى الجهة الشرقية ، ذلك التحول الذي أدى الى انخفاض مناسيب المياه في دجلة ، قام المستنصر بتحويل صدره شمالاً ، وهو الصدر القديم الذي يقع قرب الصدر الحالي بجوار « الاصطبلات » فوسع مجراه وفتح من ضفته اليسرى عدة فروع لأرواء الاراضي والقرى التي تركها نهر دجلة بدون ماء مثل « بلد » و « الحظيرة » و « العلث » و « عكبرا » وغيرها من المدن التي كانت على الضفة الشرقية من

---

(١) راجع ما تقدم في صفحة ٩٧ .

(٢) راجع ما تقدم في ص ١٩٤ — ١٩٦

مجرى دجلة وأصبحت في الضفة الغربية منه بعد تحول نهر دجلة الى الشرق[١]

وقد وقع ابن سرابيون، الذي كتب مقالته في أواخر القرن الثالث الهجري (٢٩٠هـ — ٩٠٣م) ، في وهم واضح بقوله إن نهر دجيل كان يستمد مياهه من نهر الفرات فيسقي ضياع (مسكن) و (قطربل) ثم يصب في دجلة بين عكبرا وبغداد ، فقد قال ما نصه :ـ « ويحمل من الفرات أيضاً نهر يقال له دجيل أوله فوق قرية الرب بفرسخ أو أكثر ثم يمر في العراض ويتفرع منه أنهار كثيرة تسقي ضياع مسكن وقطربل وما يليها من الرساتيق ويصب في دجلة بين عكبرا وبغداد . » أما الدلائل المتوفرة لدينا كلها تثبت أن نهر دجيل لم يكن قد استقى المياه من الفرات في أي دور من أدواره ، والأدلة هذه هي : ـ

١ — إن وضع مستويات الأراضي لايساعد على فتح نهر من الفرات من الموضع الذي ذكره ابن سرابيون وتوجيهه نحو قرى مسكن، والأرجح أن النهر الذي ظن ابن سرابيون أنه « نهر دجيل » هو « نهر عيسى » الذي كان يتفرع من نهر الفرات ويروي المنطقة الواقعة غربي مدينة بغداد، ولما كان « نهر دجيل » الذي يتفرع من نهر دجلة ينتهي هو وفروعه في غربي مدينة بغداد أيضاً فلم يستطع التمييز بين فروع « نهر دجيل » وفروع نهر عيسى ، فاعتبر هذه الفروع كلها من نهر الفرات .

٢ — إن المدونات التاريخية كلها تؤيد أن نهر دجيل كان منذ صدر الاسلام ، حتى آخر عهده في زمن المستنصر ، يتفرع من نهر دجلة . وهذا الاصطخري الذي دوّن تاريخه بعد ابن سرابيون بقليل (٣٤٠هـ ـ ٩٥١م) يؤيد ما ذكره المؤرخون من قبله من أن نهر دجيل يتفرع من نهر دجلة ، فقد جاء في كتابه « مسالك الممالك » ص ٧٧ — ٧٨ ما نصه : « وأسفل من تكريت فوهة نهر دجيل الذي يأخذ من دجلة فيتمم عليه قطعة كبيرة من سواد بغداد حتى يقاربها » .

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بدجيل المستنصر في الفصل الحادي عشر

٣ — إن ابن سرابيون المؤرخ الوحيد الذي يذكر أن نهر دجيل يأخذ من الفرات ولم يؤيده بذلك أحد من المؤرخين المعاصرين له . والغريب أن بعض الاوربيين سلموا بقول ابن سرابيون دون أن يتثبتوا من صحته أو عدمها

١١ ـ ملاحظات اجمالية

يتضح مما تقدم أن مشروع النهروان قد شهد في هذا الدور مقاماً لا بأس به من التوسع والازدهار ، فالقاطول الأعلى الذي يتفرع من قرب الدور كان يروي الاراضي العليا الواقعة بينه وبين مجرى دجلة القديم ، كما أن نهر القورج الذي يتفرع عند العلث كان يروي الاراضي الوسطى والسفلى الواقعة على النهروان التي تمتد بين العظيم والكوت ، وهذا ما يدل على أن هذين المجريين كانا يسحبان أكثر المياه الصيفية التي في نهر دجلة فيرويان تلك الاراضي الواسعة . أما في موسم الفيضان فكانت المجاري الثلاثة أي « القاطول الاعلى » و « القاطول الاسفل » (مجرى القائم) و « القورج » تسحب مياهها من نهر دجلة فتخفف عن وطأة فيضان النهر الى حد كبير، إلا أنها كانت من الجهة الاخرى تهدد المزارع السفلى الواطئة بالغرق . هذا ما يتعلق بالضفة الشرقية من نهر دجلة، أما ما يتعلق بالضفة الغربية فكان نهر دجيل يسحب المياه من أمام صدر القورج فيروي هو وفروعه أراضي الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات التي تمتد بين « العلث » و « بغداد » . وبفضل السد الذي كان على مجرى دجلة في العلث كان يرتفع منسوب المياه أمام صدري القورج ودجيل فيضمن دخول المياه الصيفية إليها بمناسيب عالية .

وقد بقيت هذه الحال على هذا المنوال في صدر الاسلام فقام العرب بصيانة المشاريع التي أنشئت من قبل وأضافوا إليها تحسينات عدة فأنشأوا القرى والمزارع العربية وشقوا فروعاً جديدة حتى بلغ العمران الزراعي ذروته في العهد العباسي الزاهر .

الفصل الرابع

النهروانات في العهد الاسلامي

[قاطول الرشيد]

١ - تمهيد

ننتقل الآن الى الدور الاسلامي العربي ، وهو الدور الذي يهمنا بصورة خاصة ، لما له من صلة بمدينة سامراء العباسية ، وبمشاريعها العمرانية .

يمتاز هذا الدور بتوفر بعض المعلومات التاريخية التي دونها المؤرخون وجغرافيوا العرب عنه، ويمكن الاستعانة بهذه المعلومات لاستكمال تحققاتنا عن الوضع الذي كان عليه « النهروان » في هذا الدور . لقد وجد العرب بعد استيلائهم على العراق تنظيمات الري التي كان أسسها الساسانيون من قبلهم قد أصابها بعض الشلل والانحطاط بنتيجة العوامل الطبيعية كالفيضان العظيم الذي حدث في سنة ٦٢٩ الميلاديه ، ثم العوامل السياسية وهي تضعضع دولاب الحكم الساساني وتغلغل الفوضى والفساد في قلب مملكة ساسان في عهدها الاخير ، وأخيراً العوامل العسكرية ، وهي ظروف الحرب بين الرومان والفرس أولاً ثم ظروف الحرب بين العرب والفرس قبيل الفتح الاسلامي ، الظروف التي عرقلت استمرار المجهود الزراعي في البلاد بنتيجة إهمال أعمال السدود والتطهيرات وغيرها من الاعمال الضرورية لصيانة مشاريع الري من الاضمحلال والتدهور . ولكن ما كاد يستتب الأمن ويستقر الحكم للعرب حتى أخذوا يهتمون بأعمال الري فحافظوا على الاعمال التي كان أنشأها الفرس من قبلهم ، ثم زادوا فيها فشقوا جداول جديدة وأقاموا على ضفافها المدن والقرى وبذلوا جهوداً جبارة في سبيل توسيع المشاريع القديمة وإحيائها .

٣ - مشروع الرشيد - «نهر أبي الجند»

ومن أهم المشاريع العمرانية التي أعارها العرب عنايتهم «مشروع النهروان» فهناك ما يؤيد أنهم بذلوا قصارى جهدهم لصيانة السدود الرئيسية التي كان أقامها أسلافهم على « مجرى العظيم » وعلى « نهر ديالى » وعلى « دجلة[1] » ، كما أن هناك ما يدل على أن المشكلة التي نشأت من جراء فتح « نهر القورج » ، وهو النهر الذي أنشأه كسرى ليحل محل « القاطول الاسفل » (مجرى القائم) والذي صار يهدد الاراضي الواطئة التي على النهروان الاسفل بالغرق في موسم الفيضان قد عولجت نهائياً على عهد الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ = ٧٨٦-٨٠٦ م) ، حيث كانت مدينة بغداد الشرقية من ضمن حدود تلك الاراضي المهددة بالغرق من نهر القورج . ويظهر أن الخبراء قد اشاروا على الرشيد أن حل مشكلة القورج لا يتم إلا بترك « نهر القورج » نفسه والرجوع الى مجرى القائم (القاطول الاسفل) الذي يقع صدره في مكان مرتفع وأرض حجرية تجعل وقبتي الصدر محصنتين بالصخور الطبيعية مما يسهل ضبط مياه الفيضان في فوهة النهر ، على عكس ما هي الحال في صدر « نهر القورج » الذي يقع في منطقة ترابية واطئة تجعل عملية ضبط مياه الفيضان فيه من أصعب الامور . وقد أخذ الرشيد بهذا الرأي فترك مجرى القورج نهائياً وسدّ صدره بعد أن أعاد حفر القاطول الاسفل (مجرى القائم) الذي سمّاه في هذه المرة « نهر ابي الجند » لكثرة ما كان يسقي من الارضين لأرزاق جنده ، وقد أعاد في الوقت نفسه فتح المجرى الاسفل الذي يأخذ من عند الصنم لاستعماله في موسم الفيضان ، كما كانت عليه الحال من قبل ، وكان نتيجة ذلك أن عاد مجرى القائم الذي سمي الآن بأسم ابي الجند الى عمرانه القديم فازدهرت فيه القرى والضياع من جديد بعد أن هجر الاهلون معظمها على أثر حفر مجرى القورج في زمن كسرى واتخاذه مجرى رئيسياً

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن هذه السدود في الفصل الثاني، ص ١٥٩ و١٦٢ و١٦٧ .

للنهروان بدلاً من مجرى القائم . ومن جملة المدن التي ازدهرت على « مجرى ابي الجند » الجديد في هذا العهد المدينة المعروفة بأسم « طفّر » ، ومما ذكره ابن سرابيون عن « نهر ابي الجند » وعن مدينة « طفر » قوله : « ابو الجند يمر بين ضياع وقرى ويتفرع منه انهار تسقي الضياع التي على شاطىء دجلة الشرقي ويصب اكثرها الى دجلة ثم يمر الى طفّر[1] وعليه هناك جسر ثم يمر في القاطول الكسروي فوق صولى بأربعة فراسخ » .

٣ـ مجرى القورج وغرق مدينة بغداد الشرقية

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن « مجرى القورج » بقي مصدر خطر على بغداد من الغرق على الرغم من سد صدره على عهد الرشيد وإعادة إحياء مجرى القائم الأصلي مكانه ، فقد نقل لنا المؤرخون عدة حوادث تتعلق بغرق بغداد الشرقية بسبب انبثاق السد الذي في صدر القورج . قال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٦هـ . (١٠٧٣م .) : « في هذه السنة غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي في بغداد وسببه أن دجلة زادت زيادة عظيمة وانفتح القورج عند المسناة المعزّية[2] وجاء في الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية مع ريح

(١) لقد جاء ذكر مدينة طفر في معجم ياقوت وفي المراصد وقد كانت مهجورة في زمنهما، فذكر ياقوت وابن عبدالحق أن طفر « قاع موحش بين يعقوبا ودقوقاء (مدينة دقوقاء هي طاووق الحالية الواقعة على طاووق جاي) من اعمال راذان ليس به ماء ولا مرعى ولا أثر طارق . » أما موقع مدينة طفر هذه وجسرها على مجرى أبي الجند فمن المحتمل أن الأطلال المعروفة اليوم باسم « تلول الخريبة » الواقعة داخل الزاوية التي يشكلها ملتقى مجرى القائم بمجرى الصنم هي أطلال مدينة طفر ، وهذه تحاذي ضفة مجرى الصنم اليسرى من جهة وضفة مجرى القائم اليمنى من الجهة الأخرى ، وتقع حوالي الخان القديم المعروف اليوم بأسم « خان صماوية» . وهذا هو الخان الذي سماه فيليكس جونس في سنة ١٨٤٠ « خان الازرقجي » . أما نهر الصنم ومجرى القائم فقد اندرست معالمهما في هذا القسم .

(٢) سميت هذه المسناة بالمعزية نسبة الى منشئها معز الدولة البويهي (٣٢٠ ـ ٣٥٦هـ .)

شديدة وجاء الماء الى المنازل من فوق ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقي وهلك خلق كثير تحت الهدم وشدت الزواريق تحت التـاج خوف الغرق وقام الخليفة يتضرع ويصلي وعليه البردة وبيده القضيب . » وهنـاك حادثة ثانية ذكرها ابن الجوزي في كتاب « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » فقال ما نصه : « وفي ثامن عشر ربيع الاول من سنة ٥٥٤هـ . (١١٥٩م .) كثر المد بدجلة وخرق القورج وأقبل الى البلد فامتلأت الصحاري وخندق السور وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر ربيع فوقع بعض السور عليهـا فسد بهـا ثم فتح الماء فتحة اخرى فأهملوها ظناً أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح ظفر والاجمة والمختارة والمقتدية ودرب القيار وخرابة ابن جردة والريان وقراح القاضي وبعض القطيعة وبعض باب الأزج وبعض المامونية وقراح أبي الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودرب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت . قال المصنف وخرجت من داري بدرب القيار يوم الاحد وقت الضحى فدخل اليها الماء وقت الظهر فلمـا كانت العصر وقعت الدور كلهـا وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء يوم الاثنين وسدت الثلمة وتهدم السور وبقي الماء الذي في داخل البلد يدب في المحال الى أن وصل بعض دروب الشاكرية ودرب المطبخ وجئت بعد يومين الى درب القيار فما رأيت حائطاً قائماً ولم يعرف أحد موضع داره إلا بالتخمين وانما الكل تلال فاستدللنا على دربنا بمنـارة المسجد فانها لم تقع وغرقت مقبرة الامام احمد وغيرها من الامـاكن والمقابر

وقد أقيمت حوالي القصور البويهية في الجهة الشمالية الشرقية للشماسية في محاذاة سهل الشماسيـة الواطىء لمنع تأثير فيضان نهر القورج . وكانت تعرف هذه المسناة باسم « مسناة سهل الشماسية » ثم سميت « المعزية » ، والظاهر أن آثار المسناة بقيت الى عهـد ياقوت حيث ذكر في مادة « الشماسية » أن أثرها باق على حين أن باقي المحلة (الشماسية) كله صحراء موحشة يتخطف فيها اللصوص ثياب الناس

وانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس المـاء واسكر المشهد والحربية وكانت آية عجيبة ثم إن الماء عاد فزاد عشرين يوماً فنقض سد القورج فعمل فيه أياماً . » وقريب من هذا ما ذكره ابن العبري عن الفيضان المذكور فقال: « وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرج القورج فوق بغداد فامتلأت الصحاري وخندق البـلد ووقع بعض السور فغرق بعض القطيعة وباب الازج والمامونية ودب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عـدة دنانير ولم يكن يقدر عليهـا . ثم نقص الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وإنما هي تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين » .

ويعتقد لي‌سترانج أن « نهر القورج » كان يسير في اتجاه النهر المعروف سابقاً بـ « نهر الفضل » وهو النهر الوارد وصفه في ابن سرابيون(١) ، والأصح أن يقال أن « نهر الفضل » كان قبل فتح « نهر القورج » فرعاً من النهروان ينتهي الى مدينة بغداد الشرقية ، ثم صار فرعاً من « نهر القورج» بعد أن فتح نهرالقورج من دجلة في جنوبي صدر نهرالقائم ، وعاد فرجع فرعاً من النهروان كما كان بالاصل على أثر سد نهر القورج وإعادة فتح نهر القائم القديم على عهـد الرشيد .

٤ ـ مجرى القورج وتحول مجرى دجلة

يظهر من مجرى التطورات التي اعتورت حوض دجلة ان مجرى القورج كان السبب المباشر في تحوّل نهر دجلة الرئيسي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي من مجراه الغربي العالي الى العقيق الشرقي الواطيء ، لان مجرى القورج

(١) حول « نهرالفضل »راجع البحث الذي يلي عن « انهر مدينة بغداد الشرقية» في الفصل التاسع (مادة ٩) .

علاوة على وقوعه في أراضي منخفضة فانه كان يتفرع من مجرى دجلة الغربي القديم بمناسيب عالية ، ثم ان السد الذي انشيء في « العلث » لتحويل المياه الصيفية الى « نهر القورج » سبب زيادة ارتفاع مناسيب مياه الفيضان أمام السد الامر الذي ادى بالنتيجة الى تحول مياه دجلة كلها الى جهة مجرى القورج واحتلالها ذلك المجرى .

ويلاحظ انه على الرغم من الهبوط الذي حصل في « مجرى نهر دجلة » بعد تحوله الى جهة الشرق فقد بقي « مجرى القورج » يهدد مدينة بغداد الشرقية بالغرق، ذلك لان مجرى دجلة لم يحتل من « مجرى القورج » غير القسم الواقع في الصدر، إذ نجده بعد ان يسير في « مجرى القورج » مسافة حوالي خمسين كيلومتراً ينحرف عن « نهر القورج » في المكان المسمى « هور الدغارة » ـ وهو الهور الذي صارت تتجمع فيه مياه دجلة ـ فيتركه في شرقيه وينحدر الى الجنوب نحو « السندية » و « السعدية » و « المنصورية » . وهكذا صارت المياه بعد تحول مجرى دجلة الى الشرق تتسرب الى القورج من « هور الدغارة » الواقع في شمالي الخالص ، وهو المكان الذي يترك فيه مجرى دجلة نهر القورج (راجع اللوحة رقم ٣) . ومن الحوادث المتعلقة بغرق مدينـــة بغداد الشرقية بسبب تسرب المياه الى مجرى القورج من قرب « هور الدغارة » المذكور حوادث سني ٦١٤ و ٦٤٦ و ٦٥٤ هـ

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٤ (١٢١٧ م) : « وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها واشرفت بغداد على الغرق فركب الوزير وكافة الامراء والاعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد وقلق الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك واعدوا السفن لينجوا فيها وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل وكان مما قال لهم لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت ولو دفع بحرب لفعلت ولكن أمر الله لا يرد ونبع

الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقي وغرق كثير منه وغرق مشهد أبي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي وقرية الملكية والكشك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان » .

أما حادثة غرق سنة ٦٤٦ (١٢٤٨ م) فقد وصفها ابن الفوطي في كتابه « الحوادث الجامعة » بقوله : « وفي شوال من سنة ٦٤٦ هـ تواترت الغيوث فأدت الى غرق المدن والقرى وزادت الزابات بشكل مخيف إلا ان مع ذلك لم تبلغ الزيادة في دجلة تلك التي كانت سنة ٦١٤ » . وبعد ان وصف الاضرار والتخريبات التي احدثتها هذه الزيادة في بغداد الغربية انتقل الى البحث عن غرق جانب المدينة الشرقي فقال : « وغرق في الجانب الشرقي ما كان ظاهر السور من مساكن كانت استجدت منذ أيام الخليفة المستنصر بالله ، وبولغ في عمارتها ، وكان بها اسواق مادة ، وحمامات وبساتين مثمرة ، حتى كادت تشبه حاضر حلب أو سوق التركمان بالموصل ، كان ذلك مما يلي سوق العجم ، واجتمع بها خلق كثير من الزعماء والاجناد ، فهدم الماء معظم ذلك وتلف من الامتعة والغلات شيء كثير ، ونبع الماء من أساس حائط المدرسة المستنصرية ومن دار سنقرجا زعيم خوزستان المجاورة المستنصرية ، ومن مسجد الحظائر المعروف بأم الناصر المجاور لهذه الدار ، وامتلأت الطريق وامتنع الناس من الجواز الى هناك من باب سوق المدرسة الى باب مشرعة الابريين ، وكان من حيث تزايد الماء في دجلة تقدم بأحكام القورج ، وخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الى هناك ونزل عن فرسه وحمل باقة حطب فوافقه كافة الناس ، واشتد العمل ، فاتفق ان دجلة نقصت ثم زادت في ذي الحجة ، زيادة مفرطة أعظم من الاولى ، فانفتحت في القورج فتحة ، وصاحب الديوان فخر الدين بن الدامغاني هناك فنجا بنفسه مسرعاً ودخل البلد ، وانفتحت اخرى الى جانب دار المسناة واحاط الماء ببغداد ، وكان الهواء شديداً فهدم من السور الآخر عدة ابراج وخرج من مرامي النشاب ، فاحكمت هذه المواضع ، وهدم السور الطيني وأخذ ترابه ، لأجل ذلك ،

فأخذ الماء في النقيصة بعد ذلك بأيام بعد ان خرج من باب الغربة ، فرمى ما بين يديه من الحيطان والخانات ، وغشى رباط شيخ الشيوخ وما يجاوره ، ودخل درب السلسلة فلم يبق به داراً إلا هدمها ، ولم يتمكن أحد من أهل هذه المواضع من نقل شيء مما لهم بها ، بل نجوا بأنفسهم ووقعت الدور على ما فيها ، ووصل الى البدرية ودار الخليفة والريحانيين ودار الوزير وباب العامة ، وتعذّر سلوك هذه الاماكن وانهدمت الدور الشطانيات بأسرها وسوق المدرسة ودرب المسعود ، وأقام الماء في المدرسة النظامية ستة أذرع وغرقت محلة الرصافة ، ووقع اكثر دورها وسورها وغشي قبور الخلفاء رضوان الله عليهم ، وهدم مشهد عبيد الله ورباط الاصحاب المجاور له[1] . »

وقد وصف ابن الفوطي حادثة غرق سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ايضاً فقال : في هذه السنة ، زادت دجلة زيادة عظيمة ، وانفتح في القورج فتحة كبيرة عجز من يتولاه عن استدراكها ، فركب الوزير وكافة الولاة معه ، وأخذ الوزير في يده باقة شوك ، ففعل سائر العالم مثل ذلك ، ولم يقع التمكن من سدها فتركت ، وانهزم الناس كلهم والماء في أثرهم فأحاط ببغداد ، وغرق الجانبين منها ، وهدم دوراً كثيرة بالحريم والمشهد وتلك المحال ، وامتلأت اسواق الجانب الشرقي ، وخرج الماء من حيطان الدور والمنافذ والآبار والبلاليع وامتلأت دار الخليفة كلها ما عدا (الدار الشاطئية) فانتقل من بها الى الغرف والسطوح ، وتعذر الوصول الى دار الخليفة إلا في سفينة أو سباحة ، ونقل من كان من انساب الخليفة محبوساً في دار الشجرة ودار الصخر الى ديوان الزمام ، وانتقل الوزير من داره الى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار ، ثم دخل الماء الى ديوان الزمام وليس له درج ، فصار من بها واقفاً وبلغ الماء الى صدره ، وكل من له ولد صغير حمله على كتفه ، وهم يستغيثون ويضجون ، فخولوا الى الحلبة وقد ذهب كل

---

(١) « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة » لابن الفوطي ، ص ٢٢٩ - ٢٣٤

ما كان عندهم، وضربت لهم الخيم بها وكانت السفن والاكلاك تسير في الريحانيين حتى تصل الى باب العامة ، وتحول كل من كان ساكناً في محال دار الخليفة ، وتلف من الناس شيء كثير ، وكان علو الماء في المدرسة النظامية زيادة على اربعة اذرع ... وخلت محال دار الخليفة ومعظم محال بغداد من ساكن ، ووقعت دور كثيرة في سائر المحال ، وخلت الديار وتعفت الديار وصار في النظر اليها اعتبار ، ووقع رباط الزوزني والحائط الشطاني من جامع فخر الدولة بن المطلب ، وتداعى اكثره ، وصلى الناس عدة جمع في المدرسة المستنصرية ، وكان الناس يحضرون بالسفن فأمتلأت المدرسة وغلق بابها واتصلت الصفوف في السفن من باب المستنصرية الى سوق المدرسة والى آخره ، وصلى أهل باب الازج في مصلى العيد بعقد الحلبة ، وسقطت نصف مسناة مسجد قمرية ، فعمل له سكر من خشب وطرفاء ، فما زاد على ذلك الى ان عمره الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني سنة سبع وستين وستمائة ، وزاد الفرات أيضاً فغرقت عانة والحديثة ، وهيت ، والحلة وغيرها، وانفتح قبين فغرق دجيل ونهر عيسى ونهر الملك ، واتلف زروعاً كثيرة[1] » .

٥ ـ مشروع اعادة حفر نهر القائم (نهر ابي الجند)

نعود الآن الى قاطول الرشيد (نهر ابي الجند) ، وهو مجرى القائم الأصلي الذي قرر الرشيد إعادة استعماله كمجرى صيفي للنهروان بدلاً من القورج ، فنقول : إن المجرى المذكور كان مليئاً بالأتربة والاطيان عند ما باشر الرشيد بإعادة حفره، بالنظر لتراكم كميات هائلة من ترسبات الطمي في قعره ، ولا سيما وقد أهمل خلال الفترة الطويلة التي حل فيها مجرى القورج محله ، لأن المياه التي كانت تدخل اليه خلال هذه الفترة كانت مقتصرة على ميـاه الفيضان العالية المشحونة بالطمي والدهلة الأمر الذي أدى الى إندراسه من جراء تراكم الترسبات الكثيرة

(١) الحوادث الجامعة لأبن الفوطي ص ٣١٧ - ٣١٩

فيه . ولم تكن عملية تطهير النهر من هذه الاطيان من الامور الهيّنة إذا لاحظنا أن ارتفاع الضفاف هناك يربو على عشرة امتار في معظم اقسامه ، إلا أن الرشيد تغلّب على هذه الصعوبات بعزمه ومواظبته على انجاز هذا المشروع الذي يحقق له صيانة عاصمته (بغداد) من الغرق . ويلاحظ أن الاتربة التي رفعت من قعر « نهر القائم » وضعت كلها على حافة النهر الغربية ، ويكفي أن نشاهد التلول العالية التي تكوّنت من هذه الأتربة وهي تمتد على طول الضفة اليمنى لمجرى القائم لتصور مقدار كميات الأتربة الهائلة التي رفعت من قعر النهر في هذا الدور .

٦ ـ قصرا الرشيد والمعتصم على القاطول

وصف لنا المؤرخون العرب مشروع الرشيد ، وهو يشتمل على إعادة حفر مجرى القائم وانشاء قصر عليه ، ثم ذكروا أيضاً أن المعتصم لما اعتزم نقل عاصمته الى خارج بغداد اتجهت نيته في اول الأمر الى انشاء عاصمته الجديدة في منطقة « قاطول الرشيد » ، فبنى بناء فيه ثم عاد فعدل عنه منتقلاً الى الموضع الذي تقع فيه سامراء فأسس عاصمته فيه . فقد ذكر ياقوت في مادة « القاطول » من معجمه أن القاطول « نهر كأنه مقطوع من دجلة وهو نهر كان في موضع سامرا قبل أن تعمّر وكان الرشيد اول من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصراً سماه ابا الجند لكثرة ما كان يسقي من الارضين وجعله لأرزاق جنده ، وقيل بسامراء (ان المعتصم)[1] بنى عليه بنـاء دفعه الى اشناس التركي مولاه ثم انتقل الى سامراء ونقل اليها الناس كما ذكرنا في سامراء ... وفوق هذا القاطول القاطول الكسروي حفره كسرى انوشروان العادل يأخذ من جانب دجلة في الجانب الشرقي أيضاً وعليه شاذروان فوقه[2] يسقي رستاقاً بين النهرين

(١) جاء النص خالياً من كلة (معتصم) ولعل ذلك من خطأ الناسخ .

(٢) ان الشاذروان الذي يقصده هو الناظم القاطعي الواقع عند الكيلومتر (٣٠) من مجرى القاطول الكسروي والذي تميل الى الاعتقاد أنه انشيء على عهد المتوكل

(ويقصد بذلك القاطولين القاطول الأعلى الكسروي وقاطول الرشيد الأسفل ابا الجند) من طسوج بزرجسابور[١] وحفر بعده الرشيد هـذا القاطول الذي قدمنـا ذكره تحته مما يلي سامراء[٢] وهو ايضاً يصب في النهروان تحت الشاذروان ... »

ويستدل من وصف ياقوت هذا أن الرشيد اول من حفر القاطول (نهر ابي الجند) ، غير أن ابن عبدالحق صحّح كلام ياقوت في كتابه « المراصد » فقال : « إن القاطول نهر كان في موضع سامراء قبل ان يعمّر حفره الرشيد الخ ... » وأثبت دليل على صحة ما صححه ابن عبدالحق في هذا الصدد ما نشاهده اليوم من آثار الحفر الجديد الذي قام به الرشيد ، فتدلنا هذه الآثار على أن الأتربة الناتجة من هذا الحفر وضعت كلها على الجانب الايمن من النهر وعلى بعد بضعة امتار من الحافة الأصلية وهي تشكل الآن سلسلة تلال عالية تمتد بموازاة الضفة الاصلية على طول النهر .

وقد كرّر ياقوت في مادة سامراء ما ذكره في مادة القاطول عن حفر الرشيد لهذا النهر قال : « وكان الرشيد حفر نهراً عند سامراء سماه القاطول وأتى الجند

=لايصال المياه الى الاراضي الكائنة بين القاطولين (القاطول الأعلى والقاطول الأسفل) ، وهي الأراضي التي كان يقع فيها حير المتوكل للحيوانات وسيأتي البحث عنه فيما بعد (راجع البحث التـالي الخاص بحير المتوكل للوحوش وبركة البحتري في الفصلين السادس والسابع كذلك ما تقدم في ص ١٤١ و ١٥٤) .

(١) راجع البحث الذي تقدم عن هذه المنطقة في صفحة ١٨٢ والبحث الذي يلي في الفصل التاسع (مادة ٢)

(٢) جاءت في النص « بغداد » وهذا ما جعل ابن عبدالحق يبدي استغرابه لقول ياقوت (أي قوله « مما يلي بغداد ») بعد أن ذكر في مقدمة كلامه أن النهر الذي حفره الرشيد يقع في موضع سامراء ، ويضيف ابن عبدالحق الى ذلك شارحاً بأن النهر الذي في جوار بغـداد يأخذ من النهروان تحت نهر الخالص ويصل ماؤه الى باب بغداد وهو نهر كلواذي (راجع مادة القاطول في المراصد

وبنى عنده قصراً ثم بنى المعتصم أيضاً هناك قصراً ووهبه لمولاه اشناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبنى عنده سر من رأى » . وتطرق البلاذري الى قصر الرشيد على القاطول والبناء الذي أقامه المعتصم هناك قبل أن يستقر رأيه على موقع سامراء قال : ـ « ونزل مدينة السلام أمير المؤمنين المعتصم بالله ثم شخص عنها الى القاطول فنزل قصر الرشيد كان ابتناه حين حفر قاطوله الذي دعاه ابا الجند لقيام ما يسقي من الارضين بأرزاق جنده ، ثم بنى بالقاطول بناء نزله ودفع ذلك القصر الى اشناس التركي مولاه وهمّ بتمصير ما هناك وابتدأ بناء مدينة تركها ثم رأى تمصير سر من رأى فمصرها ونقل الناس اليها وأقام بها . » ويحسن بنا أن ندون هنا ما كتبه المؤرخون الآخرون في هذا الموضوع ، فقد جاء في البلدان لليعقوبي « إن المعتصم عزم ان يترك بغداد فبنى بالشماسية خارج بغداد فضاقت عليه ارض ذلك الموضع وكره ايضاً قربها من بغداد[1] فمضى الى

---

(١) الشماسية محلة من محلات مدينة بغداد الشرقية تقع في أقصى الشمال من الجهة الشرقية من محلة الرصافة ، وكانت تفصلها عن محلة الرصافة الطريق الشمالية الكبيرة التي تنحرف عند رأس الجسر الكبير متجهة نحو الموصل . وكانت هذه الطريق تخرج من بغداد الشرقية من الباب التي كانت تدعى باب الشماسية والواقعة في الطرف الشمالي الغربي لسور المدينة الذي يحيط بمحلة الشماسية ، وكانت تعرف هذه الطريق في القسم الأسفل بطريق الجسر ويسمى القسم الأعلى قرب باب الشماسية درب نهر المهدي ، نسبة الى النهر الذي كان يجري بمحاذاته ، (حول نهر المهدي راجع البحث عن أنهر مدينة بغداد الشرقية في الفصل الثامن من الكتاب) . ويخترق الطريق التي بين القسم الأعلى والقسم الأسفل الموضع المسمى « الدور » ويصفه ياقوت بأنه لا يبعد كثيراً عن مشهد أبي حنيفة . وفي عهد هرون الرشيد بنى جعفر البرمكي قبيل أن يمنى بالعاقبة المفجعة قصراً في الدور ولكن لم تمكنه الظروف قضاء حياته فيه . وقد اتخذت الشماسية مركزاً للقصور البويهية على عهد البويهيين (راجع كتاب لي سترانج « بغداد في عهد الخلافة العباسية » .) وقد كتب ياقوت في صفة الشماسية قال : ـ « هي مجاورة لدار الروم التي في أعلا مدينة بغداد واليها ينسب باب الشماسية وفيها كانت دار معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه وفرغ منها في

البردان[1] في سنة ٢٢١ وأقام بالبردان اياماً واحضر المهندسين ثم لم يرض الموضع فصار الى موضع يقال له باحمشا[2] من الجانب الشرقي من دجلة فقدر هنـاك مدينـة على دجلة وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده فنفذ الى القرية المعروفة بالحظيرة[3] فأقام بها مدة ثم مد الى القاطول فقال هـذا اصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البنـــاء على دجلة وعلى القاطول فابتدأ البناء واقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البنـاء واختطت الاسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بني له وسكن بعض الناس ايضاً ثم قال ارض القاطول غير طائلة وإنما هي حصاً وافهـار والبناء بها صعب جداً وليس لأرضهـا سعة ثم ركب متصيداً فمر في مسيره حتى صار الى موضع سر من رأى . » وقد جاء في الكامل لابن الأثير ايضاً : « إن مسرور الكبير قال سألني المعتصم اين كان الرشيد يتنزه إذا ضجر ببغداد قلت بالقاطول وكان قد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم وكان قد خاف من الجند ما خاف المعتصم ، فلما وثب أهل الشام وعصوا خرج الى الرقة فأقام بها وبقيت مدينة القاطول لم تستتم . » ويظهر مما دونه ياقوت في مادة سامراء ان الرشيد لما اعاد

= سنة ٣٠٥ وبلغت النفقة عليهـا ثلاثة عشر الف الف درهم ومسناته باق آثرها وباقي المحلة كله صحراء موحشة يتخطف فيها اللصوص ثياب الناس وهي أعلا من الرصافة محلة أبي حنيفة . »

(١) حول قرية « البردان » راجع ما تقدم في صفحة ١٨٨ .

(٢) حول قرية « باحمشا » راجع ما تقدم في صفحة ١٨٦ .

(٣) جاءت في النص « المطيرة » ولا شك أن ذلك من خطـــأ الناسخ لأننا نعـــلم أن المطيرة تقع بين القادسية وسامراء وقد أجمع كل المؤرخين العرب على ذلك ، ثم أن القرية التي تلي « باحمشا » من الشمال هي « الحظيرة » وهـذه تقع على الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم أيضاً ، وان موضعهـا الأصلي لا يزال يعرف باسم « الحظيرة » ويقع جنوبي بساتين بلد الحســالية عند التل المعروف باسم « تل ابي كزيز » (راجع البحث الذي تقدم عن المطيرة في ص ٥٩ — ٦١ والبحث عن الحظيرة في صفحة ١٨٥

حفر « نهر القائم » (نهر ابي الجند) كان ينوي بناء سامراء إلا انه اكتفى ببناء قصر هناك فقط ، فقال نقلاً عن ابراهيم الجنيدي « ان الرشيد اراد بناء سامراء فبنى بحذائها قصراً وهو بازاء اثر عظيم كان للاكاسرة ثم بناها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١ هـ . »

ولندون أخيراً ما كتبه المسعودي في كتابه « مروج الذهب » حول هذا الموضوع وهذا نص كلامه : « فعزم المعتصم على النقلة من الاتراك وان ينزل في فضاء من الارض فنزل (البردان) (١) على اربعة فراسخ من بغداد فلم يستطب هواءها ولا اتسع له هواؤها فلم يزل ينتقل ويتقرى المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى بالقاطول ، فاستطاب الموضع ، وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذاً من دجلة فبنى هناك قصراً وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان إلا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين في ذلك معيراً للمعتصم بانتقاله عنهم :

« أيا ساكن القاطول بين الجرامقة (٢)   تركت ببغداد الكباش البطارقة. »

وقد أضاف المسعودي الى ذلك قائلاً : « ونالت من المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة ارضه وتأذوا ليالي ففي ذلك يقول بعض من كان في الجيش :

« قالوا لنا إن بالقاطول مشتانا   فنحن نأمل صنع الله مولانا

« الناس يأتمرون الرأي بينهم   والله في كل يوم محدث شأنا

« ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامراء » .

---

(١) جاءت في النص (الراذان) ولا شك أن ذلك من خطأ الناسخ لأن الوصف ينطبق على (البردان) .

(٢) توجد حتى الآن جماعة من الاعراب في منطقة سامراء تسمى الجرامقة وهؤلاء يقطنون في الوقت الحاضر في قلعة سامراء على الجانب الغربي من مجرى دجلة الحالي وقد اندمجوا بمشيخة البو عباس ، ويقول ابن العبري في الجرامقة انهم قوم بالموصل أصلهم من الفرس .

نستخلص ممـا تقدم انه لما قام الرشيد بحفر القاطول ، الذي سماه « أبا الجند » ، انشأ قصراً عليه كما انه شرع في انشاء مدينة هناك لأسكان جنوده فيها إلا انه لم يتم انشاؤها، وكذلك نستخلص ان المعتصم قبل ان ينتقل الى سامراء نزل قصر الرشيد الذي على القاطول ، وفي الوقت نفسه بنى هناك قصراً ووهب ذلك القصر الى مولاه أشناس ، كما انه بنى عند القرية التي كان يسكنها خلق من الجرامقة والنبط مدينة على دجلة وعلى ضفتي القاطول (قاطول الرشيد أو مجرى القائم)واقطع القواد والكتّاب والناس هناك ثم اختط الاسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن والناس في بعض ما بنى ، غير انه وجد ان الارض متكونة من حصى وانهار فضلاً عن انها غير قابلة لتوسع المدينة فيها فعدل عنها واختار موضع سامراء محلها . فأين يجب ان يكون قصر الرشيد واين موضع المدينة التي شرع الرشيد فى انشائها لأسكان جنده فيها ولكن لم يتم بناؤها ؟ ... ثم اين قد يكون القصر الذي أقامه المعتصم هناك وهو القصر الذي وهبه الى اشناس ؟ واين المدينة التي شرع المعتصم في انشائها على جانبي القاطول وعلى ضفة نهر دجلة فاختط فيها الاسواق وقطائع القواد والكتّاب وغيرهم ولكنه عدل عنها حتى صار الى موضع سرّ من رأى ؟...هذه هي من جملة المنشئات في منطقة سامراء التي لم تعين اماكنها بعـد والتي لم يشبعها المحققون بحثاً بل لم يتطرق اليها الباحثون إلا عرضاً .

٧ ـ موقع قصر الرشيد ـ « الطلول المشرحات »

اما القصر الذي انشأه الرشيد على قاطوله والمدينة التي شرع في انشائها هناك ولم تتم فاننا نميل الى الاعتقاد بأنهما يقعان في المكان المعروف بأسم « المشرحات » ، وهذا يقع في شمال شرقي سور القادسية[1] على الضفة اليسرى

(١) حول سور القادسية المذكور راجع ما تقدم في ص ١٤٩ ـ ١٥١ والبحث التالي الخاص بسور القادسية في هذا الفصل .

لمجرى القائم (نهر ابي الجند) وعلى بعد ستة كيلومترات تقريباً من صدر المجرى المذكور. ويمكن الوصول الى موقع «المشرحات» هذا من سامراء بأتباع طريق الضلوعية الذي يسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي ثم بعد الوصول الى « بئر العجم » الواقعة على مسافة ثلاثة عشر كيلومتراً من سامراء الانحراف عن الطريق العام والنزول الى الجنوب حيث تقع «خرائب المشرحات» على بعد اربعة كيلومترات من « بئر العجم » . وترتفع « تلول المشرحات» هذه الى اكثر من اربعة امتار عن سطح الارض ويمكن مشاهدتها من « بئر العجم » والاتجاه نحوها بدون أية صعوبة .

اما دليلنا على ان القصر الذي انشأه الرشيد على القاطول والمدينة التي شرع في انشائها هناك يقعان في موضع « المشرحات » المتقدم ذكره هو انه لا يوجد موضع آخر في هذه المنطقة ينطبق عليه الوصف الذي دونه المؤرخون عن القصر والمدينة ، فقد عين المؤرخون موضع القصر والمدينة على القاطول أو نهر ابي الجند المسمى حالياً نهر القائم بالقرب من صدره ، ولا توجد اطلال على مجرى القائم في الموضع المشار اليه يصح ان تمثل بقايا قصر مهم كالقصر المذكور غير « اطلال المشرحات » . ويلاحظ ان المؤرخين لما وصفوا موضع قصر الرشيد لم يتطرقوا الى ذكر نهر دجلة على حين انهم ذكروا ان القصر الذي بناه المعتصم والمدينة التي انشأها على القاطول كانا يطلان على دجلة ، الامر الذي يدل على أن قصر الرشيد ومدينته كانا بعيدين عن دجلة ، وهذا ما ينطبق تماماً على موقع «المشرحات» المار الذكر . ويلاحظ أيضاً ان الرشيد لما أعاد حفر نهر أبي الجند (نهر القائم) أمر بوضع كل الاتربة المستخرجة من قعر النهر على الضفة اليمنى ، مما يدل على انه كان يرغب في أن يجعل مدينته وقصره يشرفان على النهر المذكور ، لان وضع الاتربة على الضفة التي انشأ فيها قصره ومدينته يكون تلولاً عالية تسد منظر النهر عن المدينة والقصر . وفضلاً عن ذلك فان موضع «المشرحات» هو المكان الوحيد في منطقة القاطول الذي تجتمع فيه الوسائل اللازمة لجعله

لائقاً لأن يكون منتزهاً للخليفة ، فهو يقع بين النهرين « القاطول الاعلى الكسروي » و « قاطول الرشيد الاسفل » وفي أرض سهلة ذات تربة صالحة لانشاء البساتين والزراعة ، كما انه يمكن ايصال المياه اليه من «القاطول الأعلى الكسروي » بالطريقة السيحية بكل سهولة . وهناك ما يدل على ان الرشيد لما انشأ قصره في هذا الموضع (اي موضع المشرحات) اعاد فتح النهر القديم ،الذي يتفرع من الضفة اليمنى لنهر القاطول الاعلى الكسروي وينتهي الى « حصن القادسية »[١] ، وهو النهر الذي كان قد هجر بعد ان انشأ كسرى انو شروان نهر القورج بدلاً من مجرى القائم (مجرى النهروان الاصلي) وذلك باستخدام القسم الاعلى من هذا النهر لايصال المياه الى قصر المشرحات وحدائقه[٢].

ومما يدل على ان قصر الرشيد المذكور كان عامراً في زمن المعتصم ، ان المعتصم نزل فيه عندما جاء الى هذه المنطقة وشرع في بناء مدينته فيها . والذي نراه ان قصر الرشيد هذا بقي على حاله في عهد المعتصم حتى جاء المتوكل فبنى قصراً جديداً مكانه وانشأ امام القصر الجديد البركة الجعفرية المشهورة التي وصفها البحتري، كما انه انشأ حير الحيوانات هناك أيضاً، ولايصال المياه بصورة دائمة الى القصر والحير اعاد تنظيم النهر الذي كان قد أوصله الرشيد الى قصره في هذا الموضع بانشاء ناظم قاطعي على مجرى القاطول الاعلى الكسروي وقد سمي النهر في هذا الدور « نهر تيزك » ، وسنأتي على ذكر هذه المنشئات فيما بعد[٣] .

٨ ـ موقع قصر المعتصم « منطقة القادسية »

اما القصر الذي بناه المعتصم والمدينة التي انشأها على دجلة وعلى القاطول

(١) راجع البحث الذي تقدم حول نهر القادسية في صفحة ١٥٢

(٢) راجع البحث الذي تقدم حول نهر القورج في صفحة ٢١٢

(٣) راجع البحث التالي الخاص بحير المتوكل والبركة الجعفرية في الفصلين السادس والسابع .

فيقعان في المنطقة المعروفة بالقادسية ، وهذه تشتمل على المنطقة التي تبدأ عند « قصر بركوارا » من الغرب ، فتمتد على ضفة نهر دجلة الى الجنوب الشرقي حتى صدر مجرى القائم ، ثم تسير ضمن الاراضي الواقعة على الضفة اليمنى لمجرى القائم (أي الاراضي الواقعة بين مجرى القائم ودجلة) حتى تنتهي الى نقطة تقع على بعد حوالي ثمانية كيلومترات من جنوبي صدر القائم ، وبذا يبلغ طول القادسية حوالي اثني عشر كيلومتراً ، اما عرضها فيتراوح من الكيلومتر الواحد الى الثلاثة كيلومترات .

٩ ـ منتزهات القادسية والقاطول

والظاهر ان منطقة القادسية هذه بما فيها القاطول الاسفل (مجرى القائم) كانت منذ عهد الفرس من أجمل المتنزهات في القطر العراقي ، فكانت في سابق العهد منتزها للمناذرة ومجلساً للانس يتردد اليه كبار رجال الدولة المجاورة ، وفي زمن العرب كانت مجمع انسهم وطربهم ، وقد وصف الشعراء والكتاب حدائق هذه المنطقة واديرتها بكثير من الاطراء ، وهـذا عُمْرُ نصر الذي يقول فيه الشاعر الحسين بن الضحّاك : ـ

يا عُمْرُ نصر لقد هيجت ساكنة ... هاجت بلابل صبٍّ بعد اقصار
لله هاتفـة هبّت مرجّعـة ... زبور داود طوراً بعـد أطوار
خمّار حانتها ان زرت حانته ... أذكى مجامرهـا بالعود والغـار
تلهيك ريقته عن طيب خمرته ... سقياً لذاك جنى من ريق خمار
أغرى القلوب به الحاظ ساجية ... مرهاء تطرف عن اجفان سحّار

وهناك « دير السوسي » وفيه يقول ابن المعتز :

يا ليـالي بالمطيرة والكـرخ ... ودير السوسي ، بالله عودي
كنت عندي انموذجات من الجنـة ... ولـكنها بغير خـلود

وقد أشار أبو الحسن عليّ بن محمد المشهور بـ « الشابشتي » في كتابه « الديارات » الى هذا الدير أيضاً فقال انه « لطيف ، على شاطىء دجلة ،

بعادسية سر من رأى . وبين القادسية وسر من رأى أربعة فراسخ ، والمطيرة بينهما . وهذه النواحي كلها متنزهات وكروم وبساتين . والناس يقصدون هذا الدير ويشربون في بساتينه . وهو من مواطن السرور ومواضع القصف واللعب » .

اما موضع هذا الدير فاننا نميل الى الاعتقاد بأنه يقع في التل المعروف بأسم « تل الصوان » ، وهو التل الواقع على شاطىء دجلة جنوبي « قصر بركوارا » بينه وبين « منارة القائم » . ويشمل تل الصوان هذا على خرائب واسعة تبلغ مساحتها حوالي ستة آلاف متر مربع وقد استخرج الاهلون معظم آجر البناء ان لم يكن كله. ومما عثرنا عليه بين خرائب هذا التل نخار يعود الى زمن ماقبل التاريخ يدل وجوده هناك على ان الدير (ان صح مكانه هذا) انشيء على انقاض بناء قديم يرجع الى عهود سحيقة في التاريخ(١) .

وقد كتب الشابشتي أيضاً في صفة القادسية قوله : « والقادسية من أحسن المواضيع وانزهها ، وهي من معادن الشراب ومناخات المتطربين ، جامعة لما يطلب أهل البطالة والخسارة وبالقادسية بنى المتوكل قصره المعروف ببركوارا ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز » .

وكانت منطقة القاطول والقادسية من أحب المتنزهات وساحات الصيد لدى خلفاء بني العباس فكانوا يقصدونها لقضاء أوقات طربهم وانسهم فيها كما كانوا يقصدونها للقنص والصيد حيث كانت اطيار البر والماء موفورة في المنطقة نفسها وقد جاء في الأغاني ما يشير الى ان المعتصم كان يقضي بعض أوقاته في منطقة القاطول، وهذا نص ما ذكره صاحب الكتاب في هذا الصدد قال : « أخبرني عمي قال حدثنا أبو عبد الله المرزبان قال حدثني ابراهيم بن أبي دلف العجلي قال كنا مع المعتصم بالقاطول وكان ابراهيم بن المهدي في حراقته بالجانب الغربي وأبي

---

(١) راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٥٣ ـ ٥٤

واسحاق الموصلي في حرقتيهما في الجانب الشرقي فدعاهما يوم جمعة فعبرا اليه في زلال وأنا معهما وأنا صغير وعلى أقبية ومنطقة فلما دنونا من حراقة ابراهيم نهض ونهضنا ونهضت بنهوضه صبية له يقال لها غضة واذا في يديه كأسان وفي يديها كأس فلما صعدنا اليه اندفع فغنى :

« حياكما الله خليليـــا ان ميتاً كنت وان حيا
« ان قلتما خيراً فأهل له أو قلتما غيـاً فـلا غيـا

« ثم ناول لكل واحد منهم كأساً وأخذ هو الكاس الذي كانت في يد الجارية وقال اشربا على ريقكما ثم دعا بالطعام فأكلوا وشربوا ثم أخذوا العيدان فغناها ساعة وغنياه وضرب وضربا معه وغنت الجارية بعدهم فقال لها أبي أحسنت مراراً فقال له ان كانت أحسنت فخذها اليك فما اخرجتها إلا اليك[1] » .

واليك ما ذكره ابراهيم بن الحسن بن سهل عن الواثق، وهو يتصيد على القاطول، قال : « كنا مع الواثق بالقاطول وهو يتصيد فصاد صيداً حسناً وهو في الزو[2] من الاوز والدراج وطير الماء وغير ذلك . ثم رجع فتــغدى ، ودعا بالجلساء والمغنين وطرب وقال من ينشدنا ؟ فقام الحسين بن الضحاك فأنشده :

« سقى الله بالقاطول مسرح طرفــكا وخص بسقياه منـــاكب قصركا
حتى انتهى الى قوله :
« تحــين الدراج في جنــباته وللغر آجال قدرن بكفــكا »[3]

(١) الاغاني الجزء التاسع ص ٥٤ و ٨٢ .

(٢) الزو نوع من السفن كان منتشراً في العصر العبـــاسي . وقد جاء ذكره في مناسبات عدة ، فجاء ذكره في الطبري لمناسبة وصفه استعراض المعتصم للزط بعد ان جيء بهم الى بغداد بطريق النهر ، فقال ان المعتصم كان بالشماسية في سفينة يقـال لها الزو فمر به الزط وهم في زواريقهم ، وقد ورد ذكر الزو ايضاً في مصادر كثيرة اخرى .

(٣) الأغاني الجزء السابع صفحة ١٠٨ .

والظاهر أن القصر المشار اليه في البيت الاول هو قصر الرشيد، الذي على القاطول ، وهو نفس قصر المشرحات الذي بناه الرشيد ، وقد كان موجوداً على حالته الاصلية في عهدي المعتصم والواثق حتى إذا جاء المتوكل أعاد بناءه من جديد وأضاف اليه بركة البحتري المشهورة .

ولما ولي الواثق الخلافة جلس للناس ودخل اليه المهنئون والشعراء ومن جملة ما نظمه احدهم في وصف السفينة التي كان يركبها الخليفة في دجلة والقاطول الابيات التالية : —

الى خازن الله في خلقه ... سراج النهار وبدر الظلم
رحلنا غرابيب زفافة ... بدجلة في موجها الملتطم
إذا ما قصدنا لقاطولها ... ودهم قراقيرها تصطدم
سلكنا الى خير مسكونة ... يتممها راغب من أمم (١)

وقد وصف البحتري إحدى نزهات المتوكل بالزو على القاطول قال : —

أبى يومنا بالزو إلا تحسناً ... لنا بسماع طيب ومدام
غنينا على قصر يسير بفتية ... قعود على أرجائه وقيام
تظل البزاة البيض تخطف حولنا ... جآجيء طير في السماء سوام
تحدّر بالدراج من كل شاهق ... مخضبة أظفارهن دوام
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه ... تدفق بحر بالسماحة طام
ولا جبلاً كالزو يوقف تارة ... وينقاد أما قدته بزمام

ثم وصف البحتري الزو في قصيدة اخرى قال : —

أعجبت من فرعون إذ ظن أنه ... إله لأن النيل من تحته يجري
ولو شاهد الدنيا وجامع ملكها ... لقل لديه ما يكثر من مصر

---

(١) غرابيب : السفينة ، والزفافة : السريعة ، والقراقير : السفن الطويلة ، ومن أمم : من قريب .

ولو بصرت عينـاه بالزو لازدرى حقير الذي نالت يداه من الأمر
إذاً لرأى قصراً على ظهر لجـة يروح ويغدو فوق أمواجها تجري
تصاد الوحوش في خفاف طريقه وتستنزل الطير العوالي على قسر

وقد بلغت منطقة القاطول والقادسية ذروتها في الجمال والتنسيق على عهـد المتوكل ، فقـد أشغل المتوكل الساحة الواسعة الواقعة بين القاطول الأعلى الكسروي وقاطول الرشيد الاسفل (نهر القائم) ، وأنشأ فيهـا حديقة فسيحة للحيوانات ، ثم أقام على الطرف الجنوبي من هذه الحديقة قصراً واسعاً ، في مكان قصر الرشيد القديم في المشرحات ، وساحة كبيرة خلف القصر تتصل بضفة القاطول الاسفل اليسرى ، وقد أنشأ أمام هذا القصر من جهة الشمال البركة الجعفرية المشهورة التي وصفها البحتري ، وفوق كل هذا استغل مياه القاطول الأعلى فأنشأ ناظماً قاطعياً على مجراه وفتح نهراً من أمام هذا الناظم لأيصال المياه الى حديقة حيواناته وبركة قصره وسيأتي البحث عن كل هذه الاعمال فيما يلي :

وقد وصف جحظة البرمكي منطقة القاطول والقادسية فأنشد فيها أبيـاته التـالية :—

الأهل الى الغدران والشمس طالعة سبيل ونور الخير مجتمع الشمل
ومستشرف للعين تغـدو ضيـاؤه صوائد ألبـاب الرجال بلا نبل
الى شاطىء القاطول بالجانب الذي به القصر بين القـادسية والنخل
الى مجمـع للطير فيـه رطـانة يطيف به القنـاص بالخيل والرجل
لخانة من عيد اليهودي انهـا مشهرة بالراح معشوقة الأهـل
وكم راكب ظهر الظلام مغلس الى قهوة صفراء معدومة المثـل
إذا نفـذ الخـمار دنا بمـنزل تبينت وجه السكر في ذلك المنزل
وكم من صريع لا يدير لسـانه ومن ناطق بالجهل ليس بذي جهل
ترى شرس الاخلاق من بعد شربها جدير ببـذل المال والخلق السهل

جمعت بهـا شمل الخلاعة برهة   وفرقت مالاً غير مصغ الى العذل
لقـد غنيت دهراً بقربي نفيسة   فكيف تراها حين فارقها مثـلي

ومما يسترعي الانتباه أن وصف جحظة للقصر من أنه يقع بين القادسية والنخل ينطبق على موقع المشرحات الذي كان فيه قصر الرشيد ثم صار فيه قصر المتوكل بعد أن أضاف اليه حير الحيوانات ، لأن المشرحات تقع بين القادسية من جهة « وأراضي الاجوى » التي فيهـا مزرعة حسين زغير الحالية من الجهة الثانية . والدليل على أن النخل الذي يشير اليه جحظة كان في اراضي الاجوى المذكورة (جمع جوة) أن هذه الاراضي تؤلف سهلاً خصباً يستدل من تخطيطه وتسميته بالأجوى على انه كان مقسماً الى بساتين . ومما لا شك فيه أن هذه البساتين كانت تروى من القـاطول الاعلى الكسروي بالطريقة السيحية . وتدل الروايات المحلية المتواترة على أنه عثر على بعض جذور نخيل قديمة في جوف الاراضي المذكورة أثناء حرثها أوحفر الآبار فيها مما يؤيد أنها كانت بساتين نخيل.

تاريخ القادسية وتوسع عمرانها

ويظن أن تسمية القادسية قديمة فبعضهم يرى انها مدينة « كارهايه » (Carrhae) القديمة أو مدينة «اباميا» التي ذكرها بلينيوس (٧١م) وقد ذكر كيبون (gibbon) أنها المدينة الآشورية « قادسيا » (Cadesia) ، وعلى كل فان من المرجح لدينا أن تاريخ انشاء القادسية يرجع الى عهود قديمة ، ثم أصبحت ذات شأن بعد أن انشيء النهروان هنـاك بمدخليه الصيفي والشتوي (مجريي القائم والصنم) ، وقد توسعت بعد ان أنشأ الرشيد قصره فيها وشرع في انشاء مدينته هناك ثم نزول المعتصم فيها وانشائه بعض الابنية هناك قبل أن ينتهي الى مكان سر من رأى . ويغلب على الظن ان معمل الزجاج الذي نشاهد آثاره وبقايا زجاجه الآن في القادسية انشيء على عهد المعتصم أثناء تمصير مدينة « سر من رأى » ، حيث كان يزود منشئات المدينة الحديثة بالزجاج على اختلاف

انواعه . وقد ذكر ياقوت أن القادسية اشتهرت بمعامل الزجاج ونسب اليها قوم من الرواة ، كما ذكر ابن عبد الحق أن القادسية قرية كبيرة من قرى سامراء تقع على الجانب الشرقي من دجلة .

١١ ـ سور القادسية

وأهم ما نشاهده من الآثار في القادسية اليوم السور القديم المعروف بـ « سور القادسية » ، وهو الحصن الذي كان يقع بين مجرى القائم (المجرى الصيفي للنهروان) ومجرى الصنم (المجرى الشتوي للنهروان) ، اما اليوم فيقع بين مجرى القائم ودجلة ، لأن نهر دجلة محى معالم مجرى نهر الصنم نتيجة تحول عقيق دجلة نحو الشرق . والسور مبني باللبن ويحيط بساحة واسعة تشغل كل المساحة التي بين مجرى القائم الشمالي ومجرى الصنم الجنوبي تقريباً(١) ، ويناهز معدل قطر الساحة التي داخله ١٦٥٠ متراً ، وهو مثمن الاضلاع يبلغ معدل طول الضلع الواحدة من الخارج ٦٢٠ متراً وتدعمه من الخارج ١٧ دعامة (Buttress) نصف دائرية قطرها نحو ٤٫٧ أمتار ، وبين دعامة كل واخرى ٢٩٫٥ متراً ، وفي كل ركن من أركان السور الثمانية برج مدور يبلغ قطره زهاء ثمانية أمتار ، وسمك السور نحو أربعة أمتار ، أما ارتفاعه فيبلغ حوالي خمسة أمتار ، وتبلغ مساحة الأرض التي يشغلها نحو ٨٠٠ دونم (مشارة) .

---

(١) تبعد ضلع السور المحاذية لنهر القائم في ركنه الشمالي الغربي حوالي ٥٠٠ متر عن حافة نهر القائم وركنه الشمالي الشرقي زهاء ٢٧٠ متراً عن نهر القائم ، وتبعد ضلعه الجنوبية عن مجرى دجلة الحالي ٣٠٠ متراً تقريباً . وورد ذكر هذه المسافات في مقال « مدينة المعتصم » المنشور في مجلة سومر ، عدد تموز ١٩٤٧ (ص ١٦٧) ، بصورة اخرى ، فقد اعتبر بعد المسافة الأولى التي بين الركن الشمالي الغربي لضلع السور المحاذية لنهر القائم وبين نهر القائم ١٩٢٠ متراً وبعد المسافة الثانية التي بين الركن الشمالي الشرقي للضلع نفسه ونهر القائم ١٣٢٠ متراً . أما بعد المسافة الثالثة التي بين الضلع الجنوبية للسور ونهر دجلة فقد اعتبرت ١٨٠٠ متر .

ويشاهد من الداخل ان اضلاع السور تتألف من أروقة تملأ الفراغ الحاصل بين كل دعامة واخرى إلا في ضلعين متقابلتين منها توجد في وسطها زيادة في الثخن بمقدار خمسة أمتار ونصف متر وبمسافة ٦٥ متراً من طول الضلع. وتحتوي هذه الزيادة على ثماني غرف ابعاد كل منها ٥ر٣×٧ر٣ مترات وقد عقدت بعقادة رأسية (Pointed arch) ارتفاعها ٧ر٢ متراً ورصف لبنها رصفاً رأسياً على جانبي الغرفة وعرض مدخلها ٨٥ سنتمتراً وسمك جدار جهتها ٩ر١ متراً (راجع الرسم رقم ٨) .

ويلاحظ في بناء السور ان اللبن المستعمل فيه يمتاز بكبر حجمه من دون كل ابنية سامراء العربية حيث يبلغ حوالي ٤٧ سنتيمتراً في الطول و٢٦ سنتيمتراً في العرض وزهاء ١٥ سنتيمتراً في السمك . وتشاهد في وسط الساحة معالم بعض المنشئات الصغيرة وهذه مبنية من اللبن والطين ومحاطة بأسوار داخلية واطئة . ويستدل من شكل هذه المنشئات ومن السور الخارجي الضخم ان البناية كانت حصناً ومعسكراً لجيش كبير هيئت له فيها وسائل الدفاع والحصار في آن واحد . وفي المنطقة التي حول سور القادسية بقايا مبان كثيرة تمتد على أطراف السور المذكور من الغرب والشرق والجنوب بين مجرى القائم ومجرى الصنم بعضها بالآجر والبعض الآخر باللبن . ومن أهم بقايا الأبنية التي بالآجر المفخور بقايا معمل الزجاج الواقع غربي السور وشرقي موقع الصنم تماماً[1] ، ثم بقايا القصر الذي يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من السور على الضفة الشرقية لنهر الصنم وهي الاطلال المسماة « الاصيبعين » ، ولعل اطلال هذا القصر من بقايا القصر الذي بناه المعتصم في هذه المنطقة قبل ان ينتهي الى سامراء .

وتشاهد في الطرف الشمالي من سور القادسية آثار نهر واسع يخترق السور في الضلع الشمالية الغربية ويدخل الى الساحة التي في داخله ثم يتشعب الى

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن الصنم المذكور في صفحة ١٤٩

عدة شعب هنالك . وفي داخل السور أيضاً يدور بمحاذاة الاضلاع خندق يأخذ ماءه من النهر نفسه لا يزال ظاهراً . واذا تتبعنا آثار هذا النهر نجد انه يبدأ من القاطول الاعلى الكسروي فيتفرع من ضفته اليمنى في نقطة تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من صدره ، ثم ينحدر الى الجنوب قاطعاً المنطقة التي بين القاطول الاعلى الكسروي والقاطول الاسفل (مجرى القائم) ، فيعبر من فوق مجرى القائم على عبّارة في الموضع المسمى بـ « فكة القادسية » وينقسم بعد ذلك الى فرعين فرع يتجه شرقاً نحو السور حيث يخترقه ويدخل الى الساحة التي في داخل السور كما نوهنا اعلاه والفرع الثاني ينتهي الى نهر الصنم فيصب فيه . ولا شك ان الفرع الثاني هذا كان يصرف المياه الزائدة فيصبها في نهر الصنم ، ولا بد انه كان هناك بناء لتنظيم المياه .

ويلاحظ ان دائرة الآثار قد تصوّرت بأن نهر القادسية هذا يشتق من نهر القائم وينتهي في دجلة ، وقد ذكرت ذلك في نشرتها عن سامراء المطبوعة في سنة ١٩٤٠ (ص ٧٢) فقالت ان القادسية تقع بين نهر القائم ونهر دجلة وفي طرفيها نهران مشتقان من القائم يصلان بينه وبين دجلة ، وهذا بعيد عن الواقع لان نهر القادسية المذكور كان يأخذ ماءه من القاطول الاعلى الكسروي وبعد أن يقطع المنطقة التي بين القاطول المذكور والقاطول الاسفل (نهر القائم) يعبر من فوق نهر القائم ثم ينقسم الى فرعين فرع ينتهي الى داخل سور القادسية وفرع آخر يصب في نهر الصنم كما اسلفنا . ولا شك في ان تغيّر الوضع بنتيجة تحوّل نهر دجلة الى الشرق وتقدم مجراه شرقاً ثم اقتلاع العبارة التي كان يعبر عليها النهر من فوق مجرى القائم كانا السبب الذي حدا بدائرة الآثار ان تتصور ذلك .

١٢ - تاريخ سور القادسية

وقد اختلفت الآراء حول بناء سور القادسية فاعتبره بعضهم من اعمال

العرب وعدّه البعض الآخر من أبنية الفرس ، فالدكتور روس الذي زار هذه المنطقة سنة ١٨٣٤ والتقط من جوارها القسم الاسفل من الصنم الاسود الذي كان على صدر المجرى الشتوي للنهروان[١] يعتقد انه يرجع الى عهد الساسانيين، اما مس بيل فقد خالفته في هذا الرأي، أي انها اعتبرته من اعمال العرب . وقد ذكر كريز ويل في كتابه « الفن المعماري الاسلامي القديم » انه من المحتمل ان يكون حصن القادسية من جملة أبنية المعتصم في القاطول قبل ان ينتهي الى سامراء[٢] . ومما يلفت النظر ان السير ويليم ويلـكوكس قد ذهب الى ابعد حد في تعيين منشأ هذا السور فكان يعتقد انه يرجع الى العهد الذي انشيء فيه سد نمرود وهو عهد واغل في القدم يرجع الى ما قبل ٣٥٠٠ سنة[٣] . ويعتقد فيليكس جونس ان لهذا السور ارتباط وثيق بمجرى النهروان ، وعلى هـــذا الاساس يجزم جزماً قاطعاً بأنه بني في العهد الذي انشيء فيه النهروان ثم هجر بعد هجران النهروان واضمحلاله .

اما دائرة الآثار العراقية فقد اعتبرت سور القادسية من اعمال العرب ومن جملة الابنية التي انشأها المعتصم على القاطول قبل ان يقيم مدينة سرّ من رأى[٤] وقد شاءت دائرة الآثار العراقية ان تتمسك بهذا الرأي على لسان مديرها العام معالي الدكتور السيد ناجي الأصيل الذي ذكر في عدد مجلة سومر الاخير[٥] ان سور القادسية من جملة ابنية المدينة التي ابتناها المعتصم على

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن ذلك في صفحة ١٥٠

(٢) راجع كتاب :

«Early Muslim Architecture»,By K. A. C. Creswell, Part II , P.386 .

(٣) راجع ما تقدم في صفحة ١٧٧

(٤) راجع نشرة الآثار العراقية عن سامراء ص ٢٣

(٥) راجع مقال « مدينة المعتصم على القاطول» في مجلة سومر، الجزء الثاني، المجلد الثالث، تموز (١٩٤٧) ص ١٦٠ ـ ١٧٠

القاطول قبل ان ينتهي الى سامراء . ومما يلفت النظر في هذا المقال ان تمسك دائرة الآثار العراقية بالرأي المذكور لم يستند الى دلائل مقنعة يمكن الركون اليها في قبول ما ذهبت اليه في هذا الخصوص ، ولا سيما إذا لاحظنا ما جاء في معجم ياقوت من اشارة صريحة الى ان حصن القادسية أثر للاكاسرة . فقد ذكر ياقوت في مادة (سامراء) « ان الرشيد أراد بناء سامراء فبنى بحذائها قصراً وهو بازاء اثر عظيم كان للاكاسرة» . والقصر الذي يشير اليه ياقوت هو نفس القصر الذي اقامه الرشيد على نهر أبي الجند في المشرحات (١) بجوار حصن القادسية الذي يسميه ياقوت « اثراً عظيماً للاكاسرة » . ولا يختلف اثنان على انه لو كان المعتصم أقام حصن القادسية وسوره لما اغفل المؤرخون العرب ذكره لا سيما وقد ذكروا من الأبنية ما هو دون سور القادسية بكثير من حيث الضخامة والسعة . هذا كما انه لا يمكن ان يكون السور قد اختفى عن انتباه الزائر أو التفات المستطرق نظراً لارتفاعه الذي يستوقف النظر من مسافة بعيدة .

١٣ رأينا في منشأ سور القادسية وتاريخه

اما رأينا في الموضوع فهو أن سور القادسية كان قد انشيء في زمن انشاء النهروان (اي في زمن انشاء مجريي القائم والصنم)، ودليلنا على هذا الرأي ان البناء مع دعاماته والغرف التي فيه والاروقة التي في اضلاعه من الاعمال الهائلة التي تتطلب وقتاً طويلاً وجهوداً جبارة، ولا سيما اذا لاحظنا أن بناء السور يستوجب احضار مالا يقل عن خمسين مليون لبنة من النوع الضخم الذي بني به السور . ولا يخفى ان تخطيط مثل هذا الحصن بشكله المثمن على الارض من الامور الهندسية الصعبة التي تحتاج الى مهارة هندسية ودقة فنية كما انه يحتاج الى وقت كاف ، ليس بالنسبة الى ذلك الوقت فقط بل بالنسبة الى وقتنا الحاضر أيضاً رغم

(١) راجع ما تقدم في ص ٢٢٦ و ٢٣٣

توفر الآلات الهندسية الدقيقة التي تساعد على رصد الزوايا بصورة متقنة . ولا يسع المرء ان يتصور قيام المعتصم بمثل هذا العمل الجبار خلال المدة القصيرة التي قضاها في هذا المكان قبل ان ينتهي الى انشاء سامراء .

ان المدة التي قضاها المعتصم في القاطول ، بالنظر الى نتائج تدقيقاتنا للمعلومات التاريخية المتوفرة ، لم تتجاوز الشهرين أو الثلاثة اشهر على الاكثر ، وتثبيتاً لذلك لنتتبع خطوات المعتصم منذ ان غادر بغداد حتى انتهى الى سامراء : فقد اجمع المؤرخون على ان المعتصم غادر بغداد في سنة ٢٢٠هـ(٨٣٥م)، ويستدل مما رواه الطبري وابن الأثير ان خروجه من بغداد كان في أواخر تلك السنة ، إذ ذكر الطبري انه خرج في شهر ذي القعدة منها(١)، اما ابن الاثير فبعد ان أيد خروجه في سنة ٢٢٠ هـ ذكر بأنه «صلى بالناس العيد (أي عيد الاضحى) ومعنى ذلك شهر ذي الحجة من سنة ٢٢٠ هـ (أي في شهر تشرين الثاني من سنة ٨٣٥م) ولم يدخل بغداد بل سار الى ناحية القاطول ولم يعد الى بغداد . » ويروي لنا اليعقوبي في كتاب «البلدان» أن المعتصم اقام في بغداد حوالي اربع سنوات بعد ارتقائه عرش الخلافة في ١٩ رجب من سنة ٢١٨هـ . (٤ آب ٨٣٣م) ثم خرج الى القاطول في سنة ٢٢١هـ . ومع ذلك فانه يعين في تاريخه المفصل موعد خروج المعتصم الى القاطول في منتصف ذي القعدة سنة ٢٢٠هـ . وهذا نص قوله : « وخرج المعتصم الى القاطول في النصف من ذي القعدة سنة ٢٢٠هـ . فاختط موضع المدينة التي بناها واقتطع الناس المقاطع وجدّ في البناء حتى بنى الناس القصور والدور وقامت الاسواق ثم ارتحل من القاطول الى سر من رأى »(٢) . كل هذا مما يدل على ان المعتصم خرج الى القاطول في حوالي اواخر سنة ٢٢٠هـ . او أوائل سنة ٢٢١ هـ على اكثر تقدير . ولدينا من الأدلة التاريخية على انه مكث بعض الوقت في

(١) الطبري (٣ : ١١٧٩) .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثالث (طبعة النجف) ص ١٩٨

اماكن عديدة في طريقه بين بغداد والقاطول فتوجه اولاً الى الشماسية فعزم ان يبني بهـا مدينة خارج بغداد « فضاقت عليه ارض ذلك الموضع وكره ايضاً قربها من بغداد فمضى الى البردان ... وذلك في سنة احدى وعشرين ومائتين وأقام بالبردان اياماً ثم لم يرض الموضع فصار الى موضع يقال له باحمشا من الجانب الشرقي من دجلة فقدر هناك مدينة على دجلة وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده فنفذ الى القرية المعروفة بالحظيرة فأقام بها مدة ثم مد الى القاطول ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول ... ثم قال ارض القاطول غير طائلة وإنما هي حصا وافهار والبناء بها صعب جداً وليس لأرضها سعة »(١). وقد ذكر ابن الاثير أن ابتداء العمارة بسامراء كان في سنة احدى وعشرين ومائتين(٢) ، فأيد المسعودي ذلك فقال بعد ان وصف الاعمال التي قام بها المعتصم لتأسيس عاصمته الجديدة في سامراء : ـ « وكان بدء ما وصفنا فيما فعله المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين . » أما ياقوت فقد ذكر في مادة سامراء أن المعتصم بنى سامراء ونزلها في سنة ٢٢١هـ .

يتضح مما تقدم أن الوقت الذي استغرقه سفر المتوكل بين بغداد وسامراء ، ثم المدة التي قضاها ماكثاً في « الشماسية » و « البردان » و « باحمشا » لتصميم البنـاء الذي اعتزم القيام به هناك ، مضافاً الى المدة التي استغرقها البنـاء في القاطول وابتداء العمارة في سامراء ، كل ذلك كان في سنة ٢٢١هـ . مما يدل على أن المعتصم لم يسعه المكوث في القاطول أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر كأقصى حد ، فهل كان في امكانه أن ينشىء سور القادسية الجسيم ثم يحفر النهر الواسع الذي يتفرع من القاطول الأعلى وينتهي الى داخل سور القادسية في بحر تلك المدة القصيرة ؟...

(١) كتاب « البـلدان » لليعقوبي .

(٢) ابن الأثير الجزء السادس ، ص ٣١٩

ومن المهم أن نذكر في هذا الصدد أن خروج المعتصم كان في اوائل الشتاء وقد اتفق وصوله الى القاطول في قلب الشتاء ، أي في موسم الامطار ، وهو الموسم الذي يجعل قطع اللبن وتهيئته للبناء من الصعوبة بمكان إذ تحول الامطار دون عمله وجفافه ، ونظرة واحدة الى سور القادسية تحملنا على الاقتناع – بدون أي تردد – على أن تهيئة اللبن المطلوب لمثل هذا البناء الجسيم يحتاج الى موسمين صيفيين على الاقل ، على حين أن المعتصم لم يتسن له أن يقضي موسماً صيفياً واحداً في القاطول . وقد أيد المسعودي وصول المعتصم الى القاطول في اوائل فصل الشتاء ومكوثه هناك خلال فصل الشتاء فقال : « ونالت من المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة ارضه وتأذوا ليالي ففي ذلك يقول بعض من كان في الجيش :

« قالوا لنا بالقاطول مشتانا   فنحن نأمل صنع الله مولانا
« الناس يأتمرون الرأي بينهم   والله في كل يوم محدث شانا

« ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامراء . »

وقد اختلف المؤرخون في منشأ فكرة اتخاذ سامراء مقراً للعاصمة ، فهل كان المعتصم مسبوقاً بها قبل أن يغادر بغداد أو أنه عمل فكرته هذه بعد أن شيد بناءه في القاطول ثم انتهى الى سامراء عن طريق الصدفة ، فكانت الفكرة بنت ساعتها ؟... فقد جاء في الطبري أن المعتصم قبل ان يخرج الى القاطول أوفد في سنة ٢١٩هـ . أبا الوزير احمد بن خالد « لشراء موضع في ناحية سامراء فاشترى بسامراء الدير من النصارى بخمسمائة درهم واشترى موضع البستان الخاقاني بخمسة آلاف درهم واشترى عدة مواضع فعزم على الخروج اليها في سنة ٢٢٠هـ . فخرج حتى إذا قارب القاطول ضربت له فيه القباب والمضارب وضرب الناس الاخبية ثم لم يزل يتقدم وتضرب له القباب حتى وضع البناء في

سنة ٢٢١هـ .[١] أما اليعقوبي فيرى رأياً آخر إذ يقول أن المعتصم بعد ان بنى ما بناه في القاطول ركب متصيداً فمرّ في سيره حتى صار الى موضع سر من رأى حيث وجد ديراً للنصارى « فعزم على ان ينزل بذلك الموضع فأحضر محمد بن الملك الزيات وابن ابي دؤاد وعمر بن فرج واحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير وقال لهم اشتروا من اصحاب هذا الدير هذه الارض وادفعوا اليهم ثمنها اربعة آلاف دينار ففعلوا ذلك[٢]. » وهناك ما يؤيد ان نية المعتصم كانت متجهة نحو انشاء عاصمته في سامراء منذ سنة ٢١٩هـ ، فقال الطبري أن المعتصم خرج في سنة ٢١٩هـ . « يريد القاطول ويريد البناء بسامراء فصرفه كثرة زيادة دجلة فلم يقدر على الحركة فانصرف الى بغداد الى الشماسية[٣] . » . فاذا اعتبرنا رواية الطبري صحيحة ، وهي ان المعتصم كان مسبوقاً بفكرة انشاء عاصمته في سامراء قبل ذهابه اليها، فقد يصح لنا ان نقول بأن البناء الذي اقامه في القاطول لم يكن إلا عملاً عرضياً لا يخرج عن كونه بناء اقيم على مدخل العاصمة الجديدة

---

(١) كتب الطبري في هذا الصدد قال : — « ذكر عن أبي الوزير أحمد بن خالد أنه قال بعثني المعتصم في سنة ٢١٩ وقال لي يا أحمد اشتر لي بناحية سامراء موضعاً أبني فيه مدينة فاني أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلون غلماني حتى أكون فوقهم فان رابني منهم ريب أتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم وقال لي خذ مائة ألف دينار . قال قلت آخذ خمسة آلاف دينار فكلما احتجت الى زيادة بعثت اليك فاستزدت قال نعم فأتيت الموضع فاشتريت سامراء بخمسمائة درهم من النصارى أصحاب الدير واشتريت موضع البستان الخاقاني بخمسة آلاف درهم واشتريت عدة مواضع حتى أحكمت ما أردت ثم انحدرت فأتيته بالصكاك فعزم على الخروج اليها في سنة ٢٢٠هـ فخرج حتى اذا قارب القاطول ضربت له فيه القباب والمضارب وضرب الناس الأخبية ثم لم يزل يتقدم وتضرب له القباب حتى وضع البناء بسامراء في سنة ٢٢١ » .

(٢) كتاب « البلدان » لليعقوبي .

(٣) قال الطبري : «فلما كانت سنة ٢١٩ وقيل سنة ٢٢٠ وذلك عندي خطأ خرج المعتصم يريد القاطول ويريد البناء بسامراء فصرفه كثرة زيادة دجلة فلم يقدر على الحركة فانصرف الى بغداد الى الشماسية ثم خرج بعد ذلك فلما صار بالقاطول غضب على الفضل ... الخ » .

(سامراء) بصورة موقتة ، وعلى هذا لا يمكن ان يشتمل على بناء ضخم مثل بناء « حصن القادسية » الجسيم وسوره العظيم. ولا بد من التنويه في هذا الصدد الى ان فكرة البناء في سامراء لم تكن من بنات افكار المعتصم وإنما قد سبقه الرشيد اليها ، وفيما ذكره ياقوت من ان « الرشيد اراد بناء سامراء ثم بناها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١ » أوضح دليل على ذلك .

وفضلاً عن ما تقدم فان هناك ادلة تاريخية على ان موقع القادسية كان موجوداً في عهد الفرس حيث كانت هناك منتزهات تعد من اجمل المنتزهات العراقية في ذلك العهد . ولدينا في تسمية القادسية نفسها ما يجعلنا ان نتحول بتفكيرنا الى قادسية الكوفة التي تعود الى عهد الفرس ، وهذا يؤيد ترجيح رجوع تسمية قادسية سامراء الى ذلك العهد ايضاً لوجود الشبه بين التسميتين .

وأخيراً نرى فيما ذكره ياقوت من « ان الرشيد بنى قصراً بازاء اثر عظيم كان للاكاسرة » دليل تاريخي موثوق على ان حصن القادسية من عمل الأكاسرة ، ولا شك في ان المقصود بـ (الاثر العظيم) حصن القادسية نفسه ، وهو الحصن الذي لا يزال يعد اعظم اثر في منطقة القادسية حتى الآن .

ولنفترض سؤالاً آخر : فاذا قلنا ان سور القادسية من عمل المعتصم فما هي الاسباب التي دفعت به لأنشاء هذا الحصن الضخم المنيع ؟... هل كان ينوي ان يحاصر مع جنوده فيه ، وهل كان هناك غزو يقوم به الرومان او غارات يقوم بها الفرس مما يضطره لأنشاء مثل هذا الحصن الهائل ؟؟... ولا بد من الملاحظة في هذا الصدد بأن تصميم بناء هذا الحصن يمتاز بفنه الهندسي الدقيق ، الأمر الذي يدل على انه وضع بعد دراسة فنية دقيقة وتحريات تمهيدية عميقة استغرقت بعض الوقت على عكس ما نراه في الأبنية المجاورة التي تدل بقاياها على انها بنيت بدافع الحاجة الآنية ووضعت تصاميمها بصورة ارتجالية ، وإذا ما قارنا تصميم بناء « حصن القادسية » مع شكل بناء « معسكر الاصطبلات » في الجهة

الغربية من نهر دجلة ، وهو المعسكر الذي انشأه المعتصم على ما نعتقد ، اتضح لنا الفرق العظيم بينهما . هذا من جهة ، أما من حيث الدلائل الفنية التي لا تقبل الشك ، فهناك ما يدل على ان النهر الذي كان يأخذ ماءه من القاطول الكسروي وينتهي الى داخل حصن القادسية هو نهر قديم للغاية وانه واسع بحيث لا يمكن ان نتصور عمله من قبل المعتصم ، إذ لم يكن لدى المعتصم الوقت الكافي لقيامه بمثل هذا المشروع الضخم ... هذا الى ان هناك دلائل تؤيد لنا بأن الحصن انشيء في نفس الوقت الذي انشيء فيه «النهروان» وذلك بين صدريه (مجرى القائم ومجرى الصنم) ، كما ان هناك دلائل ثابتة تؤيد ان النهر الذي ينتهي الى الحصن انشيء بعد ان اقام كسرى مشروع القاطول الأعلى الكسروي ثم هجر النهر ومعه الحصن بعد ان هجر مجرى القائم الذي يقع عليه الحصن في اواخر عهد كسرى عند ما حفر مجرى القورج مكانه . ولا يخفى ان مجريي القائم والصنم كانا مندرسين ومهجورين وكذلك حصن القادسية ، حين قرر الرشيد ترك مجرى القورج والرجوع الى صدري القائم والصنم باعادة حفر الاول . وقد أعاد الرشيد احياء مجرى القائم ولكنه لم يفكر في اعادة احياء نهر القادسية القديم الذي كان يتفرع من القاطول الاعلى الكسروي وينتهي الى الحصن حيث لم يعد بحاجة اليه بعد ان هجر حصن القادسية ، على أن من المحتمل انه استغل القسم الشمالي من هذا النهر فأعاد حفر هذا القسم لايصال المياه الى حدائق قصره في «المشرحات» شمالي شرقي حصن القادسية على الضفة اليسرى لنهر القائم ، وكذلك لايصال المياه الى الاراضي المجاورة للقصر من الشرق والجنوب ما بين القاطول الأعلى ومجرى دجلة القديم [١] . والدليل على هذا الاحتمال اننا نجد عدداً من المجاري المندرسة في صدر هذا النهر يرجح أن بعضها حفر في زمن الرشيد للغرض المذكور . وعلى كل فان وجود كثرة هذه المجاري في الصدر يدل على انه كان يصعب ادخال المياه الصيفية في النهر نظراً لعدم وجود ناظم أو سد على

(١) راجع البحث الذي تقدم حول «قصر المشرحات» في ص ٢٣٩-٢٤١

مجرى القاطول الأعلى الذي يمكن حجز المياه أمامه ورفع مناسيبها لتأمين دخولها الى النهر في كل المواسم حسب مقتضى الحاجة ، وسنرى كيف تلافى المتوكل ذلك عندما اعتزم انشاء حدائقه في « المشرحات » ، ولعل السبب في عدول الرشيد عن انجاز المدينة التي كان ينوي انشاءها في هذه المنطقة صعوبة ايصال المياه اليها في كل مواسم السنة بصورة منتظمة .

كل هذه الدلائل مجتمعة تثبت لنا ان سور القادسية انشيء في نفس الوقت الذي انشيء فيه النهروان (أي في عهد الفرس) وانه انشيء جرياً على العادة المألوفة في ذلك الوقت ، وهي اقامة حصون منيعة على صدور الجداول المهمة للمحافظة عليها والحيلولة دون وقوعها بيد العدو ، إذ يؤدي استلاؤه عليها الى قطع الماء عنها . ولا شك في أن هذا الحصن انشيء في الوقت الذي كانت البلاد مهددة بغارات الرومان وغزوهم دوماً . وإذا سلمنا بالنظرية القائلة بأن مشروع النهروان نفسه كان فى الأصل مشروعاً عسكرياً دفاعياً أكثر منه زراعياً يسهل علينا ادراك ضرورة وجود مثل هذا الحصن على صدر النهر[١] .

وأخيراً فان هنالك نقطة لا بد من الاشارة اليها وهي ان اللبن الذي انشيء به حصن القادسية أقرب إلى أحجام اللبن أو الآجر الذي استعمله الفرس في بناياتهم منه إلى أحجام اللبن أو الآجر الذي استعمله العرب ، وقد لاحظنا ان حجم اللبن الذي بني به حصن القادسية (وهو ٤٧ × ٣٠ × ١٥ سنتيمتراً) قريب جداً من حجم الآجر المستعمل في بناء السد الغاطس المبني في ذنائب القاطول الأعلى الكسروي ، وهو السد الذي لا مجال للشك في انه من آثار الفرس . وهناك أبنية اخرى مبنية بلبن من هذا الحجم وهي من الأبنية التي ثبت رجوعها الى عهد الفرس أو الى ما قبله واعني بها « قلعة الناي » التي بني سورها

---

(١) راجع البحث الذي تقدم في صفحة ١٥٧

بلبن حجمه (٤٥ × ٤٠ × ١٥ سنتيمتراً (١) و « جدار المطبق »(٢) و « وقلعة أم الرؤس »(٣) المبنيين باكبر أنواع اللبن القديم .

ولا بد من الاضافة في هذا الصدد الى اننا لم نعثر أثناء تجوالاتنا الكثيرة في خرائب سامراء العربية على بناء مبني بلبن يضاهي حجمه حجم اللبن الذي انشيء به حصن القادسية .

١٤ ـ رأي هرزفلد في سور القادسية ونهر أبي الجند

يعد الدكتور هرزفلد حجة في أمور سامراء القديمة فهو العالم الغربي الوحيد الذي انصرف الى دراسة هذه المنطقة دراسة علمية دقيقة وقد ألف فيها عدة كتب ، وقد اتصلت مديرية الآثار العراقية العامة بهذا المستشرق مستمزجة آراءه حول القادسية وموضع المشرحات وغيرها من الامور المتعلقة بتاريخ المواقع الأثرية في سامراء ، وكان ذلك على أثر ما نشرته في بعض الصحف عن نتائج دراساتي في منطقة سامراء ولا سيما ما يختص بموقع « المشرحات » الذي لم يكن لدائرة الآثار علم به قبل ذلك . وقد أجاب الدكتور هرزفلد على طلب الدائرة المذكورة بتاريخ ٢٧ تموز ١٩٤٧ مبيناً آراءه حول ذلك ، واليك ما ذكره عن سور القادسية في جوابه، قال: « لقد اصبتم في تعيين موقع منشئات المعتصم الأولى المهجورة في مكان اطلال القاطول في جنوب سامراء ، وقد

---

(١) حول القلعة المذكورة راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٢١٤ (حاشية ١)

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن « جدار المطبق » في صفحة ١٧٥

(٣) « قلعة أم الرؤس » بناء يقع على ضفة نهر الفرات الشرقية على بعد حوالي اربعين كيلومتراً من شمالي الفلوجة وهو مبني بأكبر انواع اللبن القديم ايضاً ، وتشبه هذه القلعة في شكل بنائها « قلعة الذاي » فتشتمل على ساحة مربعة مسورة بجدار عال يبلغ طول ضلعه حوالي ١٥٠ متراً . ويقول الاهلون انهم عثروا في هذه القلعة على مقبرة وضعت جثث الموتى فيها داخل أواني من الفخار مما يدل على ان البناء يرجع الى العهد الفرثي .

كنت اعتقد بأن البناء المثمن الكبير (ويقصد سور القادسية) هو المدينة التي أقامها الرشيد على القاطول إلا اني وجدت أخيراً بأن هذه البناية غير الكاملة من منشئات المعتصم المهجورة أيضاً »(١). وقد بعث الدكتور هرزفلد بجوابه هذا الى دائرة الآثار قبل أن يقف على ملاحظاتي المذكورة حول الموضوع ، ولما ارسلت اليه خلاصـــة المحاضرة التي القيتها في نادي القلم العراقي حول الموضوع والتي نشرت في بعض الصحف في حينه (٢) ، وبعد ان شرحت له خلاصة ما توصلت اليه من نتائج بعد اجراء تحقيقاتي في منطقة سامراء (وهي نفس النتائج التي شرحتها في مؤلفي هذا) أجابني في كتابه المؤرخ ٢٩ آب ١٩٤٧ ، أي بعد ارساله كتابه الى مديرية الآثار العامة بحوالي الشهر ، قال مانصه : « بناء على مذكراتي المدونة قبل عشر سنوات اني اؤيد كل ما ذهبتم اليه بمقالكم تقريباً عدا ما جاء حول سور القادسية المثمن الذي لا يزال مشكوكاً في امره . فيظهر ان البناية هذه غير كاملة وعلى المرء ان يلاحظ أيضاً احتمال كون البناية من عمل هرون الرشيد . وهناك المسألة الكبرى ، هي مسألة قاطول ابي الجند ، كما ان هناك بالطبع القاطول الكسروي الذي يتصل بمشروع النهروان والذي يرجع الى العهد الساساني. اما بناية سور القادسية فاني أتردد في اعتبارها ساسانية(٣).

---

(١) وهذا نص قوله باللغة الانكليزية :ــ

« You are right in identifying the ruins on the Qatul south of Samarra with the first, abandoned foundation of al Mu 'tasim. After first having thought that the big octagon was the villa of Harun Al-Rashid on his Qatul, I later found out that this unfinished building belongs also to the abandoned foundation of Al-Mu'tasim.»

(٢) راجع جريدة البلاد ، الاعداد الصادرة في ١٧ و ١٨ و ٢٠ و ٢٣ آذار سنة ١٩٤٧

(٣) وهذا نص قوله باللغة الانكليزية :ــ

« I agree (the text was written 10 years ago) with almost every point you say only the great =

وقد ذكر لنا الدكتور هرزفلد في جوابه أيضاً أنه قائم بطبع الجزء السادس من مؤلفه عن سامراء وفيه على ما يقول بحث وخارطة عن هذه الأماكن ، إلا أن الجزء المذكور لم يصلنا ومؤلفنا هذا ماثل للطبع .

يستفاد من ملاحظات هرزفلد المذكورة انه لا يزال متردداً في أمر سور القادسية وانه لم يستطع ان يتوصل الى رأي ثابت حول ذلك ، فبعد ان أيد الى دائرة الآثار انه انتهى الى الرأي القائل بأن سور القادسية من عمل المعتصم بعد ان كان يعتقد انه من عمل الرشيد ، يرجع فيرجح في كتابه الينا ان بناء السور قد يرجع الى عهد الرشيد ، ويضيف الى ذلك قوله ان ما يتعلق بتاريخ انشاء هذا السور لا يزال مشكوكاً فيه. ويتضح للقارىء من ملاحظات هرزفلد أيضاً انه يعتبر قضية « نهر أبي الجند » عويصة لم يستطع التوصل الى حقيقة امرها. ولذلك نراه قد احجم عن ابداء أي رأي حوله في كتابه الينا ، مع انه بيّن بعض الملاحظات عنه الى دائرة الآثار في كتابه الموجه اليها قال فيه ما نصه : « ان المجريين اللذين لا يزالان موجودين واللذين يسيران من الغرب الى الشرق (ويعني بذلك مجريي القائم والصنم) هما قاطولا اليهودي والمأموني وكلاهما يعودان الى ما قبل عهد المعتصم . اما الثالث وهو المجرى الرئيسي – قاطول الرشيد المسمى ابو الجند – فكان موازياً المجريين المذكورين من الجنوب وقد لاحظت آثار قطعتين أو ثلاث منه في الضفة الجنوبية الحالية من سهل سامراء

= octagon of Qadissiyah itself remains doubtful; it is evidently an unfinished building, and one must also consider Harun Al-Rashid as possible author « the great problem of the Qatul abu'l Jund ». Of course there was a Sassanian Qatul Al - Kisrawi, connected with the Nahrawan system, but I hesitate to consider Qadissiyah as Sassanian . »

المرتفع . والارجح ان ابا الجند كان يجتاز ملتقى العظيم بدجلة فيسير الى بعض المسافة موازياً القاطول الكسروي الذي يأتي من الشمال حتى يجتمع الاثنان فيكوّنان النهروان . والذي حدث في زمن المستنصر هو أن نهر دجلة ترك مجراه المستقيم من جنوبي القادسية مباشرة وتحوّل في قعر قاطول أبي الجند ، وعلى أثر ذلك انشأ المستنصر نهر دجيل (الشطيط) في وسط قعر دجلة القديم اليابس[١] . »

وفي رأينا ان كل هذا بعيد عن الصواب وقد شرحنا تفاصيل الوضع في الفصول المتقدمة واوضحنا حوادث انشاء نهر القورج ، ثم اعادة حفر نهر القائم على عهد الرشيد وهو النهر الذي سمّي بأسم « أبي الجند » ، واخيراً تحوّل نهر دجلة في مجرى القورج للاسباب التي اوردناها في هذا الخصوص[٢]. فيتضح

---

(١) وهذا نص قوله باللغة الانكليزية : ـ

«The two branches still existing (running w to E) are the Q. al-Yahudi and al-Ma'muni, both older than al-Mu'tasim. The third and main branch, the Q. abul-Jund of Harun, ran parallel to them in the south. I observed two or three traces of it in the present southern bank of the higher level of the Samarra plain. The abul-Jund must have passed the modern junction of 'Adaim and Tigris and have paralleled for some distance the continuation of the Q. al-Kisrawi, coming from the north, until both become the «Nahrawan». What happened at the time of al-Mustansir was that the Tigris left the straight line of its bed just below Qadissiyah and broke into the bed of the abu-l-jund. Mustansir, then, built the Dujail (shutait) canal in the dry bed of the old Tigris.»

(٢) راجع البحث الذي تقدم في ص ٢١٢ و ٢٢٦ و ٢٢٩

من ذلك ان آثار القطعتين أو القطع الثلاث من النهر التي لاحظها هرزفلد في الضفة الجنوبية الحالية من سهل سامراء المرتفع ما هي إلا بقايا « نهر القورج » الذي احتله نهر دجلة بعد تحوّله الى الشرق . ويستفاد من ملاحظات المشار اليه انه لم يتتبع موضوع نهر القورج وتطورات هذا النهر الذي لعب دوراً خطيراً ليس في تاريخ ري سامراء حسب وانما في تاريخ بغداد نفسها أيضاً . اما نهري « اليهودي » و « المأموني » اللذين يشير اليهما هرزفلد ويرى انهما كانا يسيران في اتجاه نهري القائم والصنم فهما النهران اللذان ذكرهما ابن سرابيون وقد شرحنا رأينا عنهما في البحث الذي يلي (١) .

والظاهر انه لم يكن لدى هرزفلد مجال لدراسة جغرافية منطقة سامراء القديمة وهي الدراسة التي تتصل بتاريخ الانهر وتطورات مجرى دجلة في تلك المنطقة اتصالا مباشراً ، وقد حصر اهتمامه في الحفريات الأثرية في الاماكن البارزة كـ « بيت الخليفة » و« المنقور » و « العاشق »، وعلى هذا انحصرت ابحاثه ودراساته كلها تقريباً في الأبنية والاساليب المتخذه لتزيينها وتزويقها وتحسينها ، أي الصنائع الفنية الاسلامية كالنقوش والزخارف الجصية والتخاريم وغيرها من الآثار المتعلقة بذلك ، ولا شك انه خدم بهذا الفن العربي خدمة جليلة يقدّر عليها كل تقدير .

١٥ - موقع منشآت المعتصم على القاطول

أما المنشئات التي أقامها المعتصم في هذه المنطقة قبل ان ينتهي الى سامراء فهناك مصدران يمكن الاستعانة بهما على تعيين مكانها ، أولها ما دونه المؤرخون من ان المدينة التي انشأها المعتصم تقع على دجلة وعلى القاطول ، وثانيهما بقايا الابنية التي تشاهد في هذه المنطقة . والذي نستخلصه من المصدر الأول هو أن

(١) راجع البحث التالي الخاص بـ « نهر نيزك وقواطيل ابن سرابيون الثلاثة » في الفصل السادس [مادة ٤]..

المدينة بما فيها القصر كانت على ضفتي نهر الصنم الأسفل ، شرقي سور القادسية . وينطبق هذا المكان تماماً على وصف المؤرخين للمنطقة التي انشئت فيها المدينة ، فان هذا الموضع ، كما ذكر المؤرخون ، ضيق لا مجال فيه للتوسع كما ان أراضيه مكوّنة من حصى وانهار لا تساعد على البناء(١) . وكل هذا يدلنا على ان المعتصم كان يحرص كل الحرص على أن يجعل مدينته تشرف على نهر دجلة وتتصل به على طول امتدادها ، بغية جعل بنايات السكن قريبة من ضفته مما يسهل نقل مياه الشرب اليها ، وهكذا فقد انحصرت المدينة في المنطقة الضيقة الواقعة بين الضفة اليمنى لمجرى القائم والضفة اليسرى لمجرى الصنم وفي منطقة الساحل الضيقة التي على دجلة وهي المنطقة الواقعة على الضفة اليمنى من نهر الصنم، كل هذا حرصاً على تحقيق رغبة جعل المدينة متصلة بدجلة . أما الأبنية التي على ساحل دجلة والواقعة على الضفة اليمنى لنهر الصنم فقد اكتسحها مجرى دجلة كما اكتسح مجرى الصنم نفسه بحيث لم يبق أي أثر يستدل به على هذا المكان. واما الأبنية التي على الضفة اليسرى من نهر الصنم فلا تزال آثارها ماثلة للعيان يمكن مشاهدتها بين مجرى القائم ومجرى الصنم ، شرقي سور القادسية، وهي مؤلفة من عمارات متقطعة مبنية باللبن والطين عدا القصر الذي في تل الاصيبعين (وهو القصر الذي بناه المعتصم على ما نعتقد) ، فهو مبني بالآجر ، ويستدل من آثاره على انه كان قصراً واسعاً . اما حصن القادسية الذي يقع غربي أبنية المعتصم فالأرجح ان المعتصم استعمل ساحته لنصب الخيم ، ولعل الابنية الطينية التي في داخل الحصن انشئت من قبله في ذلك الوقت أيضاً لسكنى قواد الجيش وعوائلهم .

١٦ ـ منشئات المعتصم على القاطول و « اطلال الاصطبلات »

نستخلص مما تقدم ان حدود مدينة المعتصم لم تتعدّ حدود الضفة اليمنى

(١) راجع وصف اليعقوبي الذي تقدم في ص ٢٣٧ و ٢٥٤

لمجرى القائم لأن المنطقة الشمالية التي على الضفة اليسرى لمجرى القائم ، أي منطقة «المشرحات» التي بنى بها الرشيد قصره ، منطقة واسعة جداً وفيها من الاراضي السهلة الخالية من الحصى ما يحقق التوسع المطلوب فيما لو رغب المعتصم أن يبتعد عن نهر دجلة ويتجه نحو تلك المنطقة . وعلى هذا فاننا نعتقد ان المعتصم كان قد رسم في ذهنه خطة ترمي الى بناء مدينته الجديدة على نهر دجلة وجعل التوسع على طول مجرى النهر على ان يستفاد من ضفتيه في هـذا التوسع عند الضرورة ، وهي الخطة التي اتبعها بعد ذلك في تخطيط مدينة سامراء ، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن بقايا أبنية «الاصطبلات» الواقعة أمام مدينة المعتصم والتي تمتد على طول الجانب الايمن من دجلة هي من بقايا أبنية المعتصم ، وهي الثكنات التي بناها لجنوده والاصطبلات التي انشأها لخيله . وهناك ما يدل على ان هذه الثكنات بقيت مشغولة من قبل الجيش العباسي بعد انتقال المعتصم الى سامراء ولعلها استعملت في عهد الخلفاء الذين جاؤا من بعده أيضاً . اما العامل الذي حمله على بناء هذه الثكنات في الجانب الغربي من دجلة فهو نفس العامل الذي حمله بعد ذلك على عزل سكن الجيش عن سكن أهل المدينة في سامراء ، ولا يخفى ان هذا العامل هو العامل الأساسي الذي حمله على ترك مدينة بغداد وانشاء مدينة جديدة ، بحيث يتسع له المجال فيها لفصل سكن الجيش عن الاهلين وعزل أقسام الجيش حسب عناصرهم الواحد عن الآخر . ولا شك في أن المعتصم كان ينوي اقامة جسر هناك كما فعل بعد ذلك في سامراء[1] .

١٧ كهريز المعتصم في القادسية

ويلاحظ ان المعتصم انشأ كهريزاً لايصال مياه الشرب الى مدينته الجديدة

---

(١) حول معسكر «الاصطبلات» المذكور راجع ماتقدم في ص ٩٣-١٠٣ والرسم رقم ٩ .

على القاطول[1] فيستمد هذا الـكهريز المياه من نهر دجلة في نقطة تقع على بعد حوالي كيلومترين من شمالي صدر نهر الصنم ثم يسير شرقاً باتجاه حصن القادسية فيخترقه من جهته الشمالية حتى ينتهي الى بنايات مدينة المعتصم شرقي الحصن . وقد انشيء هذا الـكهريز في مجريين متوازيين احدهما خاص بموسم الفيضان والثاني خاص بالموسم الصيفي . ويبلغ طول هذا الـكهريز من صدره حتى بنايات المعتصم زهاء اربعة كيلومترات (راجع الرسم رقم ٨) . وانشاء هذا الـكهريز يؤيد ما ذهبنا اليه من أن نهر القادسية الذي كان قد حفره كسرى لحمل المياه من القاطول الـكسروي الاعلى الى حصن القادسية كان مندرساً في زمن المعتصم ، إذ لو كان هذا النهر عامراً في ذلك الوقت لما احتاج المعتصم الى انشاء هذا الـكهريز لايصال المياه الى المنطقة المجاورة للحصن .

ويظهر ان انشاء الـكهاريز كان من الاعمال المألوفة في منطقة سامراء ، وكان يلجأ اليها في اكثر الحالات المستعجلة التي تتطلب السرعة لايصال المياه الى امكنة السكن نظراً لما في عمل الـكهاريز من توفير في عمليات الحفر باعتبار ان الـكهريز لا يحتاج الى غير نفق ذي حجم محدود ، ولنا في الكهريز الذي انشأه المتوكل لايصال المياه الى مدينة المتوكلية ، قبل اتمام حفر نهر المتوكل[2] ، دليل شبه بعمل المعتصم الذي يرمي الى ايصال المياه الى أبنيته شرقي سور القادسية .

١٨ ـ خرائب «المشرحات» ومدينة المعتصم على القاطول

بناء على ما تقدم لا يسعنا إلا أن نرى فيما ذكرته دائرة الآثار العراقية على لسان مديرها العام معالي الدكتور ناجي الأصيل في مقال « مدينة المعتصم

---

(١) الـكهريز هو المجرى الذي يحفر على شكل نفق تحت الأرض لسحب المياه الجوفية به واسالتها الى الاراضي الزراعية سيحاً (راجع البحث التالي الخاص بنظام ري الـكهاريز في الفصل الخامس) .

(٢) راجع البحث التالي عن كهريز المتوكلية في الفصل التاسع .

على القاطول»[١] من أن خرائب «المشرحات» الواقعة على الضفة الشرقية للقاطول (مجرى القائم) من جملة بقايا قصر المعتصم تسرعاً ظاهراً وان استنتاجها هذا غير مبني على دلائل مقبولة سواء أكانت تاريخية أو واقعية . فلو كان امتد بناء المعتصم الى منطقة المشرحات الواقعة على الجانب الأيسر للقاطول (مجرى القائم) لما ذكر اليعقوبي بأن « المكان الذي انشأ فيه المعتصم أبنيته على القاطول ليس فيه سعة وان أراضيه متكونة من حصى وافهار بحيث يصعب البناء عليها » ، لان البقعة التي في جهة المشرحات تؤلف أوسع بقعة من أراضي سامراء السهلة الخصبة التي تصلح لانشاء البساتين والدور وهي تقع بين القاطولين (القاطول الأعلى الكسروي وقاطول الرشيد الأسفل) فتمتد الى مسافة حوالي عشرين كيلومتراً في الطول وزهاء أربعة عشر كيلومتراً في العرض ، ويمتاز موقع هذه البقعة بسهولة ايصال المياه اليها سيحاً من القاطول الاعلى . هذا كما ان منطقة «المشرحات» علاوة على سعتها تتكون من تربة خصبة ليس فيها حصى ولا افهار . ثم لو كان مشروع النهر الذي انشيء في تلك المنطقة لايصال المياه الى حصن القادسية[٢] وبناء « المشرحات » من عمل المعتصم لما كان هناك ما يحمله على الانتقال الى سامراء ولا سيما وانه يتعذر انشاء مثل هذا المشروع الممتاز في أي مكان آخر من تلك المنطقة . كل ذلك يؤيد استنتاجنا المتقدم وهو ان المدينة التي شرع المعتصم في بنائها على القاطول ثم استبدل مكانها بموقع سامراء تقع على الضفة اليمنى لمجرى القائم في جوار « حصن القادسية » الذي كان قد انشأه الفرس من قبل ، ممتدة من تلك الضفة غرباً الى نهر الصنم الاسفل (مجرى القاطول الشتوي) ثم الى ضفة نهر دجلة غربي نهر الصنم . اما موضع المشرحات فهو مكان قصر الرشيد بالاصل ثم انشيء فيه قصر الحير والبركة التي أمامه وهي البركة

---

(١) راجع ما تقدم في ص٢٥١-٢٥٢

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن النهر المذكور في ص ١٥٢ و ٢٤١ و ٢٤٩-٢٥٠

التي استخلصنا من تتبعاتنا انها بركة البحتري نفسها . وان أوضح دليل على أن قصر الحير والبركة من عمل المتوكل هو ان السور الذي يحيط بالمشرحات ، وهو السور الذي يضم حير الحيوانات وينتهي الى قصر المشرحات في الجنوب[1] ، متصل في زاويته الجنوبية الغربية بالسور الذي يحوط مدينة سر من رأى من جهة الشرق ، فيتمد السور الأخير من الزاوية المذكورة الى قصر بركوارا غرباً ومن ثم الى جامع الملوية . وهناك من الدلائل أيضاً على ان النهر القديم الذي يتفرع من القاطول الاعلى وينتهي الى حصن القادسية اعيد حفره ، كما اعيد تنظيم مصدر مياهه في القاطول الاعلى على عهد المتوكل . وقد قام المتوكل بهذه الاعمال خلال الثلاث عشرة سنة التي قضاها في سامراء قبل أن ينتقل الى المتوكلية .

وأخيراً لا بد من الاشارة الى ما ورد من تناقض في مقال « مدينة المعتصم على القاطول » فبينما يزعم صاحب المقال ، وهو واثق كل الوثوق من استنتاجاته بأن « خرائب قصر المشرحات مع بركته والمباني القائمة على جانبيه ليست إلا المدينة التي ابتناها المعتصم على القاطول[2] » يعود فيشكك فيما اعتبره استنتاجاً قاطعاً فيقول « واننا سننتهز الفرصة لاجراء تنقيبات علمية في بعض أقسام مدينة المعتصم لاظهار معالم القصر وغيره من الأبنية ، والاطلاع على دفائنها ، فلعل فيما تبطن ما يفصح عن سرها ويؤيد ربطها بعصر الخليفة المعتصم بالله[3] . »

---

(١) راجع البحث عن حير الحيوانات في الفصل السادس .

(٢) عدد تموز ١٩٤٧ من مجلة « سومر » ص ١٦٩

(٣) نفس المصدر ص ١٧٠

الفصل الخامس

قناة المتوكل

١ — تمهيد

كان المعتصم قد اكتفى بجعل عاصمته « سامراء » تمتد على محاذاة دجلة في الطول ليسهل حمل مياه الشرب من نهر دجلة في الروايا على البغال وعلى الابل ، ولذلك لم يفكر في القيام بمشروع ري كبير يؤمن ايصال المياه الى قلب العاصمة ، وقد رأى أن يوجه عنايته الى الجهة الغربية من دجلة، حيث وجد هناك امكانيات أوسع لانجاز مثل هذه المشاريع فقام بذلك فعلاً منشئاً نهر الاسحاقي كما تقدم ذكره[1] .

ولكن المتوكل، وهو الذي كان له ولع خاص بمثل هذه المشاريع العامة، بحيث يصح لنا القول أنه كان من أحرص الهواة في هذا المضمار، لم يقنع بهذا ، ولذلك فقد بذل قصارى جهده لتحقيق مشاريع الري على الجانب الذي تقع فيه عاصمته ليتسنى له الابداع في تنسيق بناياته وحدائقه وقصوره من جهة ، والتوسع نحو الشرق دون أن يخشى الابتعاد عن ساحل النهر من الجهة الاخرى، وهكذا فكان أول مشروع قام به بعد توليه عرش الخلافة المشروع المعروف بـ «قناة المتوكل» أو « قناة سامراء » الذي يؤمن ايصال المياه الى عاصمته سامراء بطريقة الري الجوفي المعروف بـ « ري الكهاريز » .

ويشتمل هذا المشروع على كهريزين ضخمين ، يستعمل احدهما في الشتاء والآخر في الصيف ، وهما يستمدان المياه من نهر دجلة شمالي الدور (دور تكريت)

(١) راجع البحث الذي تقدم عن نهر الاسحاقي في صفحة ٧٩

فيسيران مسافة حوالي أربعين كيلومتراً حتى يصلا الى قلب العاصمة « سر من رأى » ، وقد مدّ المتوكل هذين الكهريزين الى الجنوب فيخترقان « المطيرة » ثم يسيران حتى يصلا الى جوار القادسية . وبفضل هذا المشروع تمكن المتوكل من انجاز مشاريعه الجبارة في قلب العاصمة والتوسع شرقي مدينة سامراء باتجاه منطقة الحير ، ومن أهم هذه المشاريع انشاء حوض للسباحة خلف قصر الخليفة « دار الخليفة » ، وهو الحوض المعروف اليوم باسم « بركة السباع » ، ثم البركة الواسعة التي في الجهة الشمالية الغربية من بركة السباع[١] ، وأخيراً حلبة السباق وتلها الذي يشرف عليها المعروف باسم « تل العليق » ، وهي الحلبة التي انشأها المتوكل في جهة الحير والتي كان لابد من ايصال المياه اليها لرشها دوماً ودك الاتربة التي تهيجها حوافر الخيل[٢] . وهذه القناة هي التي مكنت المتوكل من تموين المسجد الجامع الذي انشأه في أول الحير بالمياه الدائمة فجعل فيه على حسب قول اليعقوبي « فوارة ماء لا ينقطع ماؤها » . وقد وصف ياقوت الحموي هذا المشروع في معجمه وقال في وصفه : « واشتق المتوكل من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء[٣] » .

وجاء في تاريخ الطبري ذكر هذه القناة في عدة مناسبات فكان يطلق عليها اسم « القناة » دون ذكر اسم سامراء مما يدل على انها كانت من الاعمال الرئيسية العامة المشهورة في ذلك الوقت . فمن جملة الحوادث التي جاء فيها ذكر القناة حادثة قتل أبي نصر في دار الجوسق على عهد المهتدي ثم القاء جثته في بئر من آبار القناة[٤] .

---

(١) حول هاتين البركتين راجع ما تقدم في ص ٦٨ و ٦٩ و ١٤١ والبحث التالي الخاص بهما في هذا الفصل .

(٢) حول هذه الحلبة وتلها راجع ما تقدم في صفحة ١١٧

(٣) حول الجامع المذكور وفوارته راجع ما تقدم في صفحة ١١١

(٤) الطبري (٣ : ١٨١٩ ، ١٨٣٤)

وقبل ان نتطرق الى البحث عن مشروع « قناة المتوكل » هذا قد يكون من المفيد ان نعرض صورة مجملة لنظام ري الكهاريز ، وهو النظام الذي اتقنه الاقدمون من آشوريين وكلدانيين وفرتيين وساسانيين ومن بعدهم العرب فطبقوه في منطقة سامراء كما طبقوه في المناطق الشمالية .

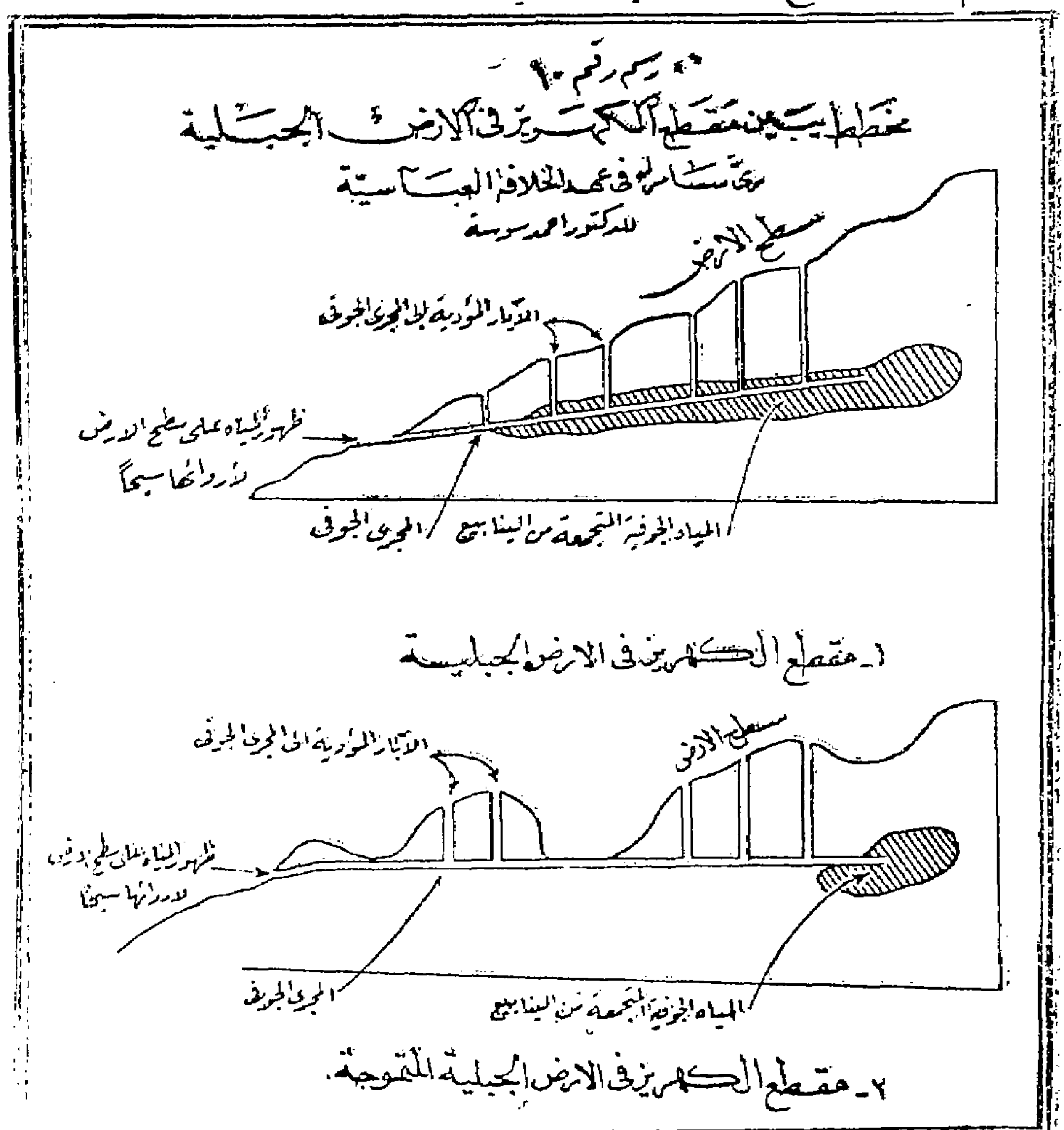
٢ - نظام ري الكهاريز

والكهريز مجرى على شكل نفق تحت الارض لسحب المياه الجوفية التي تنبع من العيون هنالك واسالتها الى الاراضي الزراعية سيحاً . والعادة ان تحفر آبار على مسافة معينة على طول النفق لرفع أتربة المجرى بواسطتها ، ثم تستعمل هذه الآبار كنوافذ هوائية الى النفق كما تستعمل أيضاً للنزول منها الى النفق اذا ما اقتضى نزحه أو تنظيفه من الترسبات والعوائق التي قد تحول دون جريان المياه فيه . وتغطى عادة هذه الآبار ببناء ذي باب عند فوهاتها على سطح الارض لمنع تسرب الاتربة الى المجرى الذي تحت الارض فتفتح الابواب للنزول الى المجرى عند اللزوم . وتختلف المسافات بين بئر واخرى حسب طبيعة الارض، فهي تتراوح من خمسة امتار الى عشرة امتار وتمتد الى عشرين متراً في بعض الاحيان ، وتسير هذه الآبار في اتجاه واحد الى مسافة طويلة وهي تدل على اتجاه الكهريز وطوله (راجع الرسم رقم ١٠ — مقطع الكهريز في الاراضي الجبلية) .

ويطبق عادة هذا النظام في الأراضي الجبلية المتكوّنة من مواد متماسكة كالاحجار المتصلبة والصخور الممتزجة مع المواد الصلبة حيث تحول هذه المواد المتصلبة دون انسداد المجرى الجوفي .

اما الاراضي الجبلية المتموجة التي ترتفع تارة وتنخفض طوراً ، فيسير المجرى فيها على شكل نفق تحت الارض في الاقسام المرتفعة من الاراضي ثم يظهر على

سطح الأرض على شكل جدول مكشوف في الاراضي المنخفضة (راجع الرسم رقم ١٠ — مقطع الـكهريز في الاراضي الجبلية المتموجة) .



والكهريز تسمية محلية، ولعلها اعجمية، اطلقت في العراق على المجرى الجوفي مدار البحث، اما العرب فقد اطلقوا عليه اسم الـ« قناة » واطلقوا على الآبار التي على طوله القناة « فقر » مفردها « فقير » (راجع المخصص) . وقد جاء في « المراصد » ان القناة وجمعها القنا آبار ينحرف بعضها الى بعض حتى يظهر ماؤها على جميع الارض. ويظهر ان تسمية « قناة » فارسية الأصل حيث لا تزال هذه التسمية حتى الآن مصطلح عليها في ايران للدلالة على الـكهريز .

٣ ـ نظام ري الكهاريز في بلاد فارس

ومع ان المعروف ان بلاد فارس تعد موطن هذا النوع من المجاري الجوفية إلا أننا نجد بان النظام نفسه متبع اليوم في سورية[١] وفي شرقي الاردن وعدن وقبرص كما هو متبع في المناطق الشمالية من العراق، على انه علينا أن نقول بأن تاريخ تطبيق هذا النظام يرجع الى أقدم اطوار تاريخ المدنية الفارسية، وان اعظم منظومة من هذه المجاري الجوفية القديمة تقع في نواحي مدينة « يزد» الايرانية حيث يبلغ طول هذه المنظومة ما يربو على مائة وعشرين كيلومتراً ، ومما يلفت النظر ان هذا المجرى يقع في بعض الاماكن على عمق يقرب من مائتين وأربعين متراً عن سطح الارض الطبيعية . وعلى الرغم من محاولة الدعاة الايرانيين لنظام الري المكشوف ومساعيهم لاتخاذ هـذا النظام كأساس للتوسع الزراعي في المستقبل ، فان نظام المجاري الجوفية لايزال هو النظام الرئيسي المعول عليه في الزراعة هناك في الوقت الحاضر ، وان معظم الاراضي الزراعية في ايران تروى اليوم بواسطة المجاري الجوفية (الكهاريز) . ومن جملة الاضرار التي يشير اليها دعاة نظام الري المكشوف هو ان نظام الري الجوفي ، أي نظام ري الكهاريز ، قديم لايمكن معه تطبيق نظام الري الحديث والسيطرة على المياه التي تجري في الكهريز، فهي تسيل دوماً دون انقطاع وبذلك تحدث أضراراً جسيمة في الاوقات التي لا توجد فيها حاجة الى المياه، فتولد المستنقعات والاهوار، وتضعف خصوبة الارض بتراكم الاملاح فيها .

٤ ـ نظام ري الكهاريز في العهد العربي

ويدلنا التاريخ على ان العرب كانوا قد برعوا في الاعمال الهندسية منذ أقدم

(١) يوجد في سورية على مابلغنا من المصادر السورية الرسمية اكثر من خمسمائة قناة (مجرى جوفي) وتسمى القناة هناك « فجارة » وقد سميت بالفرنسية « موغارة » ، ويلاحظ ان كلمة « كهريز » مصطلح عليها هناك للدلالة على مجرى المياه القذرة (Sewer) .

الأزمنة ، وهناك ما يدلنا على انهم ثبتوا في كتبهم القواعد الاساسية لعلم الري والمساحة . ومن جملة كتبهم عن هندسة الكهاريز واستنباط المياه كتاب « انباط المياه الخفية » تصنيف أبي بكر محمد حسن الحاسب الكرخي (٤٠٧هـ - ١٠١٦م) الذي يبحث في الامور المتعلقة بهندسة الكهاريز وبعلم المساحة والتسوية . ومن عجيب ما يلاحظه المرء في هذا الكتاب ان الاصول التي كانت متبعة في ذلك العهد لا تختلف بشيء عن الاصول المتبعة في أيامنا هذه إلا بالوسائط والآلات التي انتجها التقدم العصري . فالكتاب المتقدم ذكره يحتوي على معلومات قيمة عن كيفية حفر الكهاريز وصيانتها وسائر الامور المختصة بالهيدرولوجية (علم خصائص الماء) . ويلاحظ القارىء في هذا الكتاب مصطلحات فنية غريبة اغلبها يرجع الى أصل فارسي . وأهم ما نستدل به على اهتمام العرب بمشروعات الكهاريز واستنباط المياه الجوفية ما كتبه مؤلف هذا الكتاب في مقدمة كتابه قال : « لست اعرف صناعة اعظم فائدة واكثر منفعة من انباط المياه الخفية التي بها عمارة الارض وحياة أهلها والفائدة العظيمة فيها » .

٥ - نظام الكهاريز الخاص في سامراء وقناة المتوكل

ويختلف نظام الكهاريز الذي كان متبعاً في منطقة سامراء عن نظام الكهاريز الاعتيادي الذي تقدم وصفه في كون المصدر الذي كانت كهاريز سامراء تستقي منه المياه هو نهر دجلة وليس المياه الجوفية (العيون والينابيع) ، لذلك نجد ان الكهاريز المذكورة أقرب الى الجداول منها الى الكهاريز ، من حيث اختلاف مناسيب المياه في النهر الذي يستمد منه الكهريز ايراده المائي في مختلف المواسم ، ومن حيث توافر الطمى والدهلة في موسم الفيضان . وعلى هذا الأساس انشأ المتوكل قناته على شكل كهريزين ، احدهما ، وهو الكهريز الاسفل ، يستعمل في موسم الفيضان عندما تكون المياه مرتفعة ومشحونة بالطمي والاطيان الغرينية ، والآخر ، وهو الاعلى ، يستعمل في موسم الصيهود حين يهبط منسوب المياه في النهر ،

وللتخلص من المياه الزائدة في موسم الفيضان بغية المحافظة على الكهريز الشتوي من الانهدام من جهة ، والوقاية ضد أخطار الغرق من الجهة الثانية ، انشأ مصارف خاصة لهذا الغرض، فإن القسم الاعلى من الكهريز الذي كان يمر بموازاة القاطول الاعلى الكسروي كان يصرف المياه الزائدة في الضفة اليسرى من القاطول المذكور ، أما في القسم الجنوبي ، أي بعد أن يعبر الكهريز مجرى القاطول ، فان المياه الزائدة تصرف في الضفة اليسرى لنهر دجلة . وللتخلص من الاطيان والدهلة أنشأ المتوكل أحواضاً واسعة على نمط جدول كبير مكشوف بين مسافات معينة على طول الكهريز الشتوي بغية حصر ترسب الدهلة فيها حيث يسهل رفعها من القعر الى سطح الارض . وتعرف هذه الاحواض بالانكليزية في علم الري باسم (Silt traps) ، أي صيادات الطمي ، اما في سامراء فيسمونها اليوم باسم « دحادير » ، مفردها دحدورة ، أي الحفائر التي تنحدر اليها المياه . ويمكن مشاهدة هذه الاحواض على طول القناة الشتوية وان الاتربة التي على اطرافها المتكونة من الحفريات الاصلية ومن تطهيرات الدهلة تؤلف تلولاً عالية جداً مما يدل على كثرة الترسبات التي كانت ترفع منها بعد كل موسم من مواسم الفيضان .

يتضح مما تقدم ان الطريقة التي اتبعت في انشاء قناة المتوكل هي الطريقة المزدوجة ، حيث اتبعت الطريقتان - طريقة الري المكشوف وطريقة الري الخفي - في انجازها ، على ان ذلك لاينفي كون القناه اشبه بالجداول المكشوفة منها بالكهاريز الخفية على الرغم من انها اعتبرت من المنشئات الجوفية وسميت بالقناة .

وتوجد هناك قناة قديمة من نوع قناة المتوكل في منطقة سامراء ذاتها إلا أنها تعود على ما نعتقد الى عهد قديم جداً ولعلها ترجع الى ماقبل عهد الفرس . وهذه كانت تتفرع من نهر دجلة ايضاً في نقطة تقع قرب « الفتحة » على بعد حوالي مائة كيلومتر من شمالي سامراء ، فتسير شرقي دجلة الى مسافة طويلة على

شكل كهريز حتى اذا ما اجتازت الأراضي المرتفعة ووصلت الى أمام قرية تكريت ظهرت على شكل جدول مكشوف مسافة قليلة ، ثم تعود فتجري على شكل كهريز تحت الارض الى مسافة طويلة في تلك المنطقة حتى تنتهي الى الاراضي السهلة المجاورة الى الملح في الحد الغربي من بحيرة الشارع . ويمكن تتبع آثار هذه القناة الى مسافة طويلة على الرغم من انها تختفي في كثير من أقسامها وهذا ما يؤيد بانها من أقدم الكهاريز التي انشئت في هذه المنطقة (راجع اللوحة رقم ١) .

ولا شك في ان مشروع قناة المتوكل يعد من اعظم مشاريع الري ، التي انشئت على عهد العباسيين في منطقة سامراء ، أن لم يكن اعظمها ، ويكفي ان نشاهد سعة القناة وهي تمر في الاقسام التي تظهر به على سطح الارض على شكل جدول مكشوف ليتسنى لنا ان نتصور جسامة هذا المشروع . فان الجدول الذي يظهر على سطح الارض شمالي «الدور» ، وهو جزء من الكهريز الشتوي ، لا يقل حجمه عن حجم النهروان نفسه ، كما ان المصرف الذي يصرف مياه الفيضان من القناة الى دجلة قرب « سور أشناس » لا يقل حجماً عن حجم أي جدول واسع . اما طول القناة التي تمتد به على شكلها المزدوج فيبلغ حوالي خمسين كيلو متراً .

٦ ـ وصف قناة المتوكل

تبدأ قناة المتوكل على شكل كهريزين يتفرعان من الجانب الشرقي لنهر دجلة في نقطة تقع على بعد نحو اربعين كيلومتراً من شمالي سامراء ، ويسير هذان الكهريزان مسافة بضعة كيلومترات موازيين الى نهر دجلة ، ثم يظهر الكهريز الشتوي على شكل جدول واسع مكشوف مسافة كيلومترين تقريباً حتى إذا ما اقترب من « الدور » عاد فاختفى واستمر في مجراه على شكل كهريز الى جانب الكهريز الصيفي . ويخترق الكهريزان بعد ذلك « قرية الدور » ثم يسيران

جنوباً بموازاة ضفة القاطول الكسروي الشرقية جنوباً حتى إذا ما بلغا مسافة نحو عشرين كيلومتراً من جنوبي « الدور » ظهرا على سطح الارض على شكل جدولين مكشوفين، فيسيران على هذا الشكل بضعة كيلومترات ثم ينعطفان الى الغرب فيتحدان عند الكيلومتر (٢٢) من القاطول الكسروي ، في نقطة تقع امام سور أشناس من الشرق ويعبران في المكان المعروف بـ « فكة مرير » أو « المفك » من فوق القاطول على عبارة موحدة تنتهي الى حوض واسع على ضفة القاطول الغربية . وفي هذا الحوض شعبة تقاسيم مهمة تبدأ منها تفرعات كثيرة أهمها القناة الرئيسية التي توصل المياه الى سامراء ، وهذه تسير على شكل كهريزين ايضاً حتى تنتهي الى سامراء . ويتفرع من هذا الحوض ايضاً مصرف واسع يبلغ عرضه حوالي ٢٠ متراً يعرف باسم نهر « مرير » ، فيصرف مياه القناة الزائدة الى دجلة في موسم الفيضان . ويسير هذا المصرف باتجاه الغرب فيترك « سور أشناس » الى يمينه ثم ينتهي الى نهر دجلة . أما طول المصرف ، بين حوض التقسيم ودجلة، فيبلغ حوالي ثلاثة كيلومترات بين صدره عند حوض التقسيم و « سور اشناس » . ويبلغ منسوب قعره في الصدر ، أي عند حوض التقسيم ، ٦٠ ر ٧١ متراً فوق سطح البحر ثم يهبط في نهايته عند سور اشناس الى ٦٨ ر ٧٠ متراً . ويستدل من الآثار المتقدمة على أنه كان على صدر هذا المصرف ناظم تنظم بموجبه كمية المياه التي تصرف الى دجلة حسب مقتضى الظروف. ويظهر مما ورد في وصف البحتري أن المصرف المذكور كان يعرف بـ «الخندق»[1].

والاعتقاد السائد أن مصرف « مرير » هذا صدر من صدور النهروان أي انه يتفرع من نهر دجلة ويصب في القاطول الكسروي ، في حين أن المناسيب تثبت لنا بأنه ينحدر من القاطول نحو دجلة بانحدار ١ في ٣٠٠٠ كما يتضح من المناسيب المذكورة ، ولعل السبب الذي أدى الى هذا الاستنتاج هو أن المصرف

---

(١) راجع ما تقدم في صفحة ١٢٤

يبلغ من السعة في الحجم والارتفاع في الضفاف ما يضاهي بهما جدول النهروان نفسه ، وفضلاً عن ذلك أن صلة هذا المصرف بقناة المتوكل لم تخطر على البال . والغريب أن الخرائط الانكليزية سمت هذا المصرف « نهر حلوة » وقد نقلت خرائطنا العربية هذه التسمية ايضاً ، في حين انه لا يوجد مثل هذا الاسم في كل هذه المنطقة . وتدل المستويات التي رصدناها في هـذا المـكان على أن منسوب قعر مجرى القاطول الكسروي في المكان الذي تعبر من فوقه عبارة القناة يبلغ ٩٨ ر ٦٨ متراً فوق سطح البحر كما نستخلص من مناسيب قعر القناة في القسم الذي تظهر فيه على شكل جدولين مكشوفين قبل اجتيازها العبارة أن منسوب قعر العبارة التي كانت تعبر عليها القناة من فوق القاطول يبلغ حوالي ٥٠ ر ٧١ متراً الى ٧٢ متراً فوق سطح البحر ، أي أن منسوب قعر العبارة كان أعلى من منسوب قعر القاطول بحوالي ٥٠ ر ٣ الى ٤ امتار .

أما القناة التي كانت تتفرع من الحوض وتتجه نحو سامراء فكانت تموّن مسجد الملوية بالمياه ، كما انها كانت تموّن حلبة السباق أو ساحة الفروسية في منطقة الحير بالمياه عن طريق الخندق الذي يحيط بـ « تل العليق » ، وهو التـل الاصطناعي المرتفع الواقع شمالي سامراء والذي كان يشرف على الحلبة ، واخيراً كانت القناة تموّن بركتي قصر الخليفة بالميـاه ايضاً . ولتحقيق هذه الاهداف شقت كهاريز فرعية من القناة الاصلية تتصل بكل من هذه الاماكن لأيصال المياه اليها .

أما الكهريز الفرعي الذي ينتهي الى « تل العليق » فيتشعب من شرقي القناة الرئيسية في نقطة تقع على مسافة نحو ثلاثة كيلومترات من جنوبي حوض التقسيم ويتجه الى الجهة الجنوبية الشرقية حتى ينتهي الى الجهة الشمالية الغربية من الخندق الذي يحيط بـ « تل العليق » ، وهو التل الذي يقع في الجهة الشمالية من جامع الملوية ، والجهة الشمالية الشرقية من بيت الخليفة . ويشـاهد كهريز فرعي آخر

يخرج من الخندق الذي يحيط بالتل في الجهة الجنوبية الغربية منه فيسير بأتجـاه الجنوب الغربي حتى ينتهي الى القناة الرئيسية . ويظهر أن هذا الكهريز كان يعيد المياه الزائدة التي تتجمع في الخندق الى القناة الرئيسية (راجع اللوحتين ١ و ٢) [1].

٧ – بركتا قصر الخليفة ، البركة النهارية والبركة الليلية

وكانت القناة الرئيسية التي تتجه نحو سامراء تمرّ من قرب « بيت الخليفة[2] . » من شرقيه فتموّن بركتيه بالمياه . وتقع البركة الاولى في الجهة الشرقية الخلفية من « بيت الخليفة » في اتجاه محور الايوان الكبير على بعد نحو ستمائة متر منه . وقد سميت هذه البركة بأسماء مختلفة منها « الزندان » و« الهبيّة » ، أي الهاوية ، و « هاوية السباع » ، وهي تتألف من حفرة مربعة منقورة في الصخر يبلـغ عمقها أكثر من عشرة امتار، وطول ضلعها نحو واحد وعشرين متراً ، ويتوسط هذه الحفرة بركة كبيرة مستديرة تستمد مياهها من الكهريز الفرعي، الذي يتشعب من القناة الرئيسية ، وعلى الارجح أن الحفرة كانت مسقفة فنظمت على شكل سرداب بغية منع دخول الشمس والهواء الحار اليهـا . وقد نقرت في كل ضلع من اضلاع الحفرة الاربع ثلاثة أواوين نقشت على جدرانها نقوش جصية جميلة ، وكل هذه الاواوين تطل على البركة التي في وسط السرداب ، وكان المدخل الى السرداب مؤلفاً من درجين منتظمين متصلين بدهليز منتظم وكان يقع هـذا المدخل في غرفة جميلة نقشت على جدرانها سلسلة جمال ، وكانت هذه الغرفة جزء من الاواوين التي تحيط بالسرداب من جهاته الاربع .

وكيف كان فاننا نميل الى الاعتقاد بأن هذه البركة انشئت لتحقيق غايتين، أولاهما تأمين حوض سباحة للخليفة والاخرى تأمين ملجأ صيفي يقضي فيه ساعات الحر

---

(١) حول « تل العليق » المذكور وخندقه راجع ما تقدم في صفحة ١١٧ .

(٢) حول « دار الخليفة » المذكورة راجع ما تقدم في صفحة ٦٦ .

في ايام الصيف المحرقة . والظاهر أن المتوكل لم يكتف بهذا المخبأ الذي اقتصر استعماله على اوقات النهار فاعتزم انشاء بركة اخرى على شكل بركة ليلية مكشوفة يقضي فيها جلساته الغروبية والليلية . وقام بذلك فعلا فأنشأ بركة أوسع واعمق من بركة السباع المغطاة وذلك في الجهة الشمالية الغربية منها . وهذه البركة المكشوفة منقورة في الصخر ايضاً وتقع في وسط حفرة مدورة يبلغ قطرها نحو مائة وخمسة عشر متراً ، أما قطر البركة فيبلغ نحو ثمانين متراً . وكانت هذه الحفرة على ما يظهر من الآثار المتبقية محاطة ببنايات كثيرة التقسيمات ، ويعتقد هرزفلد أن البناية التي في الزاوية الشمالية الشرقية من الحفرة كانت الخزانة العامة . وكانت البركة تستمد مياهها من بركة السباع في كهريز يمتد بينهما ، وتشاهد بين البركتين بئر مربعة الشكل تتصل بالكهريز المذكور لعلها كانت منفذاً للدخول منه الى الكهريز لتنظيفه عند الحاجة أو للوقوف على مستوى المياه في الكهريز منها . والأرجح انها انشئت بقصد استقاء الماء منها لغرض الشرب أو لحاجات اخرى تتطلبها اعمال القصر ، لأن شكلها المربع يجعلها تختلف عن المنافذ الاعتيادية التي على خطوط الكهاريز . أما المياه الزائدة التي كان لا بد من صرفها الى مكان واطيء فكانت تصرف الى نهر دجلة في كهريز آخر يبدأ من حافة البركة الاخيرة وينتهي الى دجلة . والغريب أن شكل هذه الحفرة المدورة أدى الى اعتقاد بعض الغربيين بأن الحفرة كانت « امفيثاتراً » ، وهذا بعيد عن الواقع .

٨ ـ امتداد قناة المتوكل الى الجنوب

والظاهر ان قناة المتوكل لم تقف عند حد قصر الخليفة لأن آثارها تدل على انها كانت تسير نحو سامراء فتمون المسجد الجامع الكبير الذي يقع شرقيها ، ومن ثم تمتد بكهريزيها المزدوجين الى « المطيرة » جنوباً ومنها الى جهة مجرى القائم الى مسافة غير قليلة بموازاة الضفة اليسرى من ذلك المجرى .

ولا تزال الكهاريز التي كانت تمر من مدينة سامراء عامرة معظمها يقع تحت بيوت سامراء الحالية، ويستعمل أهالي سامراء بعض هذه الكهاريز لصرف مياه الامطار فيها أو صرف بعض المياه القذرة في بعض الحلات .

ولعل القصد من تمديد القناة الأخير ايصال المياه الى حير الحيوانات الذي اعتزم المتوكل انشاءه بين القاطول الاعلى الكسروي ومجرى القائم ثم عدل عن ذلك بعد ان اتضح له امكان احياء نهر القادسية القديم الذي يتفرع من القاطول الاعلى الكسروي وايصال المياه الى هذه المنطقة سيحاً ، وهو النهر الذي قام باحيائه فعلاً فسمي « نهر نيزك » وسنبحث عنه فيما بعد[1] .

٩ ـ الانهار المتفرعان من القناة عند حوض التقسيم

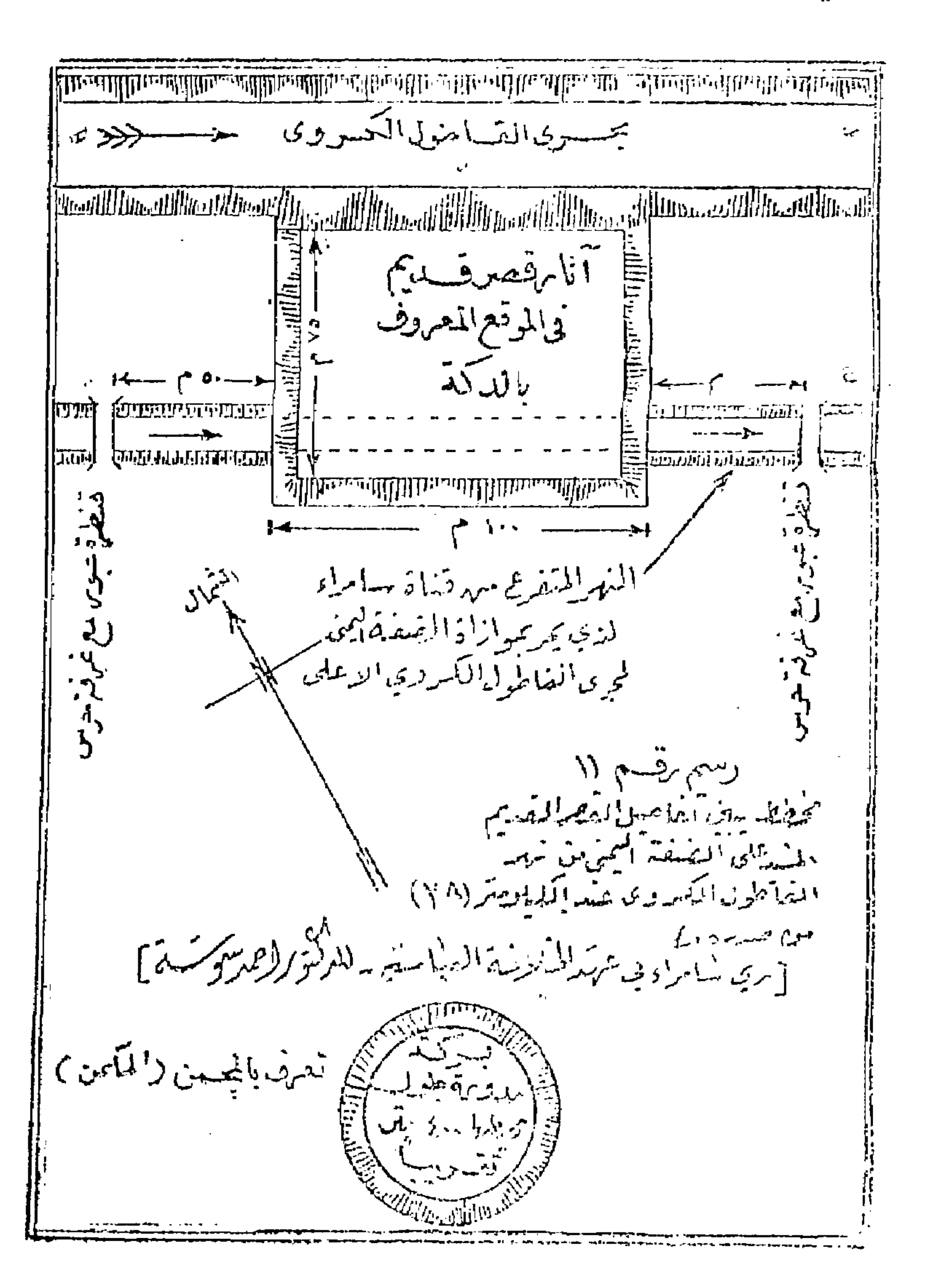
وكان عدا قناة سامراء الذي تبدأ من حوض التقسيم عند فكة مرير وتنتهي في جنوبي سامراء نهران صغيران يتفرعان من نفس الحوض احدهما يسير غرباً لمسافة حوالي كيلومترين في اتجاه «سور اشناس» وهو يلاصق الحافة اليمنى لمصرف مرير ، والثاني يسير شرقاً على محاذاة الضفة اليمنى لمجرى القاطول الاعلى الكسروي وملاصق لها ثم ينتهي عند صدر نهر القادسية القديم الذي يتفرع من القاطول عند الكيلومتر (٣٠) منه[2] . ويقع عند الكيلومتر ٥/٥٠٠ من النهر الثاني قصر مرتفع يعرف موضعه اليوم باسم (الدكة) ، وقد بني هذا القصر على حافة القاطول الكسروي اليمنى فيطل على القاطول من جهة ويشرف على سامراء من الجهة الثانية . اما النهر الذي يقع القصر عليه فكان يمر من تحت القصر في عقادة من البناء ، وتوجد آثار قنطرتين على النهر، قنطرة شرقية وقنطرة غربية، يقع كل

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بـ « نهر نيزك » في الفصل السادس .

(٢) حول نهر القادسية المذكور راجع البحث الذي تقدم في ص ١٥٢ و ٢٤١ و ٢٤٩ و ٢٥٠ و ٢٦٨ .

منها على مسافة خمسين متراً من القصر كما انه توجد بركة صغيرة أمام القصر من الجنوب تعرف اليوم باسم (المكمن) كانت ولا شك تستمد مياهها من النهر نفسه . وكان أمام هذا القصر ساحة واسعة محاطة بسور مستطيل لا تزال آثاره ماثلة للعيان فيبلغ طول ضلعه الطويلة كيلومترين ونصف كيلومتر وطول ضلعه القصيرة كيلومتر ونصف كيلومتر (راجع الرسم رقم ١١ والبحث المتقدم الخاص بـ «قصر الدكة» في صفحة ١٢٢) .



وفي النهر المذكور الذي ينتهي في القصر انحدار شديد فيبلغ انحداره ما يقرب من واحد في الألف ، وقد دلت التحريات التي قمنا بها ان منسوب قعره في آخر الكيلومتر الاول منه يبلغ ٧١٫٦٠ متراً فوق سطح البحر ثم يهبط الى ٦٥٫٢٠ متراً عند الكيلو متر الثامن منه .

اضافات وتصويبات

صفحة ٥٠

يضاف الى الجملة الاولى المنتهية بكلمة (دار الخليفة) في السطر الثاني عشر ما يلي : —

وقد أشار المسعودي الى ان أرض الدير المذكور كانت تعرف بالوزيرية « واليها يضاف التين الوزيري ، وهو اعذب الاتيان وأرقها قشراً وأصغرها حباً ، لا يبلغه تين الشام ، ولا تين أهان وحلوان » .

صفحة ٦٢

تستبدل الجملة الثانية التي تبدأ بكلمة (ولا يزال) في السطر الخامس عشر بما يلي : —

ولا يزال هذان الواديان يكونان مجمعاً لمياه السيول في المنطقة التي تمتد بين « سور اشناس » شمالاً و « المطيرة » جنوباً ، ويعرف الوادي الشمالي باسم « وادي النفل » والوادي الجنوبي باسم « وادي الموح » .

صفحة ٦٥

تضاف الحاشية التالية بعد كلمة (بختيشوع المتطبب) الواردة في السطر الرابع : —

هو من اسرة سريانية اشتهرت بتعاطي الطب . وقد كان هؤلاء الناس حلقة الاتصال بين العلوم القديمة — اليونانية وغيرها — والحضارة الاسلامية .

صفحة ٦٦

يضاف الى آخر السطر الواحد والعشرين المنتهي بكلمة (زهاء ١٦٠ مشارة) ما يلي : —

وقد قدر هرزفلد مجموع المساحة التي كان يشغلها القصر ، بما في ذلك الممرات والقاعات والحمامات والثكنات الكائنة في الطرف الشمالي الغربي للقصر وكذا الخمائل التي تشرف على دجلة بـ ١٧٥ هكتاراً، أي حوالي سبعمائة مشارة عراقية .

صفحة ٧١

تضاف الجملتان التاليتان بعد السطر السادس الذي ينتهي بكلمة (التقسيمات):ـ

ومما يؤيد ان « دار العامة » كانت أول بناية عامة انشئت في العاصمة الجديدة انها اقيمت في موضع الدير الذي ابتاعه المعتصم قبل شروعه في إنشاء سامراء[1] . قال اليعقوبي في هذا الصدد : « قال أحمد بن أبي يعقوب كانت سر من رأى في متقدم الايام صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدار العامة وصار الدير بيت المال[2] » .

ويرى هرزفلد ان الأبنية القائمة في الركن الشمالي الغربي من الحفرة الكبيرة تؤلف ثكنات الجيش ، ويرجح انها كانت ثكنات الخيالة . أما ثكنات المشاة فتفصلها عنها قطعة من الأرض خالية من البناء . وكان في هذه الثكنات ٦٠٠ غرفة ينزلها نحو ٣٠٠٠ من الجنود ، وكان في الرحبة الكبرى ثلاثة مساجد لم تكن محاربها على سمت القبلة تماماً . وتشرف هذه الثكنات على الحديقة وشاطىء دجلة لبنائها على مرتفع من الأرض كما انها تقع الى جانب الشارع الاعظم الذي كان يصلها بالقصر، وقد كان الطريق الوحيد الذي كان يصل جنوبي المدينة بشماليها . (راجع خارطة دار العامة حسب تخطيط هرزفلد) .

---

(١) راجع البحث الذي تقدم الخاص بشراء الدير المذكور في صفحة ٥٠

(٢) راجع كتاب « البلدان » .

صفحة ٧٣

تضاف الجملة التالية الى ما بعد الجملة التي تنتهي بكلمة (راجع لوحة رقم ٢) في السطر الثامن : —

ويلاحظ ان هرزفلد رسم الجسر على خارطته عن سامراء القديمة في موضع يقع جنوبي مدينة سامراء الحالية مباشرة ، في حين ان الجسر كان يقع في شماليها أمام قصر الهاروني كما تقدم .

صفحة ٧٨

تضاف الجملة التالية الى ما بعد الجملة التي تنتهي بكلمة « تاما » في السطر التاسع عشر : —

والظاهر ان كريزويل ، استاذ العمارة الاسلامية في جامعة فؤاد الأول ، يرى ان « الجوسق » و « دار العامة » اسمان لقصر واحد ، وان « باب العامة » هو المدخل الرئيسي للقصر ، إلا أننا لم نعثر على أي مصدر تأريخي يؤيد ذلك ، ولا سيما ان المراجع المعول عليها تثبت بأن « دار العامة » كانت بمثابة البلاط الملكي الذي يحتوي على قاعات العرش والدواوين الرسمية الخاصة به . ومما يؤيد ذلك ان الدار المذكورة كانت تسمى « دار السلطان » أيضاً ، أي دار الحكم . وقد دلت تدقيقاتنا في الاطلال المجاورة لدار العامة على ان « الجوسق » كان يقع جنوبي « دار العامة » في موضع الاطلال الكائنة على ضفة نهر دجلة بالقرب من « هورة أم السور » الحالية (راجع اللوحة رقم ٧) . وقد أيد هرزفلد ذلك فثبت موضع الجوسق في الخارطة التقريبية التي وضعها لمدينة سر من رأى جنوبي « دار العامة ».

صفحة ٩٣

تضاف الجملة التالية الى آخر ما ورد في مادة « قبة الصليبية » : —

ومما هو جدير بالذكر ان هرزفلد يرى انه من المحتمل جداً أن تكون « قبة الصليبية » موضع قبر المنتصر الذي كان قد انشيء في شهر ربيع الثاني من سنة ٢٤٨ هـ ، مستنداً الى ماذكره الطبري من أن المنتصر « هو أول خليفة من بني العباس فيما قيل عرف قبره وذلك ان امه طلبت اظهار قبره ... واسم امه حبشية وهي أم ولد رومية[1] » . ويرى هرزفلد أيضاً ان مقبرة المنتصر هذه كانت تضم ، علاوة على قبر المنتصر ، قبري المعتز والمهتدي مستنداً الى قول الطبري أيضاً من أن المعتز لما مات في سنة ٢٥٥ هـ « اشهد على موته بنو هاشم والقواد فدفن مع المنتصر في ناحية قصر الصوامع[2] » . وكذلك قوله من ان المهتدي محمد بن الواثق لما توفي في سنة ٢٥٦ هـ « صلى عليه جعفر بن عبدالواحد وعدة من اخوة أمير المؤمنين ودفن في مقبرة المنتصر[3] » . ومما حمل هرزفلد على الوثوق من اعتقاده المذكور انه قام ببعض الحفريات في أرضية « القبة » فعثر على ثلاثة قبور اسلامية تحتها . ويرى كريزويل انه اذا صح رأي هرزفلد هذا أمكن أن تعد « قبة الصليبية » من بين أقدم المقابر الاسلامية ، كما انه يرى ان « القبة » تعود الى عهد متأخر من عصر سامراء العباسي لأنها مبنية بنفس المادة التي بني بها « قصر العاشق » ، وهو القصر الذي انشيء على عهد المعتمد .

---

(١) راجع الطبري (٣ : ١٤٩٨)
(٢) راجع نفس المصدر (٣ : ١٧١١)
(٣) راجع نفس المصدر (٣ : ١٨٢٣)

صفحة ١١٠

يضاف الى الجملة الاولى المنتهية بكلمة (برجا) في السطر السابع ما يلي : —

على اعتبار ان اثني عشر برجاً تقع في كل من الضلعين الطويلتين وثمانية أبراج في كل من الضلعين العرضيتين ، عدا الابراج الاربعة الكبيرة التي في الاركان ، فيكون مجموع عدد الابراج ٤٤ برجاً .

صفحة ١٩٠

تستبدل الجملتان الثانية والثالثة المبتدئتان بكلمتي (وكان) و (ويستدل) الواقعتين في السطر التاسع والسطر السادس عشر على التوالي بالجملتين التاليتين : ــ

وكان في جدران المسجد واحداً وعشرين باباً تختلف سعة كل منها باختلاف الموقع من الحيطان ، فتبلغ سعة اكبرها ٤ر٧٥ متراً وسعة اصغرها ١ر٥٠ متراً. ومن هذه الابواب خمسة في الضلع الشمالية لحائط المسجد (بابان صغيران في جانبي الضلع وثلاثة أبواب كبيرة في الوسط) وثمانية في كل من الضلعين المستطيلتين اللتين في الشرق والغرب (ثلاثة أبواب صغيرة وخمسة أبواب كبيرة) ، وتتفق مواقع الابواب في الحائط الشرقي مع مواقع أبواب الجانب الغربي . اما الضلع الجنوبية فلا يوجد فيها غير المحراب الذي يواجه « القبلة » وغير باب صغير في كل من جانبي المحراب ، وقد اختيرت مواقع الأبواب بحيث تتفق ونظام الاروقة في داخل المسجد . ولدى تدقيق اتجاه جدار القبلة تبين انه يقع على ١٩٨ درجة و ٣٠ دقيقة على حين ان « القبلة » تقع على ١٩٦ درجة و ٤٦ دقيقة ، أي ان اتجاه الجدار يرجع درجة واحدة و ٤٤ دقيقة الى الشرق .

ويستدل من استكشافات هرزفلد على انه كان في حرم المسجد ٢٥ رواقاً مؤلفة من ٢٤ صفاً من الاعمدة في كل صف منها تسعة أعمدة ، وفي القسم الشمالي المقابل لحرم المسجد ٢٥ رواقاً أيضاً مؤلفة من ٢٤ صفاً من الاعمدة في كل صف منها ثلاثة اعمدة . وتمتد هذه الصفوف من الاعمدة على شكل خطوط ذات زوايا قائمة الى داخل المسجد بالنسبة الى الجدارين ، الشمالي والجنوبي للمسجد ، ويلاحظ ان الرواق الاوسط من الـ ٢٥ رواقاً المذكورة في كلا الجانبين اكثر اتساعاً من البقية . أما الجانبان الغربي والشرقي من المسجد ففي كل منهما ٢٣ رواقاً مؤلفة من ٢٢ صفاً من الاعمدة في كل صف منها أربعة أعمدة . وبذلك تكون جملة عدد الاعمدة ٤٦٤ عموداً. وكانت السقوف ترتكز على العمد مباشرة

دون طيقان من البناء (راجع خارطة مسجد الجامع الكبير الذي انشأه المتوكل في سامراء حسب تخطيط كريزويل) .

صفحة ١١٢

يضاف الى الجملة المنتهية بكلمة (مشارة) الواقعة في السطر الخامس ما يلي :—

وتوجد داخل هذا السور ، بين جدران المسجد وبين السور ، آثار أبنية قديمة تدل على انه كانت حوالي المسجد مدارس دينية يدرس فيها الطلاب الذين كانوا يسكنون هناك على نمط هيأة المدارس الدينية الحالية في الجوامع والاماكن المقدسة .

صفحة ١١٣

تستبدل الاسطر الثلاثة الأولى من الجملة الثانية التي تبدأ بكلمة (يتضح مما تقدم) وهي السطور ١١ و ١٢ و ١٣ بما يلي : —

يتضح مما تقدم ان الشوارع الثلاثة التي كانت تؤدي الى المسجد كانت تتفرع من الشارع الاعظم الذي ينزل من وادي ابراهيم بن رياح ، وهو الشارع الرئيسي الذي كان يسير محاذياً الضفة الشرقية لنهر دجلة ومخترقاً حدائق « دار الخليفة » (دار العامة) الواقعة أمام الدار من جهة الغرب ، فتترك الشارع الاعظم جنوبي « دار الخليفة » و « قصر الهاروني » و « قصر الجوسق » وتتجه شرقاً حتى تفضي الى المسجد في جانب الحائط الغربي الذي كانت فيه ثمانية أبواب ، وذلك بعد ان تخترق السور الخارجي للمسجد .

۲۸٤ ز

صفحة ۱۸۷

تضاف الحاشية التالية الى ما بعد كلمة (وسامراء) الواردة في السطر الخامس عشر : —

ذكر لنا السيد محمود بك السنوي انه لما كان مديراً لناحية مميكة قبل اكثر من عشرين عاماً عثر في اطلال « عكبرا » على آجرة كبيرة الحجم من النوع الذي نسميه اليوم « الفرشي » كانت كتبت عليها كلمة « عبقرة » ، والارجح ان هذه الكتابة ترجع الى العهد الفارسي .